في رياض التفسير
للقرآن الكريم

الجزء الأول

تفسير مولانا الشيخ ابراهيم انياس الكولخي رضي الله عنه
مدينة كولخ عام 1383هـ

كتبه وخرج أحاديثه
محمد بن الشيخ عبد الله التجاني لطف الله به آمين
بمساعدة الولدين الاستاذين
أحمد بن الشيخ عبد الله
الشيخ باي بن أحمد

تقديم

الشيخ الحاج إبراهيم بن الشيخ الحاج عبد الله انياس رضي الله عنهما من الشخصيات الفذة الذين سخروا طاقاتهم لنشر الإسلام شكلا ومضمونا وجوهرا، وسلطوا اهتماماتهم على روحه فهما وتعميما وتعميقا، ووفقوا لخدمته شريعة وطريقة وحقيقة، وتحققوا بمراميه وأهدافه وإيحاءاته تحققا وتخلقا واتصافا، إلا أن وضع اليد على شخصيته صعب المنال لقصور الكتابة والكاتب وعجز الكلمات والحروف وشح القراطيس والأقلام عن التعبير عنها أحرى الإيفاء بها.

ولقد تفضل على القراء أمين سر الشيخ سَيِّدي علي سيس رضي الله عنه فكتب في مقدمة كاشف الإلباس تعريفا بالشيخ رضي الله عنه نسبا ومولدا وعلما وسلوكا وخلقا، بالإضافة إلى سرد بعض مؤلفاته رضي الله عنه، وإلى هذه المقدمة نحيل القراء الكرام ونكتفي بها في هذا المضمار.

إلا أن الأربع والأربعين سنة التي فصلت بين تاريخ هذه المقدمة والتحاق الشيخ رضي الله عنه بالله كانت مليئة بالعطاء متوجة بالتوفيق ساحبة ذيولها على شبه الخريطة الإسلامية رغم تباعد أنحائها وصعوبة اجتياح أرجائها، فكان رضي الله عنه هدية إلهية لكل من يمشي على قدمين، كما كان رضي الله عنه منتهى التصورات ومرمى الغايات في سائر مجالات السجايا والفضائل، ولنلم بأمثلة من ذلك لا تفي بالجزئيات أحرى الكليات.

ففي ميدان محبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي العمود الفقري لثمرات التفاعل الدؤوب بين الشيخ والعالم المحيط به واللهج بسيرته صلى الله عليه وسلم، والتحدث بمناقبه والتنويه بقدره ومقداره العظيم، فهذا كان منه ما لا يفي به قلم ولا يعبر عنه كلِم.

وعلى من يريد أن يفهم شيئا عن هذا الموضوع أن يعود إلى دواوين الشيخ الثمانية وقصائده العصماء التي تزن كل منها ديوانا كاملا في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي مجموعات شعره المحمدية ما يقارب ستة آلاف بيت كل بيت تقرأ فيه وتسمع وترى وتحس سعة المادح وعظمة الممدوح، كما تلمس قوة الصلة وعمق الروابط ومتانة الترابط ونهاية التقارب بين الحبيبين المادح والممدوح.

أما الرحلات والأنظام ومجالس الدعوة والتوجيه والخطب والرسائل والفتاوي التي ترتكز كلها على محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك بشريعته والاهتداء بهديه والتخلق بخلقه العظيم فلا يعلم عددها ومدى فاعليتها إلا عالم الغيب والشهادة.

وأما مناوأته لشتى فصائل الباطل والضلال أيا كان مصدرها سواء تسربت مع قنوات الاستعمار البغيض الشرس الذي ظل الشيخ رضي الله عنه شوكة مكهربة مسمومة متعددة الإبر مستعرضة في حلقه الخبيث.

وسواء اختفت في حلويات التبشير المسيحي المدجّن الذي ظل يرمي إلى تعرية البشرية من قيم الإنسانية وسعادة الحياتين العاجلة والآجلة...

وسواء ترددت من فوق منابر الإلحاد والوثنية المادية التي تسعى إلى تجريد أعظم مخلوق لله من لباس التقوى والإيمان لتُلبسه قضبانا من حديد منسوجة بالهمجية والشراسة والتفسخ والانسفال...

وسواء قذفتها مدخنة السموم التي يزفر بها المنكرون المعادون لكل من يربطه بالسماء رباط أخذ وعطاء من رسل الله وأوليائه وصالحي الأمة...

أقول إن مناوأة الشيخ إبراهيم رضي الله عنه لهذه الفصائل الدنية كانت ـ هي الأخرى ـ في منتهى الوضوح والشجاعة والسفور، فما كانت دسائس الاستعمار ومبيتاته وخططه النارية لتخفى عليه رضي الله عنه، وكان يُطلع عليها دائما ويُحذر منها خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالمسخ الديني والتفسخ الخلقي والتحطيم الثقافي والاستعباد البشري.

وأما غيرته على بيضة الدين الإسلامي ودفاعه المستميت عن تعطيل أحكام الشرع فأمر أوضح من الشمس، ومن أمثلة ذلك تعرضه في أحد مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي الذي كان من بين بنوده نفي حكم الرق في الإسلام، بل كانت هذه المحاولة من أهم فقرات جدول أعمال المؤتمر، فلما قال أحد المتدخلين إن الرق لم يثبت في الإسلام قارعه الشيخ رضي الله عنه بنصوص الآي وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة وآل البيت وقال: فإن كان يريد أن الإسلام أحبَّ التحرير وحض على العتق قال: "فتحرير رقبة"، "وفك رقبة"، وغيرها فمفهوم، وإن كان المقصود من هذا عدم ثبوت الرق في شرعنا المطهر فإنا لا نفهمه لنصوص الآي والأحاديث المصرحة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أعمال الصحابة بالاسترقاق، إلى أن قال: فإن نفينا ثبوت الرق في الإسلام حذفنا أبوابا كثيرة من كتب الحديث والأصول والفقه، ولا يقوم عليه دليل، فإن المقصود التقرب لخصوم الإسلام في الأمر كما قال تعالى: "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم" فمن أغضبه الحق فلا رضي، إلى أن قال: «فكون

الغربيين المستعمرين الكفار ينفون وجود الرق بعدما كانوا يتجرون بالأحرار على أنهم عبيد بمجرد الهوى لا يؤثر في حكم الشريعة والقواعد الدينية ووحي السماء».

أما الإلحاد الشيوعي المادي والتدجين الوثني الغربي فما فتئ الشيخ رضي الله عنه يحطم أساسهما الهش ويهدم صرحهما المنهار بمعاول الإيمان القوي الراسخ بالله ورُسله أصحاب النبوات السامية والرسالات السماوية مع تسفيه وتفنيد الآراء المستحدثة التي لا تستطيع أن تنظر إلى متطلبات الإنسان الروحية والمادية إلا بنظر شزر وعين حولاء.. يقول رضي الله عنه في إحدى مديحياته لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

تمسك بأذيال النبي متابعا ... مذاهبه والمحدثات فلا لا
فتغنيك عن دستور كرز وخالد ... وتغنيك عن جون يروم محالا
فما نابليون أو لنين ومركس ... بموحى إليهم خل عنك خبالا
كتاب من الله الجليل جلاله ... قديم وباق لا يخاف زوالا
تلاه الفتى المأمون جهرا ويقظة ... فدع بعد هذا كل قيل وقالا

وأما رده على أباطيل وترّهات المنكرين وتكذيبُه لأكاذيبهم وزورهم فما كان يعرف الهوادة ولا الملاينة، خصوصا إذا تعلق الأمر بالنيل من قداسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولة تجريده من مواهبه الإلهية، وفي هذا الصدد أدلك على تأليفه القيم المسمى: "نجوم الهدى في كون النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من دعا إلى الله وهدى" لتجد فيه الحجج الدامغة والمواقف الصامدة والقدرة الفائقة.. أما إذا تعلق الأمر بالمس من مكانة مولانا وسيدنا الشيخ التجاني رضي الله عنه وطريقته فذلك ما يشمر له الشيخ رضي الله عنه عن ساعد الجد ويُفرغ فيه الجُعب وتظهر على ملامحه ونبراته أمارات الغضب لله تبارك وتعالى والاستماتة فيه ألم تر إلى قوله

رضي الله عنه يحذِّر من مغبة الإقدام على حضرة الشيخ التجاني رضي الله عنه، ويبري سنان الرد بكل قوة وعنف على من يحاول خرق حدود الله والنيل من أعراض أولياء الله، محذّرا ومنذرا ومشيرا إلى أصالته وشجاعته وقوته وثقته بالله تبارك وتعالى واستعداده لكيل الصاع صاعات ورد كل طلقة بعشرات الطلقات فاستمعْ إليه رضي الله عنه يقول:

إنا اعتصمنا بالإله ودينه الـــ ـــإسلام والإيمان والإحســـان
ونُحِبُّ أهل الله صفوة خلقه ما ضرنا هذيان ذي هذيـــان
فرِضَى المهيمن إذ يُنال بسخطكم لا زال سخطكم مدى الملوان
خذها إليك ولن تعود وإن تعد عدنا وإنا فارسو المـــيدان
إنا نلاين تارة وإذا نصـــو ل هتكت أستار كل جبـــان
لا لا نُلاين من يسب طريقنـــا فلديه يخبثُ مقولي ولســـاني
إنا بنو الأقيال والأمراء والـــ ـــعلماء والصلحاء في السودان
إنا لعمرك معدن الأسرار والـــ ـــعرفان رغم الأنف من هيّان
فابكوا لخيبة سعيكم أوفاضحكوا فلبيسما أورثتَ من بيَّـــان

وإذا طالعت شرحه العملاق لنظم الخليفة السيد الحاج محمد الذي يردّ فيه على ابن مايابى الذي أسماه "الجيوش الطلع بالمرهفات القطع" ترى الجيوش الطلع والمرهفات القطع اسما ومسمى..

أما المسيحية وتباشيرها ومن يوجهها وتوجههم فما كانت لتنطلي عليه حيلهم ولا تخفى عليه دسائسهم، وإذا أردت البرهنة على هتكه لتلك الأستار الشفافة فعليك بتأليفه المسمى "إفريقيا للإفريقيين" الذي رد فيه على خطاب رئيس أساقفة دكار "لفيفر" الذي نشرته مجلة "فرنسا المسيحية" في شهر دجمبر 1959 بمناسبة عيد

الميلاد، والذي مس فيه من كرامة الإسلام، فبعد أن فنَّد أكاذيبه وفتق خزعبلاته وأبدى له بعضا من نقائض الكنيسة واستشهد له بهذا البيت:

لا تهجونَّ أسنَّ منك فربمـــا يهجو أباك من حيث لا تدري

ويورد له قول الشاعر:

وكنت إذا قوم رموني رميتهم فهل أنا في ذا آلَ همدان ظالم

وإن تعودوا نعد، والبادئ أظلم وباقي خزعبلاته لا يحتاج لجواب والسلام على من اتبع الهدى والعذاب على من كذب وتولى.

وللمزيد من دفاعه للمسيحية والصليب أحيلك إلى قصيدته الميمية بعنوان "الصارم والقضيب في قطع أوهام أهل الصليب" التي مطلعها:

وحي أتاك من الإله الأعظم لا ريب في هذا لغير جهنمي

إلى أن يقول:

فلَنِعم دين الهـــاشمي محمد فاخسأ أيا ثاثا نزيل جهنم

تمسي تحـــارب أحمدا وتسبـــه ففدىً له أرغمتُ كلَّ معظـــم

إلى أن يقول:

ما جاه شيطان وليس بساحر لا مفتر كلا وليس بمجـــرم

بله الخبيـــث وخبثه وظنـــونه ثاثا اللعين المفتري الغاوي العمي

إلى أن يقول:

إن يسكن الرهبـــان ديرا يعبدو ن صليبهم وهم وقـــود جهنم

ها نحن نعبد ربنا وبديعَنـــا نجزي الجدا للخلق نهدي من حمِي

تعظيم خلاق العوالم دينُنـــا من قبل إشفـــاق وفعل ترحم

وتبصر في الدين نقفو أحمدا بتتبـــع وتعقـــــل وتعلـــــم

وتعفف وصيـــانة وتكسب ... وتيقـــن وتكفـــؤ وتكـــرم
فدع المقالة عندهم فالدين فو ... ق العقل واتبع الهدى بتفهم
فالعقل يأبى أن يكون مخلّقٌ ... حدَثٌ إلهـا قد يرى نهج العمي
شتـــان بين المنهجـــين فعابد ... لمكـــوِّن ولصـــورة بتجسّـــم

إلى أن يقول:

لكنهم عمي البصائر كاليـــهو ... د الخبث كل في جهنم مضرم
قد كذّبـــوا عيسى النبي وأنتم ... ألزمتم فيه الذي لم يلـــزم
إذ أنه عبد الإلـــه صفيـــه ... روح من الروح الأمين لمريم
عيسى بن مريم أمه وجـــدوده ... سر سرى أسرى له بتقـــــدم

إلى آخرها وهي سبعون بيتا.

وأما دعوته إلى الله تبارك وتعالى واعتناؤه بنشر الإسلام في أنحاء المعمورة دانيها وقاصيها فكنار على علم، فقد كان رضي الله عنه يجوب الأقطار برا وبحرا وجوا للدعوة إلى الله وتعميم وتعميق رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتركيز أقدام العباد على الجادة، وإنارة معالم الهدى والسعادة الإنسانية. ففي رسالة نظرت إليها بخط يده الشريفة رضي الله عنه إلى أمير كنو سابقا السيد محمد السنوسي رحمه الله يقول:

وأنا على عزم على القيام برحلة إلى الشرقين الأدنى والأقصى بدعوة من بلدان شتى: الجمهورية العربية، والإتحاد السوفيتي والصين، وبرنامج رحلتي كما يلي: من دكار إلى باريس إلى الجمهورية، إلى بيروت، إلى طهران، إلى الهند، إلى سيكون، إلى هونغ كونغ، إلى الصين ثم العودة إلى موسكو إلى المغرب إلى دكار، وإلى هذه الرحلة يشير رضي الله عنه بقوله:

جمعت وجودا هيبة وجلالا — وأبصرت من ذا بهجة وجمـــالا
جمـــالك أنس هيبـــة ومحبة — فأنت أتم المرسليـــن كمـــالا
وكلهم حاز المكـــارم والعلا — وما كالإمام الهاشمي خصـــالا
محمد يا خير البرية حـــامدا — حباك إلهي ما يفوت مقـــالا
وأنت وهبت البيض والسود فانتحى — إليك خديم رام منك منـــالا
وأعنيك خيرَ العالمين وسيلتي — منيلي لدى اليوم الرهيب نوالا
وتيمني حبيك صرت مجمجما — على البر والأجوا أروم وصـــالا
فغادرت أوطاني وأهلي وأسرتي — أجوب الفلا لم أشك قط كلالا
بكولخ طورا أو بيوف ومرة — بباريس دار الفاسقين كسالى
ببلجيك يومـــا ثم يوما تجـــولا — بقاهـــرة أبغي هنـــاك جمـــالا
لعبد المليك القرم قد جئت موهنا — وما لـــندنا أبغي فهبها خيالا
ببيروت أنحو الصين بالشرق خادما — رسول إله العرش وهو تعـــالى
كراشي بهـــا خلفت أهل مودتي — همُ نصروا دين النبي فعـــالا
قد اعتصموا بالحبـــل حبل محمد — كبارا وأطفـــالا نسا ورجـــالا
بدار علوم الدين أدركت نزهتي — فقد شيدتْ مجدا يفوق هـــلالا
بمركز أنعـــام الإلـــه تشوقـــي — فقد شاد مجدا إذ أتاح مجالا
بلاهـــور بالهند القديم عمـــارة — مسيري إلى المولى وجل جلالا
لهنكوك من بنكوك جاء خديمكم — يوالي لك الأسفار وهو أطـــالا
بفـــارغ صبر قد أتى متطفـــلا — فحقق رجـــا عبد رآك مـــآلا
ففي كل حي قد خبطت بنعمة — إلى كل حي قد بذلت سجالا
علوت البحار الزاخرات وإنني — علوت القرى والمدائن بله الجبالا

أروم رضى الباري لنصرة دينه وأبرز للجيل الجديد مثـــالا
ضعيف عليـــل شـــائب متحمس لينصر دينا لا يريـــد قتـــالا
لأن النبي المصطفى الدهر ما غـــزا بلى صد عدوانا ورد ضـــلالا
تقاذفه الأجواء شرقا ومغربا يُبين الهدى فعلا وقالا وحالا
بكنتون جنب القرم سعد توسلي لقائده رد الجيوش وصـــالا
رمـــاهم بأمر الهـــاشمي وإنه أذاق الجموع المعتدين وبـــالا
عليك سلام الله يا سعد إنـــه أتاك خفاف يرجعون ثقـــالا
لبكين من كنتون بالشرق نائبـــا وكولخ تدعو قد أبنت الرحـــالا
تمسك بأذيال النبي متابعـــا مذاهبه والمحدثات فـــلا لا
فتغنيك عن دستور كرز وخالد وتغنيك عن جون يروم محالا
فما نابليون أو لنين ومركس بموحى إليهم خل عنك خبالا
كتـــاب من الله الجليل جلالـــه قديم وباق لا يخـــاف زوالا
تلاه الفتى المأمـــون جهرا ويقظة فدع بعد هذا كل قيل وقـــالا
فيا رب قرر لي العيون لكي أرى سوى الحق من ذا القرن زال زوالا
ويعلو لواء الهـــاشمي وقد هوى لوا الغي مسلوب المقـــام مُذالا
إليك ولا أرجو سواك وإن يكن سواك منالي ما قبلت نـــوالا
عليك صـــلاة الله ثم ســـلامه أجرني وأصحابي أراك ثمالا
عليك صـــلاة الله ثم ســـــلامه وتشمـــل أصحـــاب النبي وآلا

فكان من ثمرات هذا المجهود العظيم والجهاد الجسيم أن اعتنق الإسلام على يده رضي الله عنه من مختلف شعوب المعمورة ما عجزت وسائل العد والإحصاء عن عده. أما القلوب التي تعلقت بالله تبارك وتعالى على يديه فصفّاها من أدران

الغيريات ونقّاها من شوائب الأنانيات وأخلصها لخالق الأرض والسماوات فلا يعلم كمّها وكيفها إلا العليم الخبير بما تخفي وتكن الصدور، ففي إحدى رحلاته إلى إفريقيا يقول رضي الله عنه:

طرتُ إلى تمْلَ وقصدي نصري	دين المهيمن فيعلـي قدري
جئت وما أمكنني النزول	من كثرة الناس ولا الحلول
فسرت فـورا خيـفة لِينْدِ	كأن كل الخلق صاروا عندي
هنا عرانِيَ حيـاء وخجل	ما العبدُ إبراهيم ما له يُجل؟
لقنت آلافـا ولن تعـدا	كلمة التوحيد فاتوا العدَّا
ودخل الأفواج في الطريـقه	ووجدوا الخير على الحقيـقه

إلى أن يقول:

جئنا إلى محمد الأميـر	أميـر ينْدَ المنبع الكبيـر
وفيضة التجاني قد تدفقت	بينْدَ والأنـوار قد تفتقت
وحضرات القدس قد تحققت	وتيلك الأعجام قد تفوقت
ذكَّرهم بالخالق المنـان	رغَّبتهم أيضا إلى الجنـان
دعـوهم لهـا من النيـران	أقول حقي ثابتَ الجَنـان
كل أجاب دعوتي في محفل	مُلوكُها والكبراء أسفلـي
فقلـت لا إلـه إلا اللـه	محمد أرسله الإلـه
فقالها الكفار والمجـوس	والأمرا فطابت النفـوس
كذلك النساء فالتوحيـد	هناك منصور اللوا مجيـد
كذاك في تملَّ حين قلت	كلمة التوحيـد إذ نطقت
أنطقت كل الناس بالشهـاده	وهم ألوف قبلوا السعـاده

وفي رحلته "نفحات الملك الغني في السياحة في أرض بمكو وغني" يقول رضي الله عنه:

وسرت نحو كُرُسا وبت ... فيها وسُرَّ الكلُّ حين جئت
قالوا كلاما بلَّغونيه فما ... أحسن ما قال الرجال ثمَّا
وعظتهم ولم أقصّر وأرى ... لي ولهم نفعا يزيل الكدرا
دعوت ربي أن يعم هديي ... كل الورى ويحمدون سعيي
أسأله بذاته العليه ... وبصفات ذاته البهيه
يقضي حوائجي ويوليني المدد ... ويسلك العالم بي نهج الرشد
ساقني اللطيف نحو كَنْ كَنْ ... والرب أعطاني مقام كن كن
والقصد إحيا سنة الأمين ... أحيي طريق القوم للقرون

إلى أن يقول في آخرها:

ناديتُه ثَم بالاسم الأعظم ... تقربا هدية وقد حَمِى
وطيسُ صدري ثم بالأذكار ... لِمْ لا وقد ملئ بالأنوار
وبالحقائق وبالمعارف ... وسرّ سرّ السر والعوارف
حملتُ سرَّ خاتم الولايهْ ... جمعت بين الذوق والدرايهْ
أنشدني لسان حالي الجاري ... تحدثا بنفحات الباري
"امتلأ الحوض وقال قطني ... مهلا رويدا قد ملأت بطني"
قد خصني بالعلم والتصريف ... إن قلت كن يكن بلا تسويف
لكنني اتخذته وكيلا ... تأدبا فاختارني خليلا
وقلت لا إله إلا الله ... محمد أرسله الإله
ففاض مني سره فلا أحد ... يقصدني ما عرف الله الصمد

سواء الكبار والصغـــــار	قد قرب الحبيب والمـــزار
سواء الذكران والنســـوان	سواء الصعلوك والسلطان
لو شئت عم فيضُه البسيطــهْ	وأدركوا أسراره المحيطـــهْ
علم ذلك فلان وفـــلان	كذا فلان ما السماع كالعيان
ومرة أخرى ترون عجبـــا	من فيض ذا الختم إمام النُّجبـا
وذاك كلا فيضة التجـــاني	مدد مصطفى الورى العدناني
وذاك كلا منة المنـــان	أحمده في السر والإعـــلان
أوجدني حقا لجبر الكســر	فإنني وكيل سر الســـر
واليوم مطلبي لهم علــــوم	ظاهرة تَصحبها فهـــوم
آلمني اليوم اندراس سنـــــهْ	ماحي الضلال قائدي للجنهْ
لم أدر موجب السياحة التـــي	قهرني المولى لها وعلتــي
قد برئت قبل بلوغ الحُلــــم	وفقت في العرفان كل القَــوم
لكن ما فعله الجليــــل	هو الجميل إذ هو الجميـــل
فالحمد لله نشأتُ طاهــــرا	ما قلت فخرا بل نطقت شاكرا
ما قط جالست سفيها ولمــا	أصحب سوى فحول قوم عُلَما
أسأله يديم لي الحفظ مدى	عمري فلم أرتد رِدا ذوي الردى
أخوف ما يخاف كل عـــالم	أمر النسا هن هلاك العالم
تمـــرَّد البعض وبعض أوّلا	وبعضهم غُلب بعض جهـــلا
والعبد ذا بُلي بشهرة خشِي	من مكر ربه لذاك يختشي
خدمني الأحرار والعبيـــد	خدمني كذا الملوك الصيـــد
وخدم النســـاء والرجــــال	وخدم الأشيـــاخ والأقيـــال

اهتماماته رضي الله عنه بالقرآن العظيم

وأما اهتماماته الفائقة بالقرآن العظيم فقد تجسد بعضها في تحفيظه لأبنائه وبناته وأحفاده وحفيداته وأبناء وبنات المسلمين، وفي تشجيع الحفاظ والمقرئين ماديا ومعنويا وتشجيع الطلبة وذويهم على السير قدما على هذا النهج، فقد أسند رضي الله عنه هذه الخدمة تشريفا وتكليفا لأسرة أهل الرباني التي جمعت بين الأهلية والأحقية بقيادة سائق السعادة الأزلية الأبدية بأزمة المحبة القلبية الصادقة والولاء الكامل والارتماء أصولا وفروعا في أحضان الشيخ إبراهيم رضي الله عنه، فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه من غير أن تأخذه في الله لومة لائم ومنهم من ينتظر من غير تبديل ولا تغيير جازاهم الله خيرا وأدام ذلك المد في الله لله بالله.

ومن تشجيعاته رضي الله عنه للحفاظ أنه كلما حفظ ولد أو بنت يقيم حفل تكريم مكللا بالثناء على أهل القرآن العظيم ويختمه بتقسيم جوائز تشريف وتكريم، لا على القائمين على المحظرة فحسب بل على كل من سبق أن حفظ فيها أو في غيرها، أما الأبناء الحفاظ فينتظرهم تشجيع المنح إلى البلاد العربية لمتابعة الدراسات الشرعية، وأما البنات اللاتي حفظن فينتظرهن ما يناسبهن من استقرار شريف في أماكن شريفة.

كما تجسد بعض هذه الاهتمامات في تلاوة كتاب الله العظيم آناء الليل وأطراف النهار، لقد كان رضي الله عنه يختم القرآن كل أسبوع مرتين على الأقل وفي ذلك يقول رضي الله عنه:

نوِّر بنور الذكر والفرقان	بطنان ذا العبد مع الظهران
فلتجعلن حفظ كتابك الكريم	كرامتي إلى لقائك العظيم
شوقي وحبي فيك لا يشفيه	سوى حلولي وارتحالي فيه

نروم أن يصحبنا مع الدوام بحفظنا له ولو حال المنام
قدني به قطني وقد كفـــــاني كتابك الشافي لدى الأحـــزان

ومن أوجه اعتنائه رضي الله عنه بالقرآن العظيم أنه كان يأخذ كثيرا من الآيات ويودعها أنظامه البارعة، فعلى سبيل المثال لا الحصر له قصيدة على حروف الآية "إنما وليكم الله ورسوله" يقول في مطلعها:

إنِّي اتَّخذْت رسول الله مستنَدِي حسًّا ومعْنًى وما أرجو سوى سندي

وله نظم على حروف الآية " إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" يقول في مطلعه:

إِنِّي اسْتَجَرْتُ الدهرَ بالْمُهيْمن بِذَا الجوارِ حزْت كل مَــأمن

وله استغاثة على حروف الآية: "وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" مطلعها:

وجَّهت وجهي للقديم الباقي لا ضرَّني حسد ذي النِّفاق

وله نظم سماه "تقوية الضعيف في التوسل بالقرآن الشريف" بلغ مائة وأربعة عشر بيتا يتوسل فيه بكل سورة من سور القرآن على حدة يقول في أوله:

فأسأل المولى بخير الناس الفالق الإصباح كالمقباس

وله نظم مماثل سماه: "مفتاح النصر في التوسل بالذكر" يتوسل فيه بكل سورة من سور القرآن يبلغ هو الآخر مائة وأربعة عشر بيتا بدأه بقوله:

الحمد مطلقا لذات الباري ثم سلامنا على المختـــار

وله توسل على حروف الآية: "فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم" يقول في مستهله:

فزعت للكافي المهيمن الرقيب فكف أيدي البغي رب لي قريب

وله نظم سماه "مفتاح رحمة الرحيم في التوسل ببسم الله الرحمن الرحيم" يقول في أوله:

بسم الإله أشكر المريدا وأرتجي من فضله المزيدا

وله نظم على حروف "الم غلبت الروم" يقول في أوله:

أسأل ربي مالك الملوك وخالقي ورافع الشكوك

وله قصيدة على حروف "رب إني مغلوب فانتصر" مطلعها:

رب يا رب ذا عبيدك مغلو ب لتنصره يا نصير فيعلو

وله نظم على حروف "حسبنا الله ونعم الوكيل" يقول في مطلعه:

حسبي المهيمن وحسبي الواقي حسبي القديم الله حسبي الباقي

وآخر على حروف "إلا تنصروه فقد نصره الله" يستهله بقوله:

إني انتصرت بمنصـــور الإله مـــــلا ذي في الخطوب حبيب الله جل علا

وله نظم على حروف: "رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير" يقول في مطلعه:

رب تراني بائســـا فقيـــرا فارحم رحيمي البائس الفقيرا

وآخر سماه مفتاح النصر أوله:

رب العبـــاد غافر الذنوب وقـــابل التوب لتقبل توبي

وله نظم آخر على حروف: "كتب الله لأغلبن أنا ورسلي" يقول فيه:

كبّ العدو فإن الله غالبـــه فالموت طالبه والموت سالبه

كتابة التفسير

كما تجسدت بعض اهتماماته رضي الله عنه بالقرآن العظيم في كثرة تفاسيره له باللغة الفصحى وباللغة المحلية وكان جل هذه التفاسير فيما قبل العقد التاسع من القرن الرابع عشر الهجري، ولم يكتب الله التوفيق لتسجيل هذه التفاسير نظرا لعدم توفر وسائل التسجيل وقتها.

أما تفسيره الأخير باللغة العربية سنة 1383 فقد تم تسجيله في الأشرطة وتفرقت منه نسخ بين خلفاء الشيخ وأكابر أصحابه، وقد حرصت على كتابة هذا التفسير لصيانته من الاندثار وجعله في متناول الجميع تيسيرا لعموم النفع به، خصوصا وأن صحة الشيخ بدأت توحي بأن هذا التفسير قد يكون آخر تفاسيره رضي الله عنه. ولما فكرت في هذا المشروع الكبير واجهتني ثلاث عراقل ذات بال:

أولاها: كثرة الشواغل التي من بينها بعض الخدمات المهنية والتي يفرضها التوظيف.

ثانيتها: ضخامة المشروع وتعدد جوانبه من بحث وتسجيل وكتابة وتصحيح.

ثالثتها: ركوب أخطار لا مناص منها ولا مفر تتمثل في تحتم التصرف في بعض ألفاظ الشيخ رضي الله عنه التي قد تتعارض في بعضها مع الذي يقصده الشيخ رضي الله عنه من وراء اللفظ شأن كل كلام مرتجل. والشيخ – كما تعلمون – كان يفسر وبيده تفسير الجلالين، ولكن لا يرتبط به في الغالب إلا عندما يضيق الوقت بأن يحين غروب الشمس وهو صائم أو يخشى على الحصة المقرر تفسيرها يوميا من ضيق الوقت، أما قبل ذلك فالتفسير من موسوعاته رضي الله عنه التي هي مدٌّ لا جزر فيه.

والكلام المرتجل ـ كما لا يخفى عليكم ـ تتزاحم فيه الضمائر تذكيرا وتأنيثا وجمعا وإفرادا، وتتسابق في ميدانه الفسيح حركات الإعراب من رفع ونصب وخفض. وكانت هذه العرقلة هي أكبر ما اعترض طريقي وأصعب ما استسغته حتى هممت برفض المشروع، يحدوني الحرص على توثيق آثار الشيخ رضي الله عنه وإيصالها إلى أحبابه المتعطشين إليها تعطش الأرض إلى وابلها السحوح، ويصدني خطر التصرف في لفظ الشيخ والكثير من الأحباب ـ جعلنا الله وإياكم منهم ـ يعيشون في نبرة الشيخ أكثر مما ينتظرون من معاني الكلمات. فكتبت لسيدي ومولاي الشيخ الحاج عبد الله بن الشيخ الخليفة السابق لوالده وكبير أولاده أستأذن في المشروع رأسا وأبدي له هذه الجوانب، فأذن لي جازاه الله خيرا وتغمده برحمته وأسكنه فسيح جناته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وهذا نص جوابه لي وستقفون عليه صورة:

الحمد لله

إلى حضرة الأخ الفاضل والمحب الواصل السيد محمد بن السيد محمد عبد الله بن الشيخ عبد الله حفظه الله ورعاه آمين السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد فقد وقفت على مرسومكم واطلعت على مقصودكم وسرني ذلك كثيرا وأعجبت من هذه الهمة العالية رغم كثرة الأعمال والشواغل، شنشنة أعرفها من أخزم، ولكنكم علمتم يقينا أن القرآن هو أولى ما يهتم به العاقل وقد أعطانا الشيخ رضي الله عنه دروسا في ذلك شفهيا وتطبيقيا.

أسأل الله العلي القدير أن يؤيدكم بنصره ويحيطكم بتوفيقه ويكلل مسعاكم بالنجاح إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وقد أذنا لكم في تدوين ذلك مع ما شرطته لكم، ولكم منا الشكر والدعاء.

ودمتم ودام التوفيق حليفكم والسلام أخوكم الحاج عبد الله إبراهيم نياس.

كانت لي هذه الرسالة قوة ودفعا وثقة بالتوفيق. ولما لم يتم العمل في حياته رضي الله عنه، كتبت بعد التحاقه بالرفيق الأعلى رسالة مماثلة إلى أخيه الخليفة المبجل سيدي الشيخ الحاج أحمدُ أطال الله بقاءه ومتعنا برؤية محياه الوضاء ونفعنا برضاه، أستأذنه في متابعة العمل على النهج الذي رسمته وأذن لي فيه الخليفة الراحل سيدي الشيخ الحاج عبد الله، فتفضل ـ هو الآخر جازاه الله عن الإسلام والطريقة والفيضة والعلم خيرا ـ فأذن لي من خلال رسالته التالية:

الحمد لله

حضرة أخينا وحبيبنا في الله وفي الشيخ، العالم العلامة العارف بالله التقي الورع سيدي الشيخ محمد ولد الشيخ عبد الله التجاني الإبراهيمي حفظه الله ورعاه،

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد

فقد وردت علينا رسالتكم الغراء وانشرح بها صدري لما تضمنته من عبارات رقيقة ومعان رائقة دقيقة دالة على صدق المحبة والنية وسلامة الوجهة، الأمر الذي جعلني أشارككم حسًّا ومعنى النية والاتجاه في تنفيذ مشروعكم الذي لا أرى فيه إلا خدمة العلم والدين، أيّدكم الله ونصركم، وجازاكم عنا وعن العلم والإسلام وعن الحضرة كل خير.

هذا وإني قد جددت لكم الإذن في كل ما عندكم، وأذنت لكم إذنا مطلقا في الكتابة، والتحقيق، والطبع، والنشر، في كل ما صدر عن مولانا الشيخ إبراهيم انياس رضي الله تعالى عنه، وذلك لما أعرف فيكم من صدق وإخلاص في المحبة، ومقدرة في العلم ورشد وصلاح، وسلامة عقل وفكر، أطال الله لنا عمركم في صحة وعافية، وأخذ بأيدينا وأيديكم إلى ما فيه صلاح أمورنا في الدين والدنيا، وزادكم بسطة في العلم والجسم، ورزقنا وإياكم مرضاة الله ورسوله في باب حضرة مولانا الشيخ إبراهيم انياس رضي الله عنه إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وكل عام وأنتم بخير أخوكم وحبيبكم الخليفة الشيخ الحاج أحمد إبراهيم انياس.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاج عبد الله ابراهيم نياس

El-Hadj Abdoullah Ibrahim Niass

ص ب ١ المدينة ٢
كاولاخ ـ سنغال
ت ٨٧٧٩٠

KAOLACK - SENEGAL
B.P. N° 1 - Médina 2
Tél. : 877-90

الحمد لله

إلى حضرة الأخ الفاضل والمحب الواصل
السيد محمد بن السيد محمد عبد الله بن الشيخ محمد عبد الله
حفظه الله ورعاه آمين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته
وبعد فقد وقفت على مرسومكم واطلعت على
مقصودكم وسرني ذلك كثيرا ~~[illegible]~~
وأعجبت من هذه الهمة العالية رغم كثرة
الأعمال والشواغل شنشنة أعرفها من أخزم
ولكنكم علمتم يقينا أن القرآن هو أولى ما يهتم
به العاقل وقد أعطانا الشيخ رضي الله دروسا في القرآن
شرحها وتطبيقها أسأل الله العلي القدير أن يؤيدكم
بنصره ويمدكم بتوفيقه ويكلل مساعيكم بالنجاح
إنه ولي ذلك والقادر عليه وقد أذنا لكم في [illegible] نشر
تدوين ذلك مع شكره لكم ولكم منا الشكر والدعاء
ونرجو منكم دوام التوجه علينا عليكم والسلام أخوكم الحاج عبد الله إبراهيم نياس

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ الحاج أحمد إبراهيم انياس

CHEIKH EL HADJI AHMED IBRAHIM NIASSE

خليفة مولانا شيخ الإسلام الشيخ الحاج إبراهيم انياس

KHALIFATU MAULANA CHEIKH AL ISLAM EL HADJI IBRAHIM NIASSE

التاريخ: ٠٣ شوال ١٤٢٠هـ الرقم: .... N°:............ DATE:..........

الحمد لله:

حضرة أخينا وحبيبنا في الله وفي الشيخ ، العالم العلامة العارف بالله التقي الورع / سيدى الشيخ محمد ولد الشيخ عبد الله التجاني الابراهيمي حفظه الله ورعاه .

وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد :

فقد وردت علينا رسالتكم الغراء ، وانشرح بها صدرى لما تضمنته من عبارات رقيقة ومعان راقية دقيقة - دالة على صدق المحبة والنية وسلامة الوجهة ، الأمر الذى جعلني أشاركم - حسًا ومعنًى - النية والإتجاه في تنفيذ مشروعكم الذى لا أرى فيه إلا خدمة العلم والدين . أيدكم الله ونصركم ، وجزاكم عنا وعن العلم والاسلام ، وعن الحضرة كل خير .

هذا ، فإني قد جددت لكم الاذن في كل ما عندكم ، وأذنت لكم اذنًا مطلقًا - في الكتابة ، والتحقيق ، والطبع ، والنشر في كل ما صدر عن مولانا الشيخ ابراهيم انياس رضي الله تعالى عنه ، وذالك لما أعرف فيكم من صدق واخلاص في المحبة ، ومقدرة في العلم ورشد وصلاح ، وسلامة عقل وفكر ، أطال الله لنا عمركم في صحة وعافية وأخذ بأيدينا وأيديكم الى ما فيه صلاح أمورنا في الدين والدنيا ، وزادكم بسطة في العلم والجسم ، ورزقنا وإياكم مرضاة الله ورسوله في باب حضرة مولانا الشيخ ابراهيم انياس رضي الله عنه . انه على ذالك لقدير وبالاجابة جدير .

وكل عام وأنتم بخير .

أخوكم وحبيبكم الخليفة الشيخ الحاج أحمد ابرهيم انياس .

الهاتف: ٩٤١٣٢٩٣ / ص.ب: ٥٧١ كولخ ٨٢٤٤٩٣٧ دكار / ٩٤٤٤٢١٨ طيبة / ٦٤٠٨٥٢٦ جوال

Tel: 941 32 93 B.P: 571 Kaolack 824 49 37 Dakar / 944 42 18 Taiba / 640 85 26 Portable

منهجية العمل

بعد هاتين الرسالتين العظيمتين اللتين أذن لي فيهما الخليفتان بتنفيذ هذا المخطط شرعت بعون الله وحسن اختياره وتوفيقه في مرحلة الإنجاز، وكنت بدأت العمل على ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: سجلت نسخة صوتية من أصل جيّد كان عند والدي وشيخي الشيخ عبد الله رضي الله عنه، وصرت أبحث عن تكملة التسجيل، لأن الفترة الوجيزة التي يبدل فيها المسجِّلُ شريطه المملوء بشريط فارغ، أو يُحوِّل الشريط من وجه مملوء إلى وجه فارغ يضيع فيها بعض من التفسير قد يكثر وقد يقل حسب سرعة أو بطء التحويلات. فاستعنت على هذه التكميلات بنسخة عند الأخ الفاضل المقدم السيد سيد أحمد بن الداه تغمده الله برضاه، وبنسخة للأخ الفاضل المقدم السيد محمد الهيبة بن اطفيل أطال الله بقاءه، وبنسخة للأخ الفاضل المقدم سيدي وجاه بن الرباني تغمده الله برضاه، وبتسجيل شبه كامل للسيد محمد سعيد بن برهام أطال الله بقاءه مع بعض الأشرطة المتفرقة التي حصلت عليها من جهات أخرى.

وساعدني في تصفية هذه الأشرطة الأخ الصالح والولد الرابح ابن عمي ومريد والدي السيد سيد محمد بن اعليٌّ جازاه الله خيرا وأراه في الدنيا والأخرى ما تقرّ به عينه.

المرحلة الثانية: كتابة التفسير من الأشرطة الصوتية تسويدا، وقد استعنت في هذه المرحلة ـ إضافة إلى ما تقدم ـ بأعداد من مجلة "آثار" التي تصدرها إذ ذاك جمعية

أنصار الدين بمعطى مولانا حيث كانت تكتب دروسا من التفسير تحت زاوية "في ظلال التفسير".

وهنا لا يسعني إلا أن أسدي جزيل الشكر وآيات الامتنان لهذه الجهات التي استعنت بإنجازاتها المثلى في مهمتي الصعبة هذه، راجيا من الله لي ولهم التوفيق والقبول والسعادة الأبدية.

المرحلة الثالثة: كتابة ما سودته من التفسير على الآلة الالكترونية وقد تولى هذه المهمة وباشرها بنفسه ولدي الأستاذ أحمدُ ولد الشيخ عبد الله جازاه الله خيرا ووقاه شرا وضيرا، وقد حرصت في جل هذه المراحل على أن أباشر بنفسي العمل لأتحمَّل دون الآخرين تبعاته إن كانت، والله أسأل المغفرة والستر والعفو والتيسير ببركة البشير النذير والكتاب المنير، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

فكرة التخريج والتحقيق

بعدما قاربت العمليات السابقة الكمال رأيت من الضروري أن أجري شبه تحقيق أو تخريج على الأصح لهذا التفسير، فشرعت في تدوين وحصر الأحاديث التي استطردها الشيخ رضي الله عنه، والشعر الذي استشهد به، والوقائع التاريخية التي أوردها استطرادا واستشهادا، والكلمات اللغوية التي قد تتخلل سياق حديثه رضي الله عنه والتي تبدو الحاجة في توضيحها عبر المناجد والقواميس اللغوية، والتعريف ببعض الشخصيات التاريخية التي ترد أسماؤها من وقت لآخر، وكان عملا صعبا يحتاج إلى كثير من المطالعة وإنفاق الوقت والجهد، وقد ساعدني في هذا العمل بالإضافة إلى الولد الأستاذ أحمدُ ولد الشيخ عبد الله الولد الأستاذ الشيخ باي

بن أحمد بن الطلبة الذي أفرغ ما في جعبة وقته وطاقته في البحث المستمر في أمهات كتب التفسير والحديث والسيرة النبوية والنحو والصرف واللغة والتاريخ والأدب، فقد تفرغ هذان الأستاذان من مهامهما المهنية ليعيشا معي عالم البحث والتحقيق ويتنفسا معي غبار السهر والسمر على موائد المخطوطات والمطبوعات، لا يتصيدان من الراحة إلا ما غاب عن قبضة الليل والنهار.

وبالإضافة إلى هذين الأستاذين هناك كثيرون شاطروني متعة هذا العمل ومتاعب هذا المجهود، وإني مدين للجميع بالشكر والامتنان سائلا المولى الأجل أن يتولى جزاءهم الأوفى في هذه الدار وفي تلك إنه على كل شيء قدير. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

همسة خفية

قد يتفرق العلم في صفوف العلماء وتتوزع الفهوم بين أهلها حسب ميراث الجميع من الحظوظ المعتبرة عند أهل الله، وقد تكتب تفاسير وتطبع وتنشر وتتعاطاها الأيدي والمكتبات والرفوف، ويعتني بها المحظوظون وتسيل من بين أصابع المغبونين.. إلا أن هذا التفسير الذي وفق الله للحصول عليه من نوع آخر لا يسهل وضع يد العدّ أحرى الإحاطة على ما في جعبته من مزايا مدهشة وفوائد مذهلة من علوم ومعارف ونكت وطرائف ونوادر أدبية من نوع فذ.

وقد لفت انتباهي سعة ذاكرة المفسر الذي كان يفسر من إملاء معارفه الخاصة إلا ما كان من لجوء إلى تفسير الجلالين اقتصارا عليه عندما يضيق الوقت على إكمال حصة التفسير اليومية، فقد أجريت شبه إحصاء للأحاديث التي استطردها الشيخ رضي الله عنه خلال تفسيره محاولة مني لتخريجها، فزادت على ستة آلاف حديث استطعنا تخريج ما في الصحاح منها وما تفرق في التفاسير وفاتنا بعضها لم نتمكن من الحصول على مصادره.

وقد أشار سيدي الشيخان بن الطلبه رضي الله عنه إلى هذه السعة المعارفية بقوله:

بما في الكتْب قد تاتي وتاتي .بما لم يأت قط به كتاب

وفقنا الله وإياكم وألهمنا شكره.

محمد بن الشيخ عبد الله التجاني لطف الله بهما آمين.

منهجية التحقيق

اعتمدنا في تخريج الأحاديث على أمهات الحديث المعروفة كصحيحي البخاري ومسلم وكسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وكمسند الإمام أحمد وموطإ الإمام مالك، ثم على الجامعين الكبير والصغير للسيوطي ومستدرك الحاكم ودلائل البيهقي وغيرها من كتب الحديث كما سيكتشفه القارئ بنفسه ويدركه بشعوره وحسه..

فإن كان الحديث في الصحيحين اقتصرنا عليهما دون ذكر غيرهما من المصادر، وإن لم يكن مما أخرجاه بحثنا عنه في السنن، فإن تواتر فيها اقتصرنا على ذكر مصدرين منها في الغالب، وإن انفرد بالحديث أحدها اعتمدناه. وقد يلاحظ القارئ أحيانا ما يشبه الخروج على هذا المنهج إذ قد نلحق برواية الصحيحين مثلا رواية من بعض مصادر الحديث الأخرى، ومعنى ذلك، حيث حصل، أن فيها زيادةً ذكرها الشيخ ولم تشملها روايات الشيخين، أو هي في لفظها أقرب لما حكاه الشيخ رضي الله عنه. وإن لم يكن الحديث قد ورد في السنن بحثنا عنه بحثا مستفيضا في غيرها من مصادر الحديث.. فإن لم نعثر عليه فيما بين أيدينا منها على الأقل – ولا ندَّعي استكمال البحث فيها – نستنطق حينئذ التفاسير على تعددها، معترفين في ذات الوقت بالقصور والتقصير، وبالجناح المهيض الكسير، والطرف الخاسئ الحسير عن التحليق في سماء الإحاطة بمرويات مولانا الشيخ إبراهيم رضي الله عنه ومداركها وهيهات.. ولقد تعمدنا تدوين نص الحديث في الهامش بالكامل دون ذكر السند اختصارا، ولو تكرر في مواضع متباعدة من التفسير، والدافع إليه أن الشيخ رضي الله عنه كان يروي الحديث أثناء التفسير في الغالب بالمعنى بحكم عامِلَيْن اثنين:

أولهما الطابع الارتجالي الشفهي للتفسير والذي يصعب معه إلى حد كبير استحضار النصوص على كثرتها كما هي. وثانيهما - ولعله الأهم - حِرصُ مولانا الشيخ رضي الله عنه على التواصل مع جمهور التفسير الذي يشكل العرب ممن يحضره الجزء الأقل، وعجمية الجمهور تقتضي تبسيط الخطاب وتقريبه لتحصل الفائدة.

ولم يك تتبع اللآلئ والفرائد، وجواهر المعارف والفوائد، وصنوف نكت الإمتاع الشوارد، التي يزخر بها هذا البحر الزاخر ويقلبها موجه المتلاطم الهادر، ومحاولةُ تخريجها بأقل عناء ومشقة بالنسبة لنا مما كلَّفَنَاه تخريج أحاديثه أو ما تمكنا على الأصح من تخريجه منها. فعذرا إلى القارئ الكريم فهذا البحر لا ساحل له ولا قاع، ولا سبيل إلى الإبحار فيه بمجاديف الآمال والأطماع.

أما على مستوى الشكل فلقد وضعنا النص القرآني المراد تفسيره سواء كان آية أو جزء منها بين هذين القوسين ﴿ ﴾ أو بين هذين ﴿ ﴾ عند ذكر سبب النزول، وإذا تكرر ذكر الآية في سياق تفسيرها جعلناها بين مزدوجتين « » ووضعنا النص القرآني المستشهد به أثناء التفسير بين ظفرين " " في حين وضعنا نص الحديث بين قوسين ( ) معتذرين عن عدم التمكن من كتابة النص القرآني كما هو في المصحف الشريف لأسباب فنية.

والله نسأل وهو تعالى أجل وأعظم مسئول، أن يبلغ مولانا محمد بن الشيخ عبد الله بهذا العمل الجليل فوق المراد والمأمول، وما ذلك على الله بعزيز.

المحققان: - أحمدُ بن الشيخ عبد الله

- الشيخ باي بن أحمد

الدرس الأول

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر

ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

«أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» ينبغي لكل شارع في فن أن يعرف مبادئه، حدّه، وحدُّ هذا الفن علم تعرف به معاني كلام الله، واسمه علم التفسير. والتفسير والتأويل ليسا على معنى واحد، التفسير معناه ما يفسر كلام الله تبارك وتعالى من جهة المنقول، والتأويل ما يؤيد احتمال الكلام لمعنى به من جهة العقل. لابد من النقل في التفسير، لأن القرآن يقول للرسول صلى الله عليه وسلم "لتبين للناس ما نزل إليهم"، فلهذا يعتمد في التفسير ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم. وإذا لم يوجد نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيقبل التفسير بالمعقول، لأن الله تبارك وتعالى يقول: "قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"، هذه الآية أعطتنا أن نتعقل حتى نفهم معنى كلام الله تبارك وتعالى. سئل علي كرم الله وجهه: ''هل عندكم كتاب خصكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم آلَ البيت؟ قال: لا، إلا كتاب الله تعالى أو فهما فيه أعطيه رجل مسلم''[1]. وقال علي كرم الله وجهه: ''القرآن ذلول ذو

1 – أورد الإمام الغزالي في كتابه الإحياء ج1/ 375 عند ذكر "أعمال الباطن في التلاوة": عن علي كرم الله وجهه قال: "ما أسر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عز وجل

وجوه فاقبلوا وجوهه"[1]. كل من تمسك بشيء له وجه من القرآن فلا يعترض عليه فيه. والتفسير والتأويل كلاهما لا بد أن يعتمد من جهة النقل أو العقل، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن تفسير القرآن بالرأي[2]. لابد في تفسير القرآن من معرفة كلام العرب ومعرفة الأحكام الشرعية، ومعرفة البيان والبديع، ولابد من نور في قلب المفسر[3].

عبدا فهما في كتابه". وقال الحافظ العراقي في تخريجه لهذا الحديث: من رواية أبي جحيفة قال: سألنا عليا فقلنا: هل عندكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدا فهما في كتابه .. الحديث. وهو عند البخاري بلفظ: هل عندكم من رسول الله ما ليس في القرآن..الخ. صحيح البخاري كتاب الديات/ العاقلة (6903)

1 - أخرج ابن سعد من طريق عكرمة عن ابن عباس أن عليا بن أبي طالب أرسله إلى الخوارج فقال: اذهب إليهم فخاصمهم ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ولكن خاصمهم بالسنة. وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال له: يا أمير المومنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم في بيوتنا نزل، قال: صدقت ولكن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصا، فخرج إليهم فخاصمهم بالسنن فلم تبق بأيديهم حجة. الإتقان في علوم القرآن 122/2. ومن أمثلة هذه الوجوه على سبيل المثال تعدد معاني "الفتنة" إلى خمسة عشر معنى، انظرها مفصلة في الإتقان 2/ 126- 127.

2 - روى الترمذي في صحيحه من كتاب تفسير القرآن: عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار) (2874). وورد في الجامع الكبير (جمع الجوامع) ج1/ 814 وفي الجامع الصغير ج2/ حديث رقم 8899.

= - وروى ابن جرير والبغوي وابن الأنباري والبيهقي في الشعب عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ). الجامع الكبير ج814/1. وفي الجامع الصغير: (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ) ج2/ رقم8900.

3 - ذكر السيوطي في الإتقان أنه على المفسر أن يكون جامعا للعلوم التي يحتاج المفسر إليها وهي خمسة عشر علما:

هذا الكتاب أنزله الله إلينا هدى ونورا، ليس كسائر الكتب المؤلفة، ليس قانونا دنيويا جافا، وليس كتابا طبيا تعرف به الأمراض والأدوية، وليس تاريخا بشريا تعرف به الوقائع والأحداث، وليس سفرا فنيا يطرب به، لأن هذه الفنون كلها تقدر القوة الإنسانية أن تؤلف مثلها.

وهذا الكتاب الذي جاء هدى ونورا وراء هذا كلا، وجامعا لهذا كلا، دستور دنيوي وأخروي منذ نزوله إلى آخر الدهر، كل دستور يخص بلدا أو بلادا زمنا ثم ينسخ وهذا دستور مستمر لكل الأجيال في كل البلدان. بهذا الكتاب تمسك من قبلنا وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأعطاهم الله تبارك وتعالى ما وعدهم "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون"، "وكان حقا علينا نصر المومنين"، "ولله العزة ولرسوله وللمومنين". لما تمسكت الأمة بالقرآن وفَى الله لهم بهذه الوعود فرأوا ذلك، فملكوا البلاد وقهروا أهلها؛ أقوى دولة في العالم آنذاك الرومان والفرس قهرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عندهم آلة ولا عَدد ولا عُدد إلا سور من القرآن؛ ليس كلهم يحفظ القرآن كله، بل كلهم يكفيه أن تكون عنده سور من القرآن ولكن

اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، وعلوم البلاغة الثلاثة: البيان والمعاني والبديع، وعلم القراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول والقصص، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، وعلم الموهبة وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ويشير إليه حديث (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم). الإتقان 4/ 185 - 188.

يعمل بها ويتمسك بها[1]. عمر بن الخطاب فتح ربع الدنيا وتغلب على جميع الدول حتى دخل أوروبا وحكم في الناس كلا، لا يعلم حسابا ولا هندسة إلا هذا الكتاب. ولما غفلت الأمة عن هذا الكتاب تسلط عليهم الأوربيون وياجوج وماجوج الشرقيون فتغلبوا عليهم ففقدوا عزهم الذي اكتسبوه بالقرآن، وطريق الرجوع إلى العزة والمجد هو التمسك بهذا الكتاب، ولا يمكن التمسك بهذا الكتاب لمن لم يعرف تفسيره أو معناه، فهذا كتاب أنزل من السماء، أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله بشيرا ونذيرا، بيَّن فيه جميع ما أمر به عباده وبيَّن فيه جميع ما نهى عنه عباده، وعلَّمهم ما يعِدهم به في الآخرة من سعادة، ومن لم يعرف هذا الكتاب كيف يعلم أن يتمسك به؟ لا بد من تفهُّم هذا الكتاب، فلهذا الرسول صلى الله عليه وسلم فسر القرآن وأصحابه[2] فسروه والأمة فسروه عدة تفاسير، هذا القرآن نزل فيه وعد في بداية نزوله حقق الله لنا ذلك الوعد تحقيقا يحملنا على قوة الرجاء

---

1 - قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل. تفسير القاسمي ج 4 /780.

2 - قال ابن عطية: وكان جِلّة من السلف كثير عددهم يفسرون القرآن وهم أبقوا على المسلمين رضي الله عنهم في ذلك، فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبد الله بن عباس وهو تجرد للأمر وكمله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما. والمحفوظ في ذلك عنه أكثر من المحفوظ عن علي. وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب. وكان علي رضي الله عنه يثني على تفسير ابن عباس ويحض على الأخذ عنه. وكان ابن عباس يقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس. وقال عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق. ويتلوه عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص. تفسير القرطبي ج1/ 35.

في كل ما وعدنا به هذا الكتاب. نزل في بداية القرآن "لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه" هذا في بداية نزول القرآن، وعد الله أنه سيجمع لنا القرآن، فجمع هذا القرآن جمعا ما سبق له نظير في أي كتاب منزل من السماء أو مؤلف في الأرض، لا تجد بيتا إلا وتجد فيه مصحفا جمع فيه القرآن، إذاً "جمْعه" الذي وعدنا به رأيناه كما وعدنا الله تبارك وتعالى، "وقرآنه" وعدنا أن هذا الكتاب لا بد أن يقرأ فقرئ هذا الكتاب قراءة لم يسبق لها مثيل لأي كتاب، قرأه الناس، قرأه المسلمون، وقرأه الكفار، وقرأه الحديد، وقرأه كل شيء، لا تجد الآن إذاعة حتى في باريس أعداء الإسلام، حتى في لندن أعداء الإسلام، حتى في إسرائيل، حتى في محل قداسة البابا، لا تجد إذاعة بالعربية تفتتح كلامها إلا بعد قراءة القرآن، هذا كما وعدنا الله أن هذا القرآن يقرأ، قرئ أيضا قراءة ما سبق مثلها لأي كتاب، "ثم إن علينا بيانه" وعد ببيان القرآن ففسر القرآن أيضا من التفاسير في المؤلفات ومجالس التفسير من زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ما لم يسبق له مثل[1]. قلت إن هذه الوعود

---

1 - اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير / الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج4 / 204.

وقال القرطبي بعد سرد أسماء بعض الأئمة المفسرين من الصحابة والتابعين: .. ثم حمل تفسير كتاب الله تعالى عدول كل خلف كما قال صلى الله عليه وسلم: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) خرجه أبو عمرو وغيره. قال الخطيب البغدادي: وهذه شهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أعلام الدين وأئمة المسلمين لحفظهم الشريعة من التحريف والانتحال للباطل وردّ تأويل الأبله الجاهل وإنه يجب الرجوع إليهم والمعول في أمر الدين عليهم رضي الله عنهم. تفسير القرطبي ج1/ 36.

الثلاثة حقق الله لنا فيها ما وعدنا به حتى قوي رجاؤنا أن كل ما وعدنا الله به في القرآن نجده كما وعد "إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا".

وتفسير القرآن علم هو أشرف العلوم، لأن شرف كل علم بقدر شرف متعلقه، وهذا كلام الله، نسبته من كلامنا كنسبة الحق من الخلق، فهو أشرف جميع العلوم.

والقرآن له أسماء عديدة، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ورد في القرآن خمسة وخمسون اسما للقرآن، فهو القرآن، وهو الذكر، الآيات البينات، ولكن هذه الأسماء كلا إذا تفكرت في معانيها ترجع إلى اسمين هما القرآن والفرقان. كما أن أسماء الله تبارك وتعالى إذا فكرت فيها ترجع كلها إلى الجلال والجمال، فالقرآن من القرء الذي هو الجمع، والفرقان من الفرق الذي هو التفرقة، فإن العبد لا بد أن يجمع بين الفرق والجمع، فمن لا فرق له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له، والفرق فَرقانِ: فرق هو الاحتجاب بالخلق عن الحق تبارك وتعالى، هذا حجاب، وفرق هو معرفة الخلق بالحق "خلق السماوات والأرض بالحق" وهذا الفرق الذي يرجع للعبد بعد فنائه هو الكمال، لأنه يعطي كل ذي حق حقه ويوفي كل ذي حظ حظه، فلا فرقه يحجبه عن جمعه ولا جمعه يحجبه عن فرقه، فلهذا اقتصرنا على شرح اسمين من أسماء القرآن هما: القرآن والفرقان، القرآن حضرة الجمع الذي هو حضرة الأحدية لا شيء غيره تبارك وتعالى، هو الله أحد، والفرقان حضرة الفرق "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير".

«أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» الحكمة في ابتداء القرآن افتتاح القراءة بهذه الكلمة أن الدخول إلى الملِك يحتاج لقرع الباب ويحتاج للاستئذان، والمتكلم لما أراد الشروع في قراءة كلام الله تبارك وتعالى فإنه يشرع في دخول حضرة الله تبارك

وتعالى يناجيه بكلامه، فلهذا تنظف ونظف لسانه بقوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: "فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم".

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (هكذا علمنيه جبريل عن اللوح عن القلم عن الرب تبارك وتعالى). فهذه الصيغة أفضل صيغ الاستعاذة[1].

«أَعُوذُ» ألتجئ إلى الله تبارك وتعالى، أستغيث «بِاللَّهِ» تبارك وتعالى «مِنَ الشَّيْطَانِ» الذي هو إبليس. الشيطان من شطن إذا بعد[2]، وإبليس كان عبدا مقربا في حضرة الله تبارك وتعالى كما سيأتي في قصته غدا في سورة البقرة، فطُرد ولُعن وأبعد عن حضرته، فسمي شيطانا وسمي إبليس بعدما كان اسمه عزازيل[3] و «الرَّجِيمِ» بمعنى مرجوم مطرود عن حضرة الله تبارك وتعالى، مطرود عن الجنة، مطرود عن السماء، مطرود عن رحمة الله تبارك وتعالى.

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» استعاذ العبد بالله عَلَم على الجلالة من الشيطان الذي علمنا الله أنه عدو لنا وأمرنا أن نتخذه عدوا، واتخاذ العدو عدوا أن تتحصن منه وتستعيذ، والعبد ليس عنده إلا ربه، يرجع إلى ربه ويلتجئ إليه، يستعيذ به من شر هذا المخلوق الذي هو إبليس.

---

1 - روي عن ابن مسعود أنه قال: قلت أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (يا ابن أم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأني جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم) القرطبي ج1/ 87.

2 - لسان العرب لابن منظور: والشيطان فيْعال من شطن إذا بعد فيمن جعل النون أصلا.

3 - ذكره ابن قتيبة في المعارف ص14 ط2 (دار المعارف) وقال القرطبي في تفسيره: وكان اسمه بالسريانية عزازيل وبالعربية الحارث ج1/295.

كان متعلم يتردد إلى عالم في خراسان حتى حفظ من فيه أربعة آلاف حكمة، فلما ودعه للرجوع إلى وطنه قال له: أعلمك شيئا أفضل من جميع ما عندك من الحكم، هل في بلادكم إبليس؟ قال له: نعم، قال: هل يوسوس لكم؟ قال له: نعم. قال له: إذا وسوس لكم عدو الله ماذا تفعلون؟ قال: نردُّه. قال: إذا رجع؟ قال: نرده. قال: إذا رجع أيضا؟ قال: نرده. قال له: لا تقدرون على رده "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم" ولكن إذا وسوس لك عدو الله فكن كالضيف إذا سطا عليه كلب رب المنزل يستجير برب المنزل، لا يباشر الكلب بنفسه، أنت إذا وسوس لك إبليس التجئ إلى ربه، يكفيك شره قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[1].

وأعوذ بالله من الشيطان الرجيم: الشرور على أقسام: شر يتعلق بدين المرء، إما كفر أو ابتداع أو فسق أو كبيرة أو صغيرة، كل هذه مصائب في دين المرء، أو مصيبة في بدن العبد: مرض أو زمن أو ضعف أو كسل أو جبن، أو في ما للعبد كمرض الأولاد، موت الأولاد، وفقد الأموال، كل هذه مصائب، العبد إذا استعاذ بالله ينوي أنه يستعيذ بالله من جميع شره، شر يرجع إلى دينه وشر يرجع إلى بدنه، وشر يرجع إلى ما لَه من الله تبارك وتعالى من نعمة. قيل صورة الاستعاذة تباين المعرفة، لأن الخوف من غير الله تبارك وتعالى لا يرضى به العارفون لأنفسهم لأنهم لا يرون غير الله تبارك وتعالى، ولكن هذا أدب مع الله تبارك وتعالى حيث أمر به. والعبد لا بد أن يرى ذلته ومسكنته بين يدي خالقه، إن شاء تجبر على غيره، وأما عند خالقه فهو مسكين ضعيف عاجز عن كل شيء حتى إبليس الضعيف يستجير بالله تبارك وتعالى منه لأنه عاجز عن طرده. قالوا: خف من الله تبارك وتعالى لشدة

1- انظر هذه المحاورة في تفسير روح البيان ج6/1.

رمضان قُيِّدتُ وسُلسِلتُ لا أتحرك مدة رمضان. قال: لم تمنعهم من الجهاد؟ قال: أوضع في قيد ما لم يرجعوا عن الجهاد. قال: لم تمنع أمتي من الصدقة؟ قال: أُجعل في قدر محموم حتى لا أمنعهم من الصدقة[1]. فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم وكتفه وربطه في إحدى سواري المسجد قال إنه يتركه حتى يصبح ويجتمع الناس كلهم ينظرون إليه. بعد ذلك تذكر قول سليمان عليه السلام "وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي" فتأدب الرسول صلى الله عليه وسلم مع سليمان فأطلق سراحه[2].

---

[1] - روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خرج النبي عليه الصلاة والسلام ذات يوم من المسجد فإذا هو بإبليس فقال عليه الصلاة والسلام: ما الذي جاء بك إلى باب مسجدي؟ فقال يا محمد جاء بي الله. قال: فلم ذا؟ قال: لتسألني عما شئت. فقال ابن عباس وأول شيء سأله عنه الصلاة، قال: يا إبليس لم تمنع أمتي عن الصلاة بالجماعة؟ قال: يا محمد إذا خرجت أمتك إلى الصلاة تأخذني الحمى الحارة فلا يرفع ذلك حتى يتفرقوا. وقال عليه الصلاة والسلام: يا إبليس لم تمنع أمتي عن قراءة القرآن؟ قال: عند قراءتهم أذوب كالرصاص. وقال عليه الصلاة والسلام: يا إبليس لم تمنع أمتي عن الجهاد؟ قال: إذا خرجوا إلى الجهاد قيدت بقيد على قدمي حتى يرجعوا. وقال عليه الصلاة والسلام: لم تمنع أمتي عن الحج؟ قال: إذا خرجوا إلى الحج أسلسل وأغل وإذا هموا بالصدقة يوضع على رأسي المنشار فينشرني كما ينشر الخشب. روح البيان ج5/1.

[2] - جاء في صحيح البخاري: كتاب الصلاة/ باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد (461) عن أبي هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم: (إن عفريتا من الجن تفلّت علي البارحة أو كلمة نحوها ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان رب "هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي". وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب المساجد ومواقع الصلاة/ باب لعن الشيطان في أثناء الصلاة (842).

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ البسملة اختلفوا فيها اختلافا كثيرا هل هي آية من الفاتحة أو آية من كل سورة أو آية من القرآن فقط. بعضهم قالوا إنها جزء آية من القرآن "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم" وليس آية في القرآن وليس آية في الفاتحة، ولاسيما في غير الفاتحة[1]. ومنهم - وعلى رأسهم الشافعي - من قال إنها آية في الفاتحة. ومنهم من يقول إنها ليست آية في الفاتحة ولكن ابتدئ بها. والحجة أن البسملة من الفاتحة كونها قد وجدت مكتوبة في المصحف برسم القرآن وما ليس من القرآن لا يجوز كتبه برسم القرآن، وهي وجدت مكتوبة على رأس كل سورة هذا أقوى حجة أنها آية في الفاتحة وآية في كل سورة. وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (ما كنت

---

1 - استدل القرطبي على أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها بما روي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال: البسملة تيجان السور. وقال القرطبي إن هذا قول مالك. وعلى أنها آية في كل سورة قال به عبد الله بن المبارك. وقال الشافعي إنها آية في الفاتحة محتجا بما رواه الدارقطني من حديث أبي بكر الحنفي عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن سعيد بن أبي سعيد المقبُري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني وبسم الله الرحمن الرحيم احد آياتها). الجامع الكبير ج76/1. وحجة ابن المبارك وأحد قولي الشافعي في أنها آية من كل سورة ما رواه مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (نزلت علي آنفا سورة) فقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر". القرطبي 93/1.

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله رب العالمين سبع آيات إحداهن بسم الله الرحمن الرحيم وهي السبع المثاني والقرآن العظيم وهي أم القرآن وفاتحة الكتاب. الجامع الكبير ج1/ 407 .

أعرف انتهاء سورة وابتداء سورة إلا ببسم الله الرحمن الرحيم)[1]. عند رأس كل سورة يقول جبريل: بسم الله الرحمن الرحيم فيعرف الرسول أن هذه هي بداية السورة.

والحجة الثانية أن البسملة ابتداء ببسم الله تبارك وتعالى، والله تبارك وتعالى أمر أنبياءه قبل الرسول أن يبدأوا ببسم الله في كل أمورهم. قال نوح: "بسم الله مجراها ومرساها" وقال سليمان: "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي". والنبي صلى الله عليه وسلم كلف في القرآن بأن يقتدي بجميع الأنبياء "فبهُديهم اقتده" فوجب عليه أن يبتدئ بالبسملة كما ابتدأوا بها قبله، وهذا يوجب عليه البسملة ويوجبها علينا نحن، "اتبعوه"، النبي صلى الله عليه وسلم واجب عليه أن يتبع من قبله من الأنبياء، ونحن واجب علينا أن نتبعه هو صلى الله عليه وسلم[2]، إذا يجب على النبي صلى الله عليه وسلم أن يبتدئ بالبسملة وتجب علينا نحن تبعا له، وسئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن البسملة فقال: (اسم من أسماء الله تعالى وليس بينه وبين الاسم الأعظم الكبير إلا ما بين بياض العين وسوادها)[3].

---

1 – جاء في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه "بسم الله الرحمن الرحيم". كتاب الصلاة/ باب من جهر بها (669).

2 – قال تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" وقال تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله" وقال تعالى: "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول".

3 – عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: (هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضها). من مسند ابن عباس في الجامع الكبير ج474/2.

«بسم الله الرحمن الرحيم» ابتدأ القرآن بحرف الباء لتواضعه وذلته ومسكنته لم يترفع كالألف. اسم الله مشتق من السمو أو من السمة لأن الاسم يسمو مع مسماه، أو الاسم علامة لمسماه، والأصح أنه مشتق من السمو[1]، فلهذا اختلف أهل السنة والمعتزلة على أسماء الله تبارك وتعالى هل هي أعلام أم علامات، أهل السنة يعتقدون أن أسماء الله أعلام لا علامات، والمعتزلة يعتقدون أن أسماء الله علامة له، يعتقدون أن الله أزلا ليس له اسم، إنما خلق الخلق فسموه بأسماء وهذا مردود عند أهل السنة[2] بل أسماء الله تبارك وتعالى قديمة، لم يزل الله تبارك وتعالى متصفا بجميع صفاته ومسمى بجميع أسمائه من الأزل إلى الأبد[3]. والأسماء فيها أسماء ذات وأسماء صفات وأسماء أفعال وكلها في حق الله تبارك وتعالى قديمة أزلية وفي حق غير الله تبارك وتعالى طارئة. الإنسان له اسم مرتجل مع وجوده وله أسماء طرأت له مثل رب الدار، رب القميص، رب الكتاب، العالم، الشاعر، كل هذه أسماء طرأت له، أما الله تبارك وتعالى فليس هكذا بل هو مسمى بجميع أسمائه أزلا ومتصف بجميع صفاته أزلا، وهذا أقوى ما يرجوه العارف في جانب الحق تبارك وتعالى حيث سمى نفسه الرحمن، الرحيم، الكريم، الغفور، العفو، المعطي، ولا وجود غيره يحتاج

---

1 - انظر القرطبي ج1/ 101.

2- القرطبي نفس الصفحة.

3 - قال القرطبي: ذهب أهل الحق - فيما نقل القاضي أبو بكر بن الطيب - إلى أن الاسم هو المسمى وهو قول أبي عبيدة وسيبويه فإذا قال قائل: الله عالم فقوله دال على الذات الموصوفة بكونه عالما، فالاسم كونه عالما وهو المسمى بعينه، وكذا إذا قال الله خالق، فالخالق هو الرب وهو بعينه الاسم. فالاسم عندهم هو المسمى بعينه من غير تفصيل. الجزء 1/ 101.

لهذا، لما سمى نفسه بهذه الأسماء وطرأ الوجود واحتاجوا إلى رحمته وعفوه وكرمه، هذا يقوي رجاءهم.

«بسم الله الرحمن الرحيم» أقرأُ باسم الله تبارك وتعالى أو نقرأُ، الإنسان يبتدئ في كل شيء باسم الله، والفعل معروف محذوف، إذا كان على مذهب البصريين يقدّر فعلا، وإذا كان على مذهب الكوفيين يقدر اسما، على كل حال المتعلق محذوف، وكل عامل يقدر ما يناسب عمله، نحن الآن نقرأ، نقرأ باسم الله متعلق البسملة الآن نقرأ، نحن الجماعة نقرأ باسم الله، إذا كنت وحدك: أقرأُ باسم الله، إذا كنت تأكل آكل باسم الله، إن كنت تلبس ألبس باسم الله، أشرب باسم الله، أركب باسم الله. المقدر يناسب العمل الذي يعمله القائل، نقرأ باسم الله. ﴿اللَّهِ﴾ علم على واجب الوجود المستغني عن كل ما سواه، المفتقر إليه كل ما سواه. اختلفوا في «الله» قالوا إنه علم مرتجل هكذا؛ ريئ سيبويه في الجنة بعد موته فسئل بم دخل الجنة؟ قال: بقولي إن الله أعرف المعارف. وقيل من أله إذا عبد، الإله المعبود، وقيل من أله إذا تحير، لأن العقول تتحير في عظمته تبارك وتعالى[1]، «الله» مرتجل ليس مشتقا هو المشهور وهو المعتمد[2] ما تسمى بهذا الاسم أحد غير الله تبارك وتعالى. كان العرب يفسرون الإله بخالق السماوات والأرض "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله". كانوا يعرفون هذا إنما كفرهم جاءهم من قولهم

---

1 - أورد الإمام ابن جزي في كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ما نصه: الله اسم مرتجل جامد والألف واللام فيه لازمة لا للتعريف وقيل إنه مشتق من التأله وهو التعبد، وقيل من الولهان وهي الحيرة لتحير العقول في شأنه... ج31/1

2 - قال ابن كثير: اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء. تفسير ابن كثير ج21/1.

"ما هذا إلا بشرا"، أما أن الله هو خالق السماوات والأرض وهو يجير ولا يجار عليه، ويطعِم ولا يُطعَم، فكل الكفار أقروا بهذا واعتقدوه ولكن كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم، ﴿الرَّحْمَنِ﴾ صيغة مبالغة من الرحمة، والرحمة رقة القلب عندما يشاهد الإنسان المسكين في حالة ضرورة يتألم قلبه من ذلك فيحسن إليه، وهذا مستحيل في حق الله تبارك وتعالى، وكل صفة قلنا إنها مستحيلة في حق الله تبارك وتعالى لها بداية ونهاية، فالبداية مستحيلة في حق الله والنهاية جائزة في حق الله تبارك وتعالى، رقة القلب أو تألم القلب هذا لا يجوز في حق الله تبارك وتعالى، وأما الإحسان الذي هو النهاية فيجوز في حق الله تبارك وتعالى، «الرحمن» المنعم بجلائل النعم، و﴿الرَّحِيمِ﴾ المنعم بدقائق النعم. «الرحمن» صيغة مبالغة، رحمن الدنيا ورحيم الآخرة. الرحمن صيغة مبالغة ولم تغن عن الرحيم، لأن هذه أيضا صيغة مبالغة. إن الله يرحم جميع العباد في الدنيا مؤمنهم وكافرهم. و«الرحيم» صيغة مبالغة صيغة خاصة بالصفة، الإنسان ربما يرحم وليس طبعه الرحمة، ولكن الله رحيم هو الرحمن أطلق الرحمة إلى جميع الخلق، وهو في نفسه صفته الرحمة "كتب على نفسه الرحمة"، «الرحيم» صفة ذاتية متصف بالرحمة أزلا وأعطى الرحمة أيضا. هذا هو الذي يقوي رجاءنا، أنعم فقط وليس خطأً، إنما هو هذه صفته "كتب على نفسه الرحمة" قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق مائة رحمة، ادخر عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل جزءا واحدا به جميع ما في الدنيا من الرحمة ومن الخيرات ومن النعم، وبه يتراحم الخلق حتى الدابة ترفع حافرها عن ولدها بهذا الجزء

الواحد، وإذا جاء يوم القيامة ضم هذا الجزء إلى التسعة والتسعين فصارت مائة كاملة وخص بها أهل الإيمان فقط، فلا يرحم إلا أهل الإيمان)[1].

«بسم الله الرحمن الرحيم» تسعة عشر حرفا كما أن الزبانية تسعة عشر ملَكا "عليها تسعة عشر" من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم مرة قام كل حرف بينه وبين واحد من الزبانية لا يدخله النار أبدا[2]، فهي أمان من دخول النار. «بسم الله الرحمن الرحيم» تكلم فيها أهل كل فن، أما أهل الأسرار فيكفيهم الحديث الذي تقدم (اسم من أسماء الله ليس بينه وبين الأعظمية إلا ما بين سواد العين وبياضها)[3]، وتكلم فيها أهل النحو بالاعراب كما تقدم أنه متعلق بمقدر قدّره البصريون بفعل وقدره الكوفيون باسم، وهي جملة صغرى. «الرحمن الرحيم» كتب قيصر ملك الروم إلى عمر بن الخطاب أن عنده صداعا يضره وعجز الأطباء عن دوائه فهل من دواء عند أمير المؤمنين؟ فكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» في ورقة وأرسلها إليه أنه يجعلها في قلنسوته فجعلها في قلنسوته كلما لبس القلنسوة سكن الصداع

---

1 - أخرج البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب جعل الله الرحمة مائة جزء (6000)، وفي صحيح مسلم: كتاب التوبة/ باب في سعة رحمة الله (4942).

2 - روى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ "بسم الله الرحمن الرحيم" ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد. القرطبي ج1/ 92.

3 - تقدم في هذا الدرس حديث عثمان بن عفان الذي رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما.

وعندما تسقط عنه القلنسوة يرجع إليه الصداع ففتشوا فيها فوجدوا «بسم الله الرحمن الرحيم» [1].

1 - كتب قيصر ملك الروم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن بي صداعا لا يسكن فابعث لي دواء إن كان عندك فإن الأطباء عجزوا عن المعالجة، فبعث عمر رضي الله عنه قلنسوة فكان إذا وضعها علي رأسه سكن صداعه وإذا رفعها عن رأسه عاد إليه صداعه فتعجب منه ففتش في القلنسوة فإذا فيها كاغد مكتوب عليه بسم الله الرحمن الرحيم. عن خزينة الأسرار/ ص 93.

سورة فاتحة الكتاب

سبع آيات مكية

هذه السورة مكية لأن الصلاة نزلت في مكة والصلاة ما جازت قط بدون فاتحة الكتاب[1] فهي سورة مكية بإجماع، وبعض المفسرين يقولون نزلت مرتين. مكية سبع آيات.

فاتحة الكتاب تسمى أيضا بأسماء عديدة[2]، وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، منها فاتحة الكتاب أي ما افتتح به الكتاب مصدر كالعافية وتسمى أم القرآن، وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم[3] "ولقد اتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم

---

1 - في صحيح البخاري من حديث عبادة بن الصامت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) كتاب الأذان/ باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها (756)

2 - عد السيوطي في كتابه الإتقان ج1/ 151 ـ 155 خمسة وعشرين اسما للفاتحة: فاتحة الكتاب، فاتحة القرآن، أم الكتاب، أم القرآن، القرآن العظيم، السبع المثاني، الواقية، الكنز، الكافية، الأساس، النور، سورة الحمد، سورة الشكر، سورة الحمد الأولى، وسورة الحمد القصرى، الرقية، والشفاء، والشافية، سورة الصلاة، الصلاة، سورة الدعاء، سورة السؤال، سورة تعليم المسألة، سورة المناجاة، التفويض لاشتمالها عليه في قوله "إياك نعبد وإياك نستعين". وأوصلها محمد حقي النازلي في كتابه خزينة الأسرار إلى ثلاثين اسما انظرها مفصلة فيها، خزينة الأسرار/ 97.

3 - روى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني). سنن الترمذي: تفسير القرآن/ من سورة الحجر (3049) وأخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم). كتاب تفسير القرآن/ باب قوله ولقد آتيناك سبعا من المثاني (4704). وله من حديث أبي سعيد بن المعلى: (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته) كتاب التفسير/ باب وسميت أم الكتاب (4474).

لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا" وتسمى الكنز لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أنزلت علي كانت كنزا تحت العرش)[1] وتسمى سورة الصلاة لأن الصلاة لا تجوز بدونها، وتسمى الصلاة، فاتحة الكتاب تسمى الصلاة لحديث (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصف لعبدي ونصف لي ولعبدي ما سأل)[2] وتسمى الدعاء، وتسمى تعليم الدعاء وتسمى الكافية، وتسمى الواقية، وتسمى الرقية لحديث (وما يدريك أنها رقية)[3] وتسمى الراقية وتسمى الشفاء لأنها ورد أن فاتحة الكتاب شفاء من كل داء إلا السام[4]، والسام الموت، وتسمى الأساس[1] لأنها أساس

---

1 - ورد في الجامع الكبير (جامع الجوامع للسيوطي) ج1/ 853 (نزلت فاتحة الكتاب من كنز تحت العرش) رواه الديلمي عن علي رضي الله عنه. مسند علي من الجامع الكبير ج56/2.

2 - أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد "الحمد لله رب العالمين" قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال العبد "الرحمن الرحيم" قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال العبد "مالك يوم الدين" قال مجدني عبدي، - وقال مرة فوض إلي عبدي - فإذا قال "إياك نعبد وإياك نستعين" قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين" قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل. صحيح مسلم: كتاب الصلاة /باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (598).

3 - وردت تسميتها الرقية في حديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى الصحابي رجلا سليما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وما يدريك أنها رقية). صحيح البخاري: كتاب الإجارة/ باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب (5749) وفي صحيح مسلم: كتاب السلام /باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار (4080).

4 - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فاتحة الكتاب شفاء من السم) و (فاتحة الكتاب شفاء من كل داء) الجامع الصغير 2/ رقم 5826 و 5827.

هذا الدين الذي هو الإسلام، وتسمى النور، وتسمى سورة الحمد، وتسمى سورة الشكر. هذه أسماء لهذه السورة التي هي أجل سورة في القرآن. سأل الرسول صلى الله عليه وسلم أي القرآن أفضل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فاتحة الكتاب[2]. روي أن الحسن بن علي كرم الله وجهه مرض مرضا شديدا حزن له النبي صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال اقرأ السورة التي ليس فيها حرف فاء على ماء يغسل به الحسن فيبرأ من مرضه، ففتش النبي صلى الله عليه وسلم فإذا فاتحة الكتاب ليس فيها حرف الفاء لأن الفاء توذن بالفراق[3]، فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم على الماء وغسل به الحسن فكأنما نشط من عقال، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (إنها شفاء من كل داء إلا السام).

---

1 - قاله ابن عباس. شكا رجل إلى الثعلبي وجع الخاصرة فقال عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس وأساس الدنيا مكة لأنها منها دحيت وأساس السماوات 'غريبا'.وهي السماء السابعة وأساس الأرض 'عجيبا' وهي الأرض السابعة السفلى وأساس الجنان جنة عدن وهي سرة الجنان عليها أسست الجنة، وأساس النار جهنم وهي الدركة السابعة السفلى عليها أسست الدركات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة بسم الله الرحمن الرحيم، فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى. القرطبي ج1/ 113.

2 - أخرج أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: (.. ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختمها) مسند الشاميين/ باب حديث عبد الله بن جابر (16936)

3 - روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: مرض الحسن بن علي رضي الله عنهما فاغتم النبي صلى الله عليه وسلم فأوحى الله تعالى إليه أن اقرأ سورة لا فاء فيها فإن الفاء من الآفات على إناء فيه ماء أربعين مرة وتغسل به يديه ورجليه ووجهه ورأسه وما بطن وما ظهر من بدنه فإن الله تعالى يذهب عنه ما يؤلمه إن شاء الله. خزينة الأسرار /98.

وسافر جماعة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ونزلوا في حي من أحياء العرب وطلبوا عشاء فلم يؤتوا بعشاء، بخلوا عليهم بالطعام، وفي الليل لدغت حية رئيس الحي فأتوا إلى الضيف قالوا لهم: هل عندكم من راق؟ قال واحد منهم: نعم أنا أرقي ولكن طلبناكم العشاء و لم تعطونا إذا لا نرقي لكم إلا أن تدفعوا لنا ثمنا، قالوا: كم؟ قال: قطيع من الغنم، فدفعوا له قطيعا من الغنم، فقرأ فاتحة الكتاب على الرئيس فنزل السم فبرئ في الحين، فقال الرجل: أسوق القطيع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أسأله هل حلال أم حرام؟ فأتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر، فقال صلى الله عليه وسلم: (وما يدريك أنها رقية؟ قسم القطيع بين أصحابك، واجعل لي نصيبا منه) فعلم أنه حلال، فلهذا تسمى هذه السورة بالرقية[1].

وقد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل مائة وأربعة كتب: خمسين كتابا على شئث بن آدم عليه الصلاة والسلام، وثلاثين كتابا على إدريس أخنوخ، وعشرة على إبراهيم، وعشرة على موسى قبل التوراة، والتوراة والزبور والإنجيل والفرقان[2].

وهذه الكتب كلها اجتمعت في الأربعة، وهذه الأربعة اجتمعت في الفرقان، والفرقان كله اجتمع في فاتحة الكتاب، فمن قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ القرآن

---

1 – سبق تخريج الحديث في الصفحة 4.

2 – جاء في مسند أبي ذر في الجامع الكبير قال: قلت يارسول الله كم كتابا أنزل الله؟ قال: (مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شئث خمسين صحيفة وعلى أخنوخ (إدريس) ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان). مسند أبي ذر الجامع الكبير ج2/646-647.

وكأنما قرأ الكتب الأربعة، وكأنما قرأ الكتب السماوية جميعها[1]. وهي تشتمل على جميع القرآن. القرآن تسعة فنون: فن الحمد، تجد في القرآن آيات تحمد الله كثيرا وتثني عليه، وفن الوعد والوعيد، وتجد في القرآن الشريعة والحقيقة، وتجد في القرآن الدعاء، وتجد فيه القصة قصص من قبلنا، وتجد فيه المواعظ والتذكير والخبر والتوحيد "الحمد لله" اشتمل على جميع ما لله من ثناء في القرآن ومن حمد وشكر، كل ما في القرآن من الثناء على الله ومن المدائح كله استغرقه الحمد لله، "رب العالمين" توحيد، "الرحمن الرحيم" وعد، "ملك يوم الدين" وعيد، "إياك نعبد" شريعة، "وإياك نستعين" حقيقة، "إهدنا الصراط المستقيم" دعاء، "صراط الذين أنعمت عليهم" قصة، "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" موعظة وتذكير[2].

ذكر الله في الفاتحة خمسة أسماء من أسمائه تبارك وتعالى: الحمد لله، الله اسم، رب العالمين رب اسم، الرحمن اسم، الرحيم اسم، ملك يوم الدين اسم، هذا أصل

---

1 - قال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن ثم أودع علوم القرآن الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة. أخرجه البيهقي. الإتقان ج4/ 120.

- وقال بعض العارفين إن جميع ما في الكتب المتقدمة في القرآن الكريم وجميعه في الفاتحة وجميعها في البسملة وجميعها تحت نقطة الباء المنطوية وهي على كل الحقائق والدقائق محتوية. خزينة الأسرار للنازلي/ ص88. وفي تفسير روح البيان ج1/ 4.

2 - قال الإمام ابن جزي في تفسيره: كتاب التسهيل لعلوم التنزيل ج34/1 في الكلام عن الفاتحة: الفائدة العشرون: هذه السورة جمعت معاني القرآن العظيم كله كأنها نسخة مختصرة منه فتأملها بعد تحصيل الباب السادس من المقدمة الأولى تعلم ذلك في الألوهية حاصلا في قوله "الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم"، والدار الآخرة في قوله: "ملك يوم الدين"، والعبادات كلها من الاعتقادات والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي في قوله: "إياك نعبد"، والشريعة كلها في قوله: "الصراط المستقيم" والأنبياء وغيرهم في قوله "الذين أنعمت عليهم" وذكر طوائف الكفار في قوله "غير المغضوب عليهم ولا الضالين".

القواعد الخمس، (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله)[1]، معنى لا إله إلا الله: الله، (وإقام الصلاة) الرب بمعنى المصلح والمربي، وصلاة العبد تربي إسلامه وتصلحه، والرحمن صيام صيغة مبالغة في الرحمة، العبد بلغ من رحمته بالمسكين حتى أذاق نفسه الجوع الذي يعانيه المسكين ليتصدق عليه، وهذا ركن الصيام، والرحيم ركن الزكاة رحم المسكين فقطع له جزء من ماله، وملك يوم الدين هذا الحج، كما أن الناس يحشرون في المحشر من جميع الآفاق، يأتون إلى بقعة واحدة كذلك الحج.

يقدر في أول الفاتحة قولوا الحمد لله رب العالمين، لأن آخر الفاتحة نزل من كلام العبد، فإذا لم يقدر قولوا، تكون الفاتحة كأن أولها من كلام الرب وآخرها من كلام العبد، ولما أحببنا أن نقول كلها من كلام العبد قدرنا قولوا: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين... اهدنا الصراط المستقيم» هذا من كلام العبد طبعا.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ الثناء بالجميل ﴿لِلَّهِ﴾ رب العالمين، كل حمد وشكر لله تبارك وتعالى، إما صفته وإما فعله. أقسام الحمد أربعة: حمد الرب للرب وحمد الرب لعبده وحمد العبد للرب وحمد العبد لعبد مثله، كل هذا لله إما صفته وإما فعله.

---

1 - روى البخاري ومسلم عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان). صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام (21). صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب بني الإسلام على خمس (8).

«الحمد لله» درجات الجنة ثمان، والحمد لله ثمانية حروف، من قال الحمد لله استحق مراتب الجنان الثمان[1] ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مالك العالمين جمع عالم والعالم كل ما سوى الله تبارك وتعالى، جُمِع مذكرا ليستغرق الموجودات كلها ﴿الرَّحْمَنِ﴾ المنعم بجلائل النعم وظواهرها ﴿الرَّحِيمِ﴾ المنعم بدقائق النعم ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الملك يوم الجزاء، الملك كل يوم ولكن كل يوم يوجد منازع لله في ملكه في جزء من أجزاء العالم، أما في القيامة فلا منازع له في ملكه، إذا تكلم "لمن الملك اليوم" لا يجد جوابا من أي إنسان فيجيب نفسه "لله الواحد القهار". لما أثنى العبد على ربه بقوله «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين» استحق مخاطبته، فخاطب الحضرة بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لا نعبد إلا إياك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لا نستعين إلا بك. لما أثنى على ربه قال له اقترح علي كل ما شئت من المطالب، قال العبد: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ طلب الهداية من الله تبارك وتعالى إلى الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو صراط الأنبياء والمرسلين قال ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الأنبياء فيهم من أنعم الله عليهم "أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما" فيهم من أنعم الله عليهم فجمعوا بين الملك والنبوة، فيهم من ابتلاه الله ببلايا عظيمة، لو قال صراط الذين ابتلوا أو صراط الذين قتلوا أو صراط الذين ذبحوا لخاف العبد من هذا، ولكن تأليفا للعبد وتنشيطا له وتطييبا لخاطره قال صراط الذين أنعمت

---

1 – (الحمد) خمسة أحرف والصلاة خمسة فإذا قال العبد الحمد كتب له ثواب خمس صلوات (لله) ثلاثة أحرف فإذا ضمت إلى الأولى صارت ثمانية وأبواب الجنة ثمانية فإذا قال العبد الحمد لله فتح الله تعالى له أبواب الجنة يدخل من أي باب شاء. خزينة الأسرار / 115.

عليهم، ليس كل الأنبياء منعما عليهم، بعضهم مبتلى بأشد البلايا "من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا" ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ورد عن الرسول أنهم اليهود ووصفهم القرآن بأنه غضب عليهم. اليهود هم الذين علموا و لم يعملوا بعلمهم فغضب الله عليهم ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ ورد عن الرسول أنهم النصارى[1]. النصارى ضلوا عن الطريق ما عرفوه، ما عرفوا الحق هم جهلة فقط حتى جعلوا العبد ربا من شدة جهلهم وحماقتهم، أما اليهود فقد علموا ولكن لم يعملوا بعلمهم والنصارى جهال فقط «غير المغضوب عليهم ولا الضالين»، "آمين" ليس من القرآن إنما هو طابع الله تبارك وتعالى كطابع الملك الذي يطبع به مكاتبه[2].

---

1 – "غير المغضوب عليهم" ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم اليهود. "ولا الضالين" ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم النصارى. أخرجه الإمام أحمد في مسند الكوفيين/ باب بقية حديث عدي بن حاتم (18572).

2 – (آمين خاتم رب العالمين على لسان عبيده المومنين) الحديث رقم 20 من الجامع الصغير 8/1 رواه الطبراني الكبير عن أبي هريرة.

سورة البقرة

مائتان وست وثمانون آية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّم﴾ الله أعلم بمراده ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ هذا الكتاب الذي يقرأه محمد صلى الله عليه وسلم لا ريب فيه أنه منزل من عند الله تبارك وتعالى، ليس في هذا ريب، وإن شك أبو جهل وأشباهه، فهم حمقاء مجانين لا عقول عندهم، كأن شكهم ليس بشك لا شك فيه، الشمس شمس وإن لم يرها الأعمى، والعسل عسل وإن لم يجد طعمه المريض، فالقرآن لا شك فيه وإن شك فيه المجانين والحمقاء، لأنه أتى ببراهين وحجج دامغة أنه ليس من عند غير الله تبارك وتعالى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هاد للسائرين للتقوى. هذا الكتاب يهدي الله به كل من قدر في الأزل أنه سائر إلى التقوى ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ هم الذين آمنوا بما غاب عنهم. الغيب غيبان: غيب غاب عنك هو الجنة والنار والملائكة والحور العين والبعث وما وراء البعث، كل هذا غاب عنك وآمنت به، وغيب غبتَ عنه يا عبد وهو حضرة الله تبارك وتعالى، هي ما غابت، حاضرة أقرب إليك من كل شيء، إن لم تجدها فأنت الغائب لا هي «يؤمنون بالغيب» ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ يؤدون الصلاة كاملة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وهم ينفقون مما رزقناهم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الذي هو القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الإيمان بما أنزل من قبل الرسول لا ينفع إلا إذا آمن بما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلهذا من آمن بجميع الأنبياء وكفر بنبي زمنه فهو كافر، وكذلك الأولياء من آمن بجميع الأولياء وكفر بكامل عصره فهو مقطوع عن الله تبارك وتعالى. الإيمان بما

أنزل قبلك لا ينفع إلا بعد الإيمان بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴿وَبِالأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هم يوقنون بالآخرة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين وصفوا بتلك الأوصاف التي ذكرناها ﴿عَلَى هُدىً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الهداية التي طلبنا في الفاتحة وجدها هؤلاء الذين وصفوا بهذه الأوصاف ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المقطوع بفوزهم، بنجاهم من النار ودخولهم الجنة المؤبدة عليهم.

فتح السورة بأربع آيات في المؤمنين، وآيتين في الكافرين وثلاث عشرة آية في المنافقين، ثم دعا عباده إلى وحدانيته والإيمان برسوله والجنة والنار، ثم خاطب بني إسرائيل في نصف السورة، ثم أتى بفقه الدين "كُتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر"

الأوصاف الأربعة في أول السورة للخلفاء الأربعة، أول ما ذكر «هدى للمتقين»، والتقوى صفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه "وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى" هذه نزلت في أبي بكر اتفاقا.

والإيمان بالغيب صفة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. يوم أسلم عمر نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم وعمر يسلم "يا أيها النبيء حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين" الإيمان صفة عمر.

«ويقيمون الصلاة» هذه صفة عثمان رضي الله عنه "أمن هو قانت آناء اليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة" هذه نزلت في عثمان، كان يقوم الليل بالقرآن «ومما رزقناهم ينفقون» هذه صفة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، استأجر نفسه في بستان يهودي وظل عاملا حتى أوجر بأربعة دراهم، تصدق بدرهم في الملإ وتصدق

بدرهم سرا وتصدق بدرهم ليلا وتصدق بدرهم نهارا[1]. الإنفاق صفة علي كرم الله تعالى وجهه، فكل من اتصف بهذه الصفات فهو تحت رايات هؤلاء يوم القيامة. والإنفاق يزيد في مال العبد ولا ينقص منه[2]، (ما طلعت شمس إلا وبجنبتيها ملكان أحدهما يقول: اللهم أعط منفقا خلفا، والآخر يقول: اللهم أعط ممسكا تلفا)[3].

يحكى أن عبدا من عباد الله طلب من نبي من الأنبياء أن يدعو الله له أن يجد رزقا واسعا، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الله تبارك وتعالى فاستجاب الله دعاءه، فقال له أخبر عبدي أني قضيت عمره نصفين نصفا يكون فقيرا ونصفا يكون غنيا يختار أيهما أبدأ له، فدعا ذلك النبي صلى الله عليه وسلم الرجل فأخبره فشاور زوجته فقالت قل له يأتيك الرزق الواسع الآن، قال لها الرجل: الفقر بعد الغنى صعب جدا، قالت له: لا تخالفني اطلب الغنى الآن فقط، فأتى لذلك النبي صلى الله عليه

---

1 - قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج أخبرنا يحيى بن يمان عن عبد الوهاب بن مجاهد عن ابن جبير عن أبيه قال: كان لعلي أربعة دراهم فأنفق درهما ليلا ودرهما نهارا ودرهما سرا ودرهما علانية فنزلت "الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية" وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف، لكن رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس أنها نزلت في علي بن أبي طالب. ابن كثير ج1/ 327.

2 - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل). صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب استحباب العفو والتواضع (4689).

3 - الحديث متفق عليه: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا). صحيح البخاري: كتاب الزكاة /باب قول الله تعالى "فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى" (1442)، وفي صحيح مسلم: كتاب الزكاة /باب في المنفق والممسك (1678).

وسلم وقال له: يأتيني الغنى الآن، فأتاه الغنى فقالت له المرأة إذا خطت ثوبا لنفسك فتصدق بثوب على مسكين، وإذا اشتريت طعامك فاشتر مثله صدقة على مسكين، وإذا بنيت دارا فاجعل مثلها صدقة للفقراء، وإذا اشتريت دابة كذلك .. كل ما فعلت افعل مثله للمساكين، فصار يعمل بهذا ويزداد ما عنده حتى مضى نصف عمره أوحى الله إلى النبي: إني قضيت عمر فلان نصفه مسكينا ونصفه غنيا ولكن وجدته شاكرا فقضيت عمره كله غنيا لا يفتقر أبدا[1].

فلهذا الإنفاق لا ينقص من الرزق، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: على كل سلامى من ابن آدم كل يوم صدقة[2]، والإنسان فيه من المفاصل عدد أيام السنة ثلاثمائة وخمسة وستون جزء، كل جزء من هذه الأجزاء يجب عليك أن تخرج له صدقة كل يوم، قالوا: يا رسول الله من يطيق هذا؟ قال: أمر بمعروف صدقة، وصلاة ركعتين صدقة، وتسعى مع أخيك في حاجته قضيت أو لم تقض صدقة، وإدخال السرور كل هذه صدقات يتمم الله بها تلك الصدقات. اللهم صل على سيدنا محمد وسلم.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم، نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا وإياكم فهم هذا

---

1 - أورد القصة صاحب تفسير روح البيان ج355/1.

2 - (على كل سلامى من ابن آدم صدقة...) الحديث متفق عليه. الأربعون النووية، الحديث رقم 26. أخرجه البخاري من ثلاث طرق عن أبي هريرة: كتاب العلم (2707) كتاب الجهاد والسير (2891، 2989). وفي صحيح مسلم من ثلاث طرق إحداها عن أبي هريرة وأخرى عن عائشة وثالثة عن أبي ذر رضي الله عنهم /كتاب الزكاة وكتاب صلاة المسافرين/ باب استحباب صلاة الضحى (1181، 1675، 1677).

الكتاب والعمل به وأن يتمم لنا هذا العمل كما ابتدأه لنا بجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يكتبنا في ديوان السعادة في الدنيا والآخرة. اللهم صل على سيدنا محمد وسلم.

الدرس الثاني

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيـــم

يا همة الشيخ احضري لنـــا بهذا المحضـــر
ولتعطفـــي بنظـــرة تأتي لنـــا بالظفـــر

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ لما ذكر أوصاف الخصوص من عباده ووصفهم بتلك الأوصاف وذكر مصيرهم أردفه بصفة أعدائه، ذكر أربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وثلاث عشرة آية في صفة المنافقين.

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ» الكفر لغة: التغطية والستر، وفي اصطلاح شريعة الإسلام إنكار ما ثبت مجيء النبي صلى الله عليه وسلم به ضرورة. الكافر في القرآن على أربعة أقسام: كافر نقيض المؤمن "إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله" وكافر بمعنى الجاحد "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" يعني ومن جحد وجوب الحج، وكافر نقيض الشاكر "اشكروا لي ولا تكفرون" وكافر بمعنى المتبرئ "ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا" أي يتبرأ بعضكم من بعض.

والكفر أنواع: كفر المعترف، من عرف وجود الحق تبارك وتعالى وكفر به لسانا ككفر إبليس وكفر اليهود "فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به"، وكفر بمعنى نفي

الباري مطلقا، من لا يعرف وجوده تبارك وتعالى كجل الكفار، وكفر صاحبه يعرف الحق ولم يعترف به بلسانه ولم يتدين بالحق كما وقع لأبي طالب، يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد   من خير أديان البرية دينا[1]

ذكر هذا بلسانه وآمن به بقلبه ولكن لم يتدين بالإسلام فصار كافرا. وكفر النفاق، أقر باللسان وأنكر بالقلب. والكفر كما قدمنا إنكار ما ثبت إتيان محمد صلى الله عليه وسلم به ضرورة: توحيد الله تبارك وتعالى، إقام الصلوات، صيام رمضان، وجوب الزكاة في الأموال، الحج، البعث، فكل ما ثبت إتيان النبي به ضرورة فإنكاره كفر، أما ما لا يعرف إتيان النبي به إلا بالتفكر والتدقيق فذلك من أنكره لا يكفر. والخصال التي ذكرها العلماء وجعلوها كفرا كشد الزنار والغيار فإنه علامة كفر ليس كفرا بنفسه، فكل من ريئ يشد الزنار نجزم أنه ليس بمؤمن لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه، وليست فيه شهوة كالزنا وشرب الخمر، هذه نهى الشرع عنها ولكنْ فيها حظ للنفس، ومن أتى بها فليس بكافر لأن النفس غلبته على شهوة، وأما شد الزنار فليست فيه أي شهوة، إذا من شده فهو مستخف بالدين الإسلامي، وهو كافر. وكل أنواع الكفر من لقي الله تبارك وتعالى بواحد منها فهو خالد في النار "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء".

---

1 - ذكره في محاسن التأويل ج2278/6 ضمن أبيات لأبي طالب مذكورة في الدرس 43، وصدر البيت عنده:

وعرضت دينا لا محالة أنه... البيت

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ» كأبي جهل وأبي لهب ونحوهما من الكفار «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ» لعلم الله تبارك وتعالى منهم ذلك فلا تطمع في إيمانهم. أخبر الحق تبارك وتعالى نبيه أن هؤلاء الكفار لا يؤمنون أبدا، سواء عليهم إنذار النبي صلى الله عليه وسلم وعدم إنذاره فلا يؤمنون، لم يقل سواء عليك آنذرهم أم لم تنذرهم، فإن الإنذار وعدم الإنذار ليسا سواء في حق النبي صلى الله عليه وسلم، فهو يجب عليه التبليغ فإن بلغ سواء من آمن ومن لم يؤمن فهو مثاب، ولكن الكفار الذين لا يؤمنون سواء عليهم إنذار النبي صلى الله عليه وسلم وعدم إنذاره فهم لا يؤمنون أبدا. علم الله نبيه مقدما أن هؤلاء لا يؤمنون ليقطع طمعه في إيمانهم فلا يقع له مثل ما وقع لنوح عليه السلام بعدما مكث ألفا إلا خمسين عاما أوحى إليه "إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن" بعد مقاسات الشدائد أخبره الله تبارك وتعالى بهذا، فالنبي صلى الله عليه وسلم مقدما أخبره الحق أن هؤلاء لا يؤمنون لئلا يطمع في إيمانهم. ونوح لما علمه الله تبارك وتعالى أن قومه لا يؤمنون دعا عليهم بالهلاك، والنبي صلى الله عليه وسلم لما علم أن قومه لا يؤمنون ما دعا عليهم لأنه نبي الرحمة "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". الله تبارك وتعالى أثبت في هذه الآية أن إنذارهم وعدم إنذارهم سواء عليهم، والكفار أثبتوا على أنفسهم في مخاطبتهم لنبيهم هود "سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين" فلهذا جوزوا في الآخرة لما أدخلوا النار "اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم" كما قال الله إنه سواء عليهم إنذارهم وعدم إنذارهم علمهم في النار أن صبرهم وعدم صبرهم سَواء. وقالوا بأنفسهم "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص" لأنهم قالوا "سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين" ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ طبع

عليها واستوثق فلا يدخلها خير ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ مواضعه فلا ينتفعون بما يسمعونه من الحق ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ غطاء فلا يبصرون الحق ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي قوي دائم وهو النار، العظيم ضد الحقير كما أن الكبير ضد الصغير، والعظيم أعظم من الكبير، هذا العذاب عذاب شديد، أشد من كل عذاب، هذا في حق الكفار، ونزل في المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأصحابه كانوا إذا أتوا إلى المسلمين قالوا لهم: نحن معكم، وإذا أتوا للكفار يقولون نحن معكم، أخبر الحق تبارك وتعالى بحالهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي يوم القيامة سمي باليوم الآخر لأنه آخر الأيام ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ روعي فيه معنى "من" ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وبال خداعهم راجع إليهم فيفتضحون في الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوا ويعاقبون في الآخرة ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ما يعلمون أن خداعهم لأنفسهم والمخادعة هنا من واحِد، فاعَلَ ليس على بابه كعاقبت اللص[1] وذِكْرُ الله في «يخادعون الله» تنويه بالمسلمين لأنهم حقيقة إنما يخادعون المسلمين، جعل الله مخادعة المسلمين بمنزلة مخادعة الله تبارك وتعالى[2]. ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك ونفاق فهو يمرض قلوبهم ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ

---

1 - تأتي صيغة فاعَلَ للدلالة على المشاركة في الغالب نحو شارك زيد عمرا، وتأتي أحيانا للواحد دون المشاركة فتكون بمعنى فعّل للتكثير نحو ضاعف بمعنى ضعّف، أو بمعنى فعَلَ المجرد نحو سافر، عاقبت اللص، داويت المريض، قاتله الله وبارك فيه.

2 - ذكر القرطبي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تخادع الله فإن من يخادع الله يخدعه الله ونفسَه يخدع لو يشعر) قالوا: يا رسول الله وكيف يخادَع الله؟ قال: (تعمل بما أمرك الله وتطلب به غيره). قيل في

مَرَضًا﴾ بما أنزله من القرآن لكفرهم به. هذا المرض يحتمل أن يكون حسيا أو معنويا، معنويا: في قلوبهم شك ونفاق وهذا مرض معنوي، أو مرض حقيقي لأن زيادة الإيمان وقوة النبي صلى الله عليه وسلم وظهوره الدائم الذي يزداد شيئا بعد شيء ألم قلوبهم حتى صار كأنه مرض حسي «فزادهم الله مرضا» بإنزال القرآن وزيادة الإيمان وقوة شوكة المسلمين وظهور النبي صلى الله عليه وسلم، أو «فزادهم الله» دعاء عليهم «مرضا» الله يزيدهم مرضا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿بِمَا كَانُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ بقراءة ورش ويَكْذبون بقراءة عاصم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ هؤلاء ﴿لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ﴾ بالكفر والتعويق عن الإيمان ﴿قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وليس ما نحن فيه بفساد. يقولون إنهم مصلحون وإن الذي يفعلون إنما هو مداراة مع الكفار ويريدون مصلحة فهم مصلحون، وفي الحقيقة إنما هم مفسدون قال تعالى ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ «ألا» للتنبيه «إنهم هم المفسدون» بالتأكيد ﴿وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ سأل فيلسوف عالما[1] قال نرى في كلام العرب حشوا نجدهم يقولون: زيد قائم ويقولون إن زيدا قائم ويقولون إن زيدا لقائم. أجابه العالم العربي قال له: لا، زيد قائم إخبار عن قيام زيد. إن زيدا قائم جواب سؤال مقدر. وإن زيدا لقائم رد على منكر قيام زيد، إن للتأكيد. المنافقون قالوا: آمنا بصيغة الفعل، والله تبارك وتعالى أجابهم: وما هم بمؤمنين، لم يقل ولم يؤمنوا كما قالوا فعلا بصيغة الفعل آمنا، فالرد عليهم أشد من دعواهم لأنه أخرجهم من مجموع المؤمنين،

الكلام حذف تقديره: يخادعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وجعل خداعهم لرسوله خداعا له. القرطبي 196/1.

1 – ذكر الخطيب القزويني في الإيضاح في علوم البلاغة ص24/ أن الفيلسوف هو الكندي والعالم هو النحوي أبو العباس المبرد.

وما هم بمؤمنين، لو قال ما آمنوا فقط ما أخرجهم من جماعة المؤمنين، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ﴿قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ الجهال؟ لا نفعل كفعلهم ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُواْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ منهم ورجعوا ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ رؤسائهم ﴿قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ لّما لقوا المؤمنين قالوا آمنا بصيغة الفعل هذا أخف تعبيرا، ولّما رجعوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم بصيغة الاسم والتأكيد بإن، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ بهم بإظهار الإيمان، ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يجازيهم باستهزائهم ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ يمهلهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ بتجاوزهم الحد بالكفر ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون تحيرا ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ استبدلوها به ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ ما ربحوا في تجارتهم بل خسروا لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ في ما فعلوا، فضرب الله مثلا للمنافقين، وضرب المثل أشد توضيحا للعبارة لأنه يمثل الغائب بالحاضر والمعنوي بالحسي ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم في نفاقهم ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ أوقد ﴿نَاراً﴾ في ظلمة ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ أنارت ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ فأبصر واستدفأ وأمِن مما يخافه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أطفأه. لم يقل بنارهم لأن المقصود بإيقاد النار هو وجود النور، ذهب الله بنورهم أطفأه ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين، فكذلك هؤلاء أمِنوا بإظهار كلمة الإيمان فإذا ماتوا جاءهم الخوف والعذاب ﴿صُمٌّ﴾ هم صم عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول ﴿بُكْمٌ﴾ خرس عن الخير فلا يقولونه ﴿عُمْيٌ﴾ عن طريق الهدى فلا يرونه ﴿فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ عن الضلالة، ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أو مثلهم كصيّب أي سحابة أي كأصحاب مطر ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ من جهة السماء ﴿فِيهِ﴾ أي السحاب ﴿ظُلُمَاتٌ﴾ متكاثفة، ظلمات الليل

وظلمات السحاب وظلمات المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾ الرعد الملَك الموكل بالمطر أو صوته[1] ﴿وَبَرْقٌ﴾ أي لمعان ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أصحاب الصيب ﴿أَصَابِعَهُمْ﴾ أي أناملهم ﴿فِي ءَاذَانِهِم مِّنَ﴾ أجل ﴿الصَّوَاعِقِ﴾ من أجل شدة صوت الرعد لئلا يسمعوها ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ خوف الموت من سماعها، كذلك هؤلاء المنافقون إذا نزل القرآن وفيه ذكر الكفر المشبه بالظلمات والوعيد عليه المشبه بالرعد والحجج البينة المشبهة بالبرق يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا إلى الإيمان وترك دينهم وهو عندهم موت ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ علما وقدرة فلا يفوتونه ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ يأخذها بسرعة ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ أي في ضوئه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ وقفوا، تمثيل لإزعاج ما في القرآن من الحجج قلوبهم وتصديقهم لما سمعوا فيه مما يحبون ووقوفهم عما يكرهون، هذا مثال المنافقين. المنافق كافر ولكن لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم صاحب سيف من خالفه قتله ونهب ماله أتى وأقر بالشهادتين: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وليس بمصدق بقلبه ويصلي مع المسلمين ويتصدق، عصم نفسه بهذا وعصم أمواله ما دام حيا ولكن الموت آت فإذا مات دخل في عذاب أشد مما كان يخاف. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بمعنى أسماعهم ﴿وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ على كل شيء شاءه ﴿قَدِيرٌ﴾ ومنه إذهاب ما ذكر.

قرر وصف المؤمنين ووصف الكافرين ووصف المنافقين. القرآن بدأ بفاتحة الكتاب سورة محكمة كلا، وثنى بسورة البقرة أولها المتشابه "الــم"، وهذه الحروف هي

1 – جاء في مسند علي كرم الله وجهه من الجامع الكبير عن علي قال: الرعد ملك والبرق ضربه السحاب بمخراق من حديد. الجامع الكبير 112/2.

أثقل شيء على العرب لأنهم ما فهموا شيئا مما تتضمن، والقرآن حيث أنه معجز بفصاحته وبلاغته وإخباره الغيب لكنهم يفهمونه، هم عرب يفهمون كل ما جاء في القرآن، حتى جاءت هذه الحروف أوائل السور ما شموا لها رائحة هي أشد عليهم، هم مع كفرهم وعنادهم عرب فصحاء يعلمون تفسير كلام العرب، وكل كلمة من العربية تحمل معاني توافق طبع الكلمة، مثاله إن قلنا: كلمة كلم مركب من كاف ولام وميم، هذا معناه في اللغة العربية الشدة، فتأتي في كل معانيها يظهر منها الشدة، منها الكلمة لأنها تقرع سمع الإنسان وقلبه حتى يفهم ما تضمنته الكلمة، ومنها الكلْم الذي هو الجرح الشديد، وكل كلمة من كلام العرب لها اشتقاق ولها تصرفات، "كلم" هذا يأتي بمعنى الكلمة والكلمة أتت في القرآن بمعنى عيسى سمي كلمة لأنه نشأ من قول كُنْ[1]، أو لأن سرعة حمله ووضعه بمنزلة كلمة. وورد من كلام العرب يقولون كلمة لقصيدة وكلمة لخطبة قال الرسول: أصدق كلمة قالها العرب كلمة لبيد[2]، وإذا تصرفنا في هذه الكلمة بمعنى أن كل حرف من حروفها يجوز أن يقدم، إذا قلنا كلم ففيها من المعاني ما أشرنا إليه، وإذا قلنا لكَمَ: اللكم أشد من الكلمة أيضا فيها معنى الشدة أيضا، وإذا قلنا ملَك الملاك التزويج بمعنى تسليم البنت للزوج، فكأنه صار يملكها، وإن قلنا ملَك من المِلك أو من

---

1 - قال السيوطي في تفسير الجلالين عند قوله تعالى "فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله" أي بعيسى إنه روح الله وسمي كلمة لأنه خلق بكلمة كنْ. ج1/ 319 من حاشية الصاوي على تفسير الجلالين.

2 - (أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب /باب ما يجوز من الشعر والرجز وما يكره منه (6147) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: كتاب الشعر/ (4187).

المُلك، الملِك كل تصرفاته لا تخرج عن معنى الشدة. ولكن هذه الحروف ما شموا لها أيَّ رائحة، فهي أشد عليهم من كل معجزات القرآن. وأول ما نزل منها "كهيعص" كان إذا نزل جبريل بآية تلاها إلى آخرها وفسرها أيضا، فتلاها النبي صلى الله عليه وسلم كما تلاها جبريل وفسرها، ولما أتى جبريل بالوحي:" كـــ" قال الرسول: عرفت "هـــ" عرفت، "يـــ" عرفت، "عـــ" عرفت، "ص" عرفت، عرف النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يعرف جبريل علم جبريل أن هذا سر مكتوم حتى عنه هو المبلِّغ[1].

ذكر صفات المؤمنين، وصفهم بأحسن الصفات: التقوى والإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله، والصلاة ذكرها الله في القرآن في عدة آيات: "أقم الصلاة"، في رأس البقرة "ويقيمون الصلاة"، ليس مجرد صلاة إنما التقويم التثقيف تُسلمها من جميع الاعوجاج. أمر الله بإقامة الصلاة قال "أقيموا الصلاة" وأمر بأدائها في الجماعة "واركعوا مع الراكعين" وأمر بأدائها في الوقت "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا" وأمر بالخشوع فيها "الذين هم في صلاتهم خاشعون" فالنبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعه - جعلنا الله وإياكم ممن تبعه - امتثلوا هذه الأوامر كُلا، أقاموا الصلاة وأدوها في الجماعة وفي الوقت وخشعوا فيها، ذكرهم الله وذكر مصيرهم: "أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس". وأبو جهل وأشباهه رفضوا هذه الأوامر كلها، ما قبلوا منها شيئا، ذكرهم الله "فلا صدّق ولا صلّى ولكن كذب وتولى" وذكر مصيرهم: "ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين" وقال "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات

---

1 - روح البيان ج28/1

فسوف يلقون غيا"، وكلما ذكر الصلاة قرنها بالزكاة لأن الصلاة أكبر عبادات البدن والإنفاق أكبر عبادات المال، ولا يتم دين الإنسان إلا إذا تعبد ببدنه وماله.
وذكر الكفار وذكر المنافقين ودعا الناس إلى توحيده الذي هو أكبر شيء ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مكة ومن حولها من جميع العالم ﴿اعْبُدُواْ﴾ وحّدوا ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أنشأكم ولم تكونوا شيئا، دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله تبارك وتعالى ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وخلق الذين من قبلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بعبادته عقابه. قال المفسر[1] ولعل في الأصل للترجي وفي كلامه تعالى للتحقيق «لعلكم تتقون» لعل في حق الله للتحقيق، ولكن العبد هنا أمره الله تبارك وتعالى أن يقيم عبادة الله ويوحد ربه ومع ذلك لا يأمن بل يرجو ويخاف، فلعل هنا لا تحتاج للتأويل، لعل العبد يرجو أن يكون من المتقين ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ بيّن توحيده، الله من لم يعرفه هو «الذي جعل لكم الأرض فراشا» بساطا يفترش لا غاية في الصلابة والليونة فلا يمكن الاستقرار عليها جعلها صلبة ولينة حتى يمكن الاستقرار عليها إن شئت قائما وإن شئت قاعدا وإن شئت مضجعا ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ هو الذي رفع هذا السقف فوقنا بناء علينا ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أخرج ماء المطر من السماء من جهة السماء من السحابة، فالسحابة فوقنا وكل ما كان فوق الإنسان يمكن أن يعتبر سماء، فالمطر ينزل من السماء أولا ثم ينزل إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض، فبعض العرب يسمي المطر سماء:
إذا نزل السماء بأرض قوم..[2]

---

[1] – جلال الدين السيوطي.
[2] – هذا صدر بيت للفرزدق وعجزه: رعيناه وإن كانوا غضابا.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ﴾ أنواع ﴿الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تأكلونه وتعلفون به دوابكم ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ شركاء في العبادة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لا تعبدوا غير الله تبارك وتعالى وأنتم تعلمون أنه هو الخالق. إذا علم الإنسان أن الله هو الخالق يعلم أنه لا يستحق منه العبادة إلا الله.

عشرة من المغرورين: من عرف أن الله خالقه ولم يعبده، ومن عرف أن الله رازقه ولم يطمئن به، ومن عرف أن الدنيا زائلة ويميل إليها يعتمد عليها، ومن عرف أن ورثته أعداء له ويجمع لهم المال ويترك نفسه، ومن عرف أن الموت آتيه ولم يستعد له، ومن أيقن أن القبر منزله ولم يَعمُره، ومن أيقن أن الصراط ممره ولم يخفف ثقله، ومن أيقن أن النار محل الفجار ولم يهرب منها، ومن عرف أن الجنة منزل أحباب الله تبارك وتعالى ولم يطلبها، ومن أيقن أن إبليس عدوه ولم يحاربه[1].

«فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون» شركاء الشرك على أقسام: الشرك الجلي هو ما عليه المشركون من عبادة الأوثان، والشرك الخفي هو العمل للرياء والسمعة، والشرك الأخفى هو رؤية ما سوى الله تبارك وتعالى. إن الله وكل سبعة من الملائكة على أعمال العبد إذا عمل عملا يرفعه الملائكة إلى السماء الدنيا فينظره ملك السماء الدنيا: ردوا هذا العمل على وجه صاحبه فإنه حاسد أو مغتاب، في السماء الثانية أو متكبر أو معجب أو حاسد أو مراء أو طالب سمعة، فإذا تجاوز السماوات كلا يصل إلى الله تبارك وتعالى فيقول الله تبارك وتعالى إن الإنسان أخفى عنكم ما فيه وأنا لا يخفى علي شيء، هذا العمل لم يقصد به وجهي ردوا

ومنه قول حسان بن ثابت: ديار من بني الحسحاس قفر تعَفّيها الروامس والسماء.

1 – ذكره البروسوي في روح البيان ج42/1.

هذا العمل على وجه صاحبه، فإنه قصد به غيري[1]. فلهذا روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم: (الناس هلكى إلا المؤمنين والمؤمنون هلكى إلا العالمين والعالمون هلكى إلا العاملين والعاملون هلكى إلا المخلصين والمخلصون في خطر).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ دعا إلى وحدانية الله تبارك وتعالى وعبادته وحده ثم بيّن، أتى بالحجة على تصديق النبي صلى الله عليه وسلم، «وإن كنتم في ريب» في شك «مما نزلنا على عبدنا» الذي هو محمد صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ تحدى بالقرآن: آتوا بسورة مثل القرآن في البلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب، وأقصر سورة سورة الكوثر ثلاث آيات ﴿وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُمْ﴾ آلهتكم التي تعبدونها استعينوا بهم ﴿مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أن محمدا قاله من عند نفسه فافعلوا ذلك فإنكم عرب فصحاء مثله. تحدى أولا بالقرآن "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا" وتحداهم بعشر سور: "فاتوا بعشر سور مثله مفتريات"، وتحداهم بسورة واحدة قدر "إنا أعطيناك الكوثر" فعجزوا عن ذلك، العرب مع بلاغتهم وفصاحتهم لم يتعرضوا لمباراة النبي صلى الله عليه وسلم في الإتيان بمثل القرآن، ما تصدى لهذا إلا مسيلمة الكذاب أخيرا فمسخه الله حتى أتى بألفاظ كأن المتكلم بها ليس بعربي، يحاكي سورة الكوثر يقول إنا أعطيناك الجواهر فصل لربك وجاهر، أي مناسبة بين الجواهر والصلاة؟ الجواهر شيء من زينة الدنيا، هذا بعيد من "إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر". واكترى الأمريكيون واحدا يعلم العربية أن يصنع مثل فاتحة الكتاب، فتكلم بألفاظ كل من

---

1 - المصدر نفسه ج1/ 76 - 77

سمعها لا يظن أن المتكلم بهذا عربي يقول: باسم رب الأكوان بدلا من "الحمد لله رب العالمين"، باسم رب الأكوان الرحمن الرحيم لك العبادة وبك المستعان، ترك الله الذي هو لا يُستغنَى عنه في ذكر الله تبارك وتعالى قال: باسم رب الأكوان، وترك العالمين وقال الأكوان، الأكوان جمع كون وليس في اللغة العربية القديمة الفصحى جمع الأكوان، إنما هي كلمة محدثة، قال لك العبادة بدلا من إياك نعبد وهو يقول إنه يختصر إياك نعبد وإياك نستعين أربع كلمات، ولك العبادة وبك المستعان: المستعان جعله مصدرا، تعلمون أن هذا ممسوخ الكلام بعيد من الفاتحة. ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ فإن لم تفعلوا ما ذكر لعجزكم «ولن تفعلوا» لن تفعلوا أبدا ﴿فَاتَّقُواْ﴾ بالإيمان بالله ﴿النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ الكفار ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ أصنامهم ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يعذبون بها جملة ﴿وَبَشِّرِ﴾ أخبر ﴿الَّذِين ءَامَنُواْ﴾ صدقوا بالله ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ من الفروض والنوافل ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ حدائق ذات أشجار ومساكن ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ تحت أشجارها وقصورها ﴿الأَنْهَارُ﴾ المياه فيها، المياه تتدفق في الجنة بلا حدود ولا آلات بل تجري مع السكان حيث احتاجوا إليها ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا﴾ أُطعِموا من تلك الجنة ﴿مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ﴾ جيئوا بالرزق ﴿مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ من الحور وغيرها، ورد أن أقل رجال الجنة نساء عنده ثمانية آلاف ثيب وأربعة آلاف بكر ومائة حوراء[1] ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض وكل قذر ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهم خالدون فيها، ماكثون فيها أبدا لا يفنون ولا يخرجون.

---

1 - ذكره الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين عند تفسيره لهذه الآية. ج17/1

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

الدرس الثالث

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري		لنـا بهذا المحضـر
ولتعطفـي بنظـرة		تأتي لنـا بالظفـر

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَنْ يَّضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ هذه الآية نزلت ردا لقول اليهود لما ضرب الله المثل بالذباب في قوله تعالى "وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه" وفي العنكبوت في قوله "كمثل العنكبوت"، قالوا: ماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة؟ ما ينبغي أن الله تبارك وتعالى يضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة، كان من حقه أن يستحيي من ذلك، فنزلت. هذا سبب نزول هذه الآية، الله ضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة والكفار والمنافقون واليهود استنكروا ضرب المثل بمثل هذه في حق الجليل تبارك وتعالى[1] فرد الله عليهم بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِ أَنْ يَّضْرِبَ﴾ أن يجعل ﴿مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الله لا يستحيي أن يمثل بالبعوضة أو بما دونها أو بما فوقها، لا يترك بيان ما فيه من الحكم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ المثل ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت الواقع موقعه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ إذا ضرب

---

1 – جاء في تفسير القرطبي: وقال الحسين وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله الآية. ج242/1.

المثل بهذه الأشياء فالناس قسمان: المؤمنون يعلمون أن المثل واقع موقعه ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ بهذا المثل؟ أجاب: ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ بهذا المثل ﴿كَثِيراً﴾ عن الحق لكفرهم ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ من المؤمنين لتصديقهم ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يستحيي أن يضرب مثلا، الاستحياء انقباض العبد عند فعل ما يعير به أو يذم به فيترك ذلك. الانقباض لكراهية ما يذم به هذا مستحيل في حق الله تبارك وتعالى، قلنا لكم قاعدة إن كل صفة استحالت على الله تبارك وتعالى إذا أمعنت فيها تجد لها بداية ونهاية، بدايتها مستحيلة في حق الله تبارك وتعالى، ونهايتها جائزة في حقه، الاستحياء الانقباض عن شيء يذم به أو يعير به فيتركه، يتركه هو النهاية، أما الترك فيجوز على الله تبارك وتعالى، وحيث أن الكبير لا يمنعه من فعل شيء إلا الحياء لأنه لا يخاف من أحد فلا يزجره إلا الحياء، والله تبارك وتعالى أكبر من كل كبير، أطلق الاستحياء في حقه والمراد الترك أنه لا يتركه حياء منه. والكفار الذين انتقدوا ضرب المثل بهذه الأشياء الحقيرة لغباوتهم وعمى قلوبهم، فإن هذه الأشياء الحقيرة هي أغرب شيء مما خلق الله تبارك وتعالى وفيها من العجائب ما ليس في غيرها، فإن البعوضة مثلا مع صغر جثتها فيها كل عضو في الفيل وزيادة جناحين. الله تبارك وتعالى الذي قدر على أن يخلق الفيل ويخلق البعوضة ويركب فيها من الأعضاء والمفاصل قدر ما في الفيل لا يعجزه شيء، وهذا المخلوق الذي هو البعوض الصغير لما خلقه الله ضعيفا وخلق الذباب كذلك ضعيفا جعل فيه من الجرأة ما لا يهاب به أحدا، إذا اجتمع الناس تجد الذباب يحلق على أجفانهم وعلى عيونهم مع شدة طردهم له يراجعهم لا يبالي بهم، حتى الملوك حتى الجبابرة يقع البعوض عليهم ولا يهابهم. والفيل والأسد خلقهما الله

صدقت لهذا خلقه الله تبارك وتعالى[1]. وقالوا لولا الرياح والذباب لأنتنت الدنيا[2] مع ذلك هذه الروائح القبيحة يأكلها الذباب وتذهب بها الرياح فتتلاشى، لولا ذلك لأنتنت الدنيا وأضر بالسكان، قال «يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا» كيف قال جل جلاله إنه يهدي كثيرا وأهل الهداية هم القليلون بالنسبة إلى أهل الضلالة؟ أهل الضلالة كثيرون، وأهل الهداية قليلون ومع قلتهم فهم كثيرون في أنفسهم لا بالنسبة إلى أهل الضلالة ولكن في أنفسهم كثيرون، أو أهل الحق ولو قلوا هم السواد الأعظم وهم الكثيرون وهم الغالبون، والعبرة بهم، ولكن في الحقيقة الضالون أكثر من المهتدين، وذلك لعزة الإيمان ولاسْتغناء الله تبارك وتعالى، لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعا "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا" ولكن لاستغنائه عن الخلق جعل أكثر الجن والإنس أهل الضلالة «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ» الخارجين عن طاعته ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ ما عهده إليهم في الكتب من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم. عهد الله ثلاثة: الأول ما أخذ على ذرية آدم يوم "ألست بربكم قالوا بلى"، والثاني ما أخذه على الرسل أنهم إذا أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم يؤمنون به ويتبعونه، والثالث ما أخذه على العلماء "لتبيننه للناس ولا تكتمونه" هذا العهد نقضه اليهود، جعَل العهد منقوضا كأنه جعله حبلا لأن العهد يسمى في كلام العرب حبلا فلهذا جاز التعبير بالنقض ﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ تأكيده ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الإيمان بالنبي والرحم وغير ذلك ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بالمعاصي والتعويق عن الإيمان

1- الحكاية أوردها إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان ج86/1 عازيا لروضة الأخيار.

2- نفس الصفحة من نفس المصدر عن وكيع.

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يا أهل مكة ﴿بِاللَّهِ وَكُنتُمْ﴾ قد كنتم ﴿أَمْوَاتاً﴾ نطفا في الأصلاب ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ في الأرحام في الدنيا بنفخ الروح فيكم، والاستفهام للتعجب، كيف يكفرون بعد هذا كلا؟ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انتهاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون بعد البعث فيجازيكم بأعمالكم. وقال دليلا على البعث لما أنكروه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ الأرض وما فيها ﴿جَمِيعاً﴾ لتنتفعوا به وتعتبروا، أخبر الحق تبارك وتعالى أنه خلق لبني آدم الأرض وما فيها كلا لينتفعوا بها ويعتبروا بأن الخالق القادر على هذا قادر على أن يبعثهم بعد موتهم، اللام للاستحقاق، قالوا: بنو آدم هم الذين ملكوا الأرض وما فيها، ليس للإباحة، لهذا ضلت الإباحية: مذهب من مذاهب المعتزلة، يقولون إن الله خلق لبني آدم كل ما في الأرض، فليس على وجه الأرض شيء حرام علينا بعد ما خلقه الله لنا، والمقصود غير هذا ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ بعد خلق الأرض قصد ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾ أي صيرهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عليم بكل شيء مجملا ومفصلا، أفلا تعتبرون أن القادر على خلق ذلك ابتداء وهو أعظم منكم قادر على إعادتكم؟ "خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء" في هذه الآية كأن خلق السماء بعد خلق الأرض، وفي سورة النازعات "والأرض بعد ذلك دحاها" كأن خلق الأرض متأخر عن خلق السماوات، والجمع بينهما أن الله تبارك وتعالى خلق الأرض أولا ثم خلق السماوات وبعد خلق السماوات دحى الأرض وجعلها كما هي الآن، كلاهما سابق ولاحق، ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد صلى الله عليك وسلم ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يخلفني في تنفيذ أحكامي فيها، ذكر الله تبارك وتعالى أنه أخبر الملائكة أنه جاعل خليفة في الأرض هو آدم

﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالمعاصي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ يريقها بالقتل كما فعل بنو الجان، كانوا قبل آدم وكانوا يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، أتجعل خليفة كمثلهم؟ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ متلبسين بحمدك نقول: سبحان الله وبحمده ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وننزهك عما لا يليق بك ﴿قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة في استخلاف آدم، وأن ذريته فيهم المطيع والعاصي فيظهر العدل بينهم، فقالوا: لن يخلق ربنا خلقا أكرم عليه منا ولا أعلم لسبقنا له ورؤيتنا ما لم يره[1]، فخلق تعالى آدم من أديم الأرض أي وجهها بأن قبض منها قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة[2] وسواه ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد أن كان جمادا، هذه قصة خلافة آدم، قال الله: «إني جاعل في الأرض خليفة» وهو آدم. الله تبارك وتعالى خليفته في الوجود به ينفذ جميع أحكامه وأعماله كالختم لكل ملك يحفظ به مملكته. والله تبارك وتعالى ذكر أنه خلق آدم خلقه بشرا، لما ذكره بشرا قال: "إني خالق بشرا" وذكره هنا وجعله خليفة وقال «جاعل» لم يقل خالق لأنه بصفته خليفة ليس من عالم الخلق إنما هو من عالم الأمر[3]. أخبر الملائكة أن آدم وذريته هم خلفاء الله في الأرض، فأجاب الملائكة هذا الجواب «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» من أين علموا أن ذرية آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء؟ علموه من تركيب خلق آدم، آدم خلقه الله

---

1 - ذكره السيوطي في تفسيره لهذه الآية في الجلالين ج20/1 (دار إحياء التراث العربي).

2 - راجع النيسابوري في كتابه قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس ص26.

3 - قال في روح البيان: الجعلية تتعلق بعالم المعنى كما أن الخلقية تتعلق بعالم الصورة ولهذا لما أخبر الله تعالى عن صورة آدم قال "إني خالق بشرا من طين" ولما أخبر عن معناه قال "إني جاعل في الأرض خليفة" تفسير روح البيان 21/8.

وركب فيه نفسا لها شهوة وغضب، وعقلا، الآدمي له قوى ثلاث: قوة غضب تسفك الدماء، وقوة شهوة تفسد في الأرض بالمعاصي، وقوة العقل هي التي تصلح، فنظر الملائكة إلى آدم فقالوا إن هاتين القوتين لابد أن تغلبا القوة الواحدة فإذاً لابد أن يقع الفساد ولابد أن يقع سفك الدم. وقيل إنهم فهموا أن آدم وذريته سيفسدون في الأرض بلفظ الخلافة، لأن الخلافة مشتقة من الخلاف، كل خليفة لابد أن يخالف من قبله لا محالة، فلما كان آدم خليفة لله عرفوا أنه لابد أن يصدر منه فساد وسفك دم، أو قرأوا هذا في اللوح لأنه كتب في اللوح المحفوظ أن آدم سيكون خليفة في الأرض وله ذرية بعضهم يفسد في الأرض ويسفك الدماء حتى يملأ الله بهم جهنم، وبعضهم مطيعون يملأ الله بهم الجنة، قرأوا هذا في الكتب، ولهذا قالوا ما قالوا. أو سمعوا ذلك من الله تبارك وتعالى قبلُ، ناجاهم قبل قالوا له: يا إلهنا هذه النار خلق قوتها شديدة ما تصنع بها؟ قال لهم أخلق مخلوقا وأجري ذرية من صلبه فيهم من يطيعني فأدخلهم الجنة وفيهم من يعصيني فأدخلهم النار. اعتراضهم على خلافة آدم فهموه من هذه الوجوه. «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون» فأعرض الله تبارك وتعالى عنهم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ﴾ أسماء المسميات أي أسماء الكائنات كلا ﴿كُلَّهَا﴾ حتى القصعة والقصيعة[1] والفسوة والفسية[2] والمغرفة، علم الله تبارك وتعالى كل ما سيخلق من الأشياء، هذا اسمه فرس والحكمة فيه كذا، وهذا اسمه حمار وهذا... حتى القصعة والقصيعة الإناء الكبير والصغير والمغرفة كل شيء عرفه آدم في الحين من أول الدهر إلى آخر الدهر،

---

1 – قال صلى الله عليه وسلم: "وعلم آدم الأسماء كلها" حتى القصعة والقصيعة) القرطبي ج1/ 284.

2 – قاله ابن عباس، راجع تفسير ابن كثير ج74/1.

والملائكة لم يعلموا شيئا من هذا ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ﴾ تبكيتا ﴿أَنبِئُونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ﴾ المسميات ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في أني لا أخلق أعلمَ منكم أو أنكم أحق بالخلافة من آدم ﴿قَالُواْ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك عن الاعتراض عليك ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يخرج شيء عن علمه وحكمته ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿يَاءادَمُ أَنبِئْهُمْ﴾ الملائكة ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ المسميات فسمى آدم كل شيء باسمه وذكر حكمته التي خلق لها ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ تعالى لهم توبيخا ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون من قولكم «أتجعل فيها» ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تسرون من قولكم لن يخلق الله أكرم عليه منا ولا أعلم.

هذه قصة آدم مع الملائكة، لما خلق الله آدم علمه هذه الأشياء والملائكة لم يعلموها فاحتج الله عليهم بأن آدم يستحق الخلافة لأنه يعلم علما لا يعلمه الملائكة، فلهذا قال العلماء إن الإمامة لا يستحقها إلا العالم فقط، لأن الله تبارك وتعالى احتج على الملائكة في خلافة آدم بالعلم. وهذا فضل العلم. لما علم آدم المسميات والملائكة لم يعلموها جعله الله خليفة في الأرض وأمر الملائكة كما يأتي الآن بالسجود له سجود تحية، هذا دليل على شرف العلم، العلم هو الإمام والعمل تابع له، وفضل العلم أتى به الكتاب والسنة والعقل، أما الكتاب فالله تبارك وتعالى ذكر في عدة آيات فضل العلم، منها: "إنما يخشى الله من عباده العلماء" ومنها "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم" والله ذكر أربعة أصناف أنه يرفع درجاتهم: أهل بدر "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم" هذه نزلت في أهل بدر، وقال في آخره إنه يرفع درجاتهم يعطيهم درجات عالية، وذكر المجاهدين "فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات"، ورفع تبارك وتعالى درجات

الصالحين "ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى"، ورفع درجات أهل العلم فوق جميع هذه الأصناف "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" فجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم". في القرآن سبعة أنفار كلهم ذكر الله أنه علمه العلم من عنده بلا واسطة: "علم آدم الأسماء كلها" فنال بذلك الخلافة وسجود الملائكة له، وقال تعالى إنه علّم الخضر علم الفراسة "وعلمناه من لدنا علما" فنال بذلك تلميذا مثل موسى ويوشع، وعلم يوسف تأويل الأحلام "رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث" فنال زليخا والمملكة، وعلم داود صنعة لبوس "وعلمناه صنعة لبوس" فوجد الرئاسة والملك، وعلم سليمان منطق الطير "عُلِّمنا منطق الطير" والمعلم الله، فوجد المملكة ووجد بلقيس والعرش، وعلّم عيسى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل "ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل" فنال بذلك الرفع إلى السماء والمشاركة مع الملائكة، وعلم محمدا صلى الله عليه وسلم الشريعة "وعلمك ما لم تكن تعلم" فنال بعلمه الشفاعة.

قال علي كرم الله وجهه: العلم أفضل من المال بسبعة أشياء[1]:

- المال ميراث الفراعنة والعلم ميراث الأنبياء
- المال ينقص بالنفقة والعلم لا ينقص بالنفقة
- المال يجده الكافر ويجده المؤمن، والعلم لا يجده إلا مؤمن

---

1 - ذكر منها الغزالي في إحياء علوم الدين ج1/ 7: وأما الآثار فقد قال علي رضي الله عنه لكميل: يا كميل العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق.

- المال يحتاج إلى حافظ وحارس، والعلم يحفظ صاحبه لا يحتاج لحافظ
- المال إذا مات الإنسان يبقى مالُه، وعلمه يدخل معه في قبره لا يفارقه
- المال يثقل الإنسان على الصراط، والعلم يقويه على المشي على الصراط
- العلم يحتاج الناس كلا إليه في دينهم، ولا يحتاجون إلى صاحب المال.

فالعلم أفضل من المال. وإذا كان آدم عليه الصلاة والسلام عُلِّم أسماء الكائنات فشرف بذلك العلم حتى وجد سجود الملائكة وتحيتهم له، فنحن عُلِّمنا الذات والصفات والأسماء ليس أسماء الكائنات، بل أسماء الله وصفاته وذاته العلية، إذا عرفنا هذا كيف لا نجد سلام الملائكة؟ بل نجد فوق ذلك نجد سلام الرب "سلام قولا من رب رحيم". وإذا كان الخضر وجد بعلم الفراسة صحبة موسى ويوشع وهما نبيان، فنحن وجدنا علم الحقيقة كيف لا نجد صحبة محمد صلى الله عليه وسلم؟ نجدها "أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا" الحمد لله.

من فضائل العلم أن الطالب إذا خرج من بيته إلى عالم يطلب العلم فإن الملائكة تبسط أجنحتها تعظيما وتشريفا له[1]، وما دام يتردد إلى معلمه فالله تبارك وتعالى ينزل عليه الرحمة، وإذا كان في مجلس العلم، من يفهم العلم يعلم ما يجد ومن لا يفهم شيئا مما يقال يجد كرامات: يجد أنه في طاعة الله تبارك وتعالى مادام في مجلس

---

1 - جاء في مسند أحمد من حديث صفوان بن عسال المرادي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب) حديث رقم 17394 من مسند أحمد. وكذا أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (3458) والنسائي في كتاب الطهارة (158) وابن ماجه في المقدمة (222) والدارمي في المقدمة (360) وأخرجه السيوطي في الجامع الكبير بلفظ آخر عن أبي الدرداء. الجامع الكبير 786/1.

العلم ولو لم يفهم شيئا، فهو محبوس عن المعاصي والذنوب مادام في ذلك المجلس، ومُجالِسٌ للعلماء والملائكة، وإذا لم يعلم شيئا مما يقال ينكسر قلبه لهذا فيكون الله جليسه (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)[1] هذا شيء من فضل العلم. لما أراد الله أن ينبه الملائكة أن آدم خير منهم أعطاه من العلم ما لم يجدوا، فأقروا بأن آدم خير منهم ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد صلى الله عليك وسلم ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ سجود تحية بالانحناء، أو كأنه سجود انحناء ليس سجود عبادة، هذا لا يستحقه إلا الله تبارك وتعالى، أو جُعل آدم قبلة لهم كما جُعلت الكعبة قبلة لنا نسجد إليها ولا نسجد لها حقيقة، وعلى كل حال هذا السجود لغير الله تبارك وتعالى منسوخ ﴿فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن كان بين الملائكة[2] ﴿أَبَى﴾ امتنع من السجود ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ وقال أنا خير منه ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ إبليس كان يسمى بعزازيل[3]، كان عبدا مقربا، عبَد الله تبارك وتعالى في كل شبر على وجه الأرض ألف سنة وكان خازن الجنة أربعين ألف سنة[4]، وجاهد ستين ألف سنة، هذا قبل

---

1 - ورد هذا الحديث في روح البيان ج376/1.

2 - حكى الماوردي عن قتادة أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال لهم الجِنة وقال سعيد بن جبير إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم. القرطبي 1/ 294.

3 - ذكره ابن قتيبة في المعارف ص14. ط2/ دار المعارف بمصر. وقال القرطبي في تفسيره: وكان اسمه بالسريانية عزازيل وبالعربية الحارث وكان من خزان الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض.

4 - أورد الصاوي في حاشيته على الجلالين عند تفسير هذه الآية: فائدة: قال كعب الأحبار إن إبليس اللعين كان خازن الجنة أربعين ألف سنة ومع الملائكة ثمانين ألف سنة ووعظ للملائكة عشرين ألف سنة وسيد الكروبيين ثلاثين ألف سنة وسيد الروحانيين ألف سنة وطاف حول العرش أربعة عشر ألف سنة

آدم، ولما خلق الله آدم وأمر الملائكة بالسجود له قاس إبليس مع وجود النص، قال إنه خير من آدم فلا يسجد له فامتنع فسجد الملائكة. كان السجود في الأصل مرة واحدة، وهذا هو القياس، هو اللائق، لأن الله واحد فالسجود كان واحدا. ولكن لما سجد الملائكة نصف يوم خمسمائة عام ورفعوا رؤوسهم من السجود ورأوا إبليس امتنع لم يسجد رجعوا ثانية، سجدوا سجودا ثانيا شكرا لله تبارك وتعالى حيث لم يبتلهم بما ابتلى به إبليس، فصار السجود مرتين، كان ركوع واحد وسجود واحد لأن المعبود واحد، ولكن الثانية شكر لله تبارك وتعالى.

ألقى شبهة على الملائكة لو لم يردها الله ما قدرنا على ردها، لا يقدر أحد أن يردها بالعقل قال: أنا أعلم أن الله هو ربي وخالقي ومالكي، لم خلقني بعد أن علم أني شقي يعذبني؟ هلا تركني؟ ولما خلقني أنا أطيعه، هو ربي لِمَ يأمرني بالسجود لغيره وهو آدم؟ ولما امتنعت عن السجود لآدم لِم طردني ولعنني وجعلني شقيا وأنا ما قلت شيئا إلا أني لا أعبد غير ربي فقط، لا أسجد لغير الله فطردني وهو يعلم، الله لما علم في أزله أنه إذا أمرني بالسجود لآدم لا أسجد له لم أمرني بالسجود له؟ ولما لعنني وطردني وجعلني شقيا أنا وكل من تبعني لِم تركني في الدنيا وسلطني على بني آدم أضللهم وأغويهم، وطلبت أن يؤخرني إلى آخر الدهر فقبل مني هذا أيضا، وهو يعلم أن عالما ليس فيه شر أفضل من عالم فيه شر، هلا أراح الناس مني وقتلني؟[1]

وكان اسمه في سماء الدنيا العابد وفي الثانية الزاهد وفي الثالثة العارف وفي الرابعة الولي وفي الخامسة التقي وفي السادسة الخازن وفي السابعة عزازيل وفي اللوح المحفوظ إبليس وهو غافل عن عاقبة أمره. ج1/ 47.

1 - انظر تفسير الفخر الرازي ج3 / 252، وتفسير النيسابوري بهامش الطبري ج1/ 25.

أجاب الحق تبارك وتعالى: كل هذه الشبهات جوابها أن كلمته الأولى ليست بحق عنده فقط، قال إني خالقه وإني ربه، إن كنت أنا خالقه وربه فأنا لا أسأل عما أفعل. الرب الخالق يتصرف كيف يشاء. هو أولا أقر أن الله خالقه وربه وسيده، إن كان هذا حقا ليس عليه إلا أن يمتثل كل ما أمره به فقط، فقوله إنه عبدٌ لله هذا ليس بحق عنده، ولهذا يعترض هذه الاعتراضات. وشبهة إبليس هذه هي التي أضلت الطوائف من أول الدهر إلى آخر الدهر، قال إنه خير من آدم هذا خلق من طين وهو خلق من نور، عبَدَ الله كذا من آلاف السنين مقربا عند الله، وهذا خلق اليوم من طين كيف يكون خيرا مني؟ لم يعلم أن الله فعال لما يريد. فلما جاء أول الأنبياء نوح عليه الصلاة والسلام، قال قومه "إن هذا إلا بشر مثلكم"، لا يستحق أن يتبعوه إلى آخر الأمة، وهكذا قالت قريش في محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه شبهة لا ترتفع عن الناس وكل شبهة بعد إنما تتفرع من هذه الشبهة ﴿وَقُلْنَا يَاءَادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ حواء ﴿الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً﴾ واسعا لا حجر فيه ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ بالأكل وهي الحنطة أو الكرم ﴿فَتَكُونَا﴾ تصيرا ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ العاصين ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إبليس أذهبهما ﴿عَنْهَا﴾ أي عن الجنة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ﴾ إلى الأرض أنتما بما اشتملتما عليه من ذريتكما ﴿بَعْضُكُمْ﴾ بعض الذرية ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ عدو لبعض ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَاعٌ﴾ ما تتمتعون به ﴿إِلَى حِينٍ﴾ وقت انقضاء آجالكم ﴿فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ ألهمه إياها، أمر الله آدم أن يسكن في الجنة وزوجته بعد ما خلق حواء من ضلعه اليسرى وزوجها

إياه[1]، سكنا في الجنة ونهاهما الله تبارك وتعالى عن أكل الشجرة، وإبليس طرد من الجنة، وكانت الحية دابة ذات أربع قوائم جميلة في الجنة[2]، ولما لم يقدر إبليس على دخول الجنة ليوسوس لآدم صرخ بأعلى صوته خارج الجنة فأتته الحية، بكى وقال لها: أنا عندي نصيحة لآدم ولا أقدر على دخول الجنة اجعليني في فمك حتى لا تراني الملائكة فأذهب إلى آدم وأؤدي له النصيحة. ففعلت الحية هذا، فدخل إبليس على حواء فوجد آدم غائبا فأقسم بالله أن هذه الشجرة شجرة الخلد إذا أكلا منها لا يخرجان من الجنة أبدا، وإذا لم يأكلا منها لابد أن الله يخرجهما من الجنة، قالت حواء لا يقدر أحد أن يقسم باسم الله وهو كاذب[3]، فتناولت الشجرة أخذت ثلاث حبات أكلت واحدة في الحين وادخرت واحدة لنفسها وادخرت واحدة لزوجها، فأتى آدم فأكل حبة فطارت عنهما ملابسهما كلا، فبكى آدم وصاح في أرض الجنة حتى أخذه الملائكة، قال الله تبارك وتعالى: يا آدم ما لك؟ قال إنه أكل الشجرة، "ألم أنهكما عن تلكما الشجرة"، قال: أطعمتني حواء. فقال لحواء ما لك؟ قالت: نصحني إبليس وأقسم باسمك ولا أحد يقدر أن يقسم باسمك كاذبا. فقال: ما لإبليس ولدخول الجنة؟ قال: أدخلتني الحية. فأُهبطوا جميعا آدم وحواء وإبليس والحية[4]، بعضهم عدو لبعض، فنزل آدم بسرنديب بالهند وحواء بجدة وإبليس

---

1 - قال ابن مسعود وابن عباس: لما أسكن آدم الجنة خلِقت حواء من ضلعه القصرى من شقه الأيسر وهو نائم ليسكن إليها ويأنس بها، فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي. القرطبي ج1/ 301.

2 - ذكرها القرطبي ج1/ 312 وذكر قصتها صاحب قصص الأنبياء ص19.

3 - قال في قصص الأنبياء: "وما كانا يظنان أن أحدا يحلف بالله كاذبا" يعني آدم وحواء. ص19.

4 - الخطاب لآدم وحواء والحية والشيطان في قول ابن عباس. القرطبي ج1/ 319.

بالأيلة والحية بأصبهان[1]. فاستحيى آدم ثلاثمائة سنة لا يرفع رأسه إلى السماء وهو يبكي لهذه المخالفة[2] «فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَاتٍ» ألهم الله آدم كلمات أخذها منه جل جلاله ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الكلمات قيل "ربنا ظلمنا أنفسنا" الآية[3]، فدعا بها فتاب عليه، قبل توبته ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ على عباده ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم. آدم تلقى كلمات من الله تبارك وتعالى وتاب بها وقبل الله توبته، وإبليس ركّب كلمات من عند نفسه وتاب بها و لم يستجب له لأنه ليس عنده إذنٌ. هذا سر تلقي الإذن من المشايخ. آدم الذي تلقى من ربه كلمات تاب الله عليه، وإبليس الذي تاب بكلمات أخذها من عند نفسه لم تقبل توبته، فلهذا صار المشايخ يستعملون الإذن في كل شيء. والسر يسري مع الإذن. حتى الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من جبريل وهو أقرب إلى الله من جبريل، ولكن أحب التلقي "وداعيا إلى الله بإذنه". آدم أكل هذه الشجرة وأكْلُ الشجرة صورته صورة معصية وفي الحقيقة هو طاعة في حق آدم. هكذا عصيان الخواص ظاهره معصية وباطنه طاعة. آدم في باطن الأمر ناجاه الحق تبارك وتعالى وقال له: أنا خلقت الجنة والنار ووعدتهما بأني أملأهما، ولا يمكن هذا إلا إذا خلقت خلقا وأخرجت من صلبه ذرية، فيهم مطيع يذهب إلى الجنة، وعاص يذهب إلى النار، وكلفت الملائكة فامتنعوا والحور العين

---

1 - قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين: هبط آدم بالهند بمكان يقال له سرنديب وحواء بجدة وإبليس بالأيلة والحية بأصبهان. الجلالين ج1/ 50. وفي كتاب قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس/ ص 20.

2 - ذكره الصاوي عند قوله تعالى "إنه هو التواب الرحيم". ج51/1.

3 - قاله ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير والضحاك ومجاهد. وقالت طائفة: رأى مكتوبا على ساق العرش: محمد رسول الله، فتشفع بذلك. القرطبي ج1/ 324.

"إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان"، قال آدم: إذا كان في هذا رضاك فأنا أمتثله، قال: سأظهر أنك خالفتني وعصيتني، قال: إن كان فيه رضاك فلا أبالي. فلهذا خالف ظاهرا وهو مطيع حقيقة. قال ابن العربي الحاتمي: لما أكل آدم الشجرة نزل إلى الأرض وكان خليفة عن الله في الأرض، وصار أبا لجميع الأنبياء والمرسلين والعارفين والأولياء والمؤمنين إلى يوم القيامة، وصار أبا لسيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم، قال لو كنت أنا في محل آدم لأكلت جميع الشجرة وأكلت عروقها كلا.

فهذه المعصية صورية وليست عصيانا حقيقيا، وإليه يشير الجيلي، بقوله[1]:

ولي نكتة غرا هنـــا سأقولها وحق لها أن ترعويها المسامـــع
هي الفرق ما بين الولي وفاسق تنبه لهـــا فالأمر فيه بدائـــــع
وما هو إلا أنــــه قبل وقعــــــه يخبر قلبي بالذي هو واقــــع
فأجني الذي يقضيه في مرادهـــا وعيني لها قبل الفعال تطالـــع
فكنت أرى منها الإرادة قبلـــما أرى الفعل مني والأسير مطاوع
إذا كنتُ في أمر الشريعة عاصيا فإنيَ في حكم الحقيـــقة طائع

سألني عالم في الحجاز: ما معنى قوله تبارك وتعالى: "فعصى آدم ربه فغوى"؟ قلت له: آدم عبد لله تبارك وتعالى وهذا كلام الله، الله له أن يقول: عصى آدم وغوى، وأما أنا وأنت فنحن أبناء آدم يجب علينا برور أبينا، مقامنا "ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى" الله يقول: "وعصى آدم ربه فغوى" وأما نحن فلسان حالنا يقول: "ثم

1 - الأبيات أوردها الصاوي في حاشيته على الجلالين ج1/ 51.

اجتباه ربه فتاب عليه وهدى" التواب يطلق على الله تبارك وتعالى لكثرة قبوله توبة العباد، يقال للعبد تائب وتواب، ويقال لله تواب ولا يقال لله تائب ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا﴾ من الجنة ﴿جَمِيعاً ﴾كرره ليعطف عليه ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ كتاب أو رسول ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ فآمن بي وعمل بطاعتي ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ كتبنا ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ماكثون، الخلود المكث الطويل ولو لم يكن دواما، لا يقتضي الدوام فلهذا قال الله في بعض الآيات "خالدين فيها أبدا" لو كان الخلود يوذن بالخلود الدائم لما احتاجوا إلى أبدا.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لما قص قصة خلافة آدم كلم بني إسرائيل من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم منهم «يا بني إسرائيل» أولاد يعقوب ﴿اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى آبائكم من الإنجاء من فرعون وفلق البحر وتظليل الغمام وغير ذلك بأن تشكروها بطاعتي. ذكر الله تبارك وتعالى في هذه السورة النعم التي أنعمها على بني إسرائيل وهي عشر قابلوها بعشر من الخبائث، فأنزل الله عليهم عشرة أنواع من العقاب وكلها في هذه السورة[1]. واليهود المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم

---

1 - ذكر السيوطي عند تفسير هذه الآية ثلاثا من هذه النعم هي الإنجاء من فرعون وفلق البحر وتظليل الغمام، ثم ذكر الصاوي في الحاشية بقيتها وهي: العفو عنهم، وغفران خطاياهم، وإتيان موسى الكتاب، والحجر الذي تفجرت منه اثنتا عشرة عينا، والبعث بعد الموت، وإنزال المن والسلوى عليهم. ثم ذكر القبائح التي قابلوها بها: قولهم سمعنا وعصينا، واتخاذهم العجل، وقولهم أرنا الله جهرة وتبديل القول الذي أمروا به، وقولهم لن نصبر على طعام واحد، وتحريف الكلم، وتوليهم عن الحق بعد ظهوره، وقسوة قلوبهم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق. ثم قال: أما عقوباتهم العشرة فهي: ضرب الذلة والمسكنة

أنعم الله عليهم عشر أنعم أيضا قابلوها بعشر خبائث، فعاقبهم الله تبارك وتعالى بعشرة أنواع كذلك من العذاب[1] وسبب حكاية هذه الصفات من آبائهم أن اليهود كانوا ينزهون آباءهم ويعتقدون أنهم مستقيمون وأنهم على طاعة الله تبارك وتعالى، وبهذه الآية عرفوا أن آباءهم كانوا غير مستقيمين "اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم" أي على آبائكم ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي﴾ الذي عهدته إليكم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي عهدت ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ خوفوا مني في ترك الوفاء بي دون غيري ﴿وَءَامِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة بموافقته له في التوحيد ﴿وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ﴾ أول فريق كافر ﴿بِهِۦ وَلاَ تَشْتَرُواْ﴾ تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ التي في كتابكم من نعت محمد ﴿ثَمَناً قَلِيلاً﴾ عرضا يسيرا ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ خوفوا مني ﴿وَلاَ تَلْبِسُواْ﴾ لا تخلطوا ﴿الْحَقَّ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الذي تفترونه ﴿وَ﴾ لا ﴿تَكْتُمُواْ الْحَقَّ﴾ نعت محمد ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه حق ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ صلوا مع المصلين محمد وأصحابه. ونزل في علمائهم وكانوا يقولون لقربائهم المسلمين: اثبتوا على دين محمد فإنه حق، إذا شاورهم أحد على الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ورأوه غريبا قالوا له آمن به فهو نبي حقا، وإذا شاورهم

عليهم، والغضب من الله، وإعطاء الجزية، وأمرهم بقتل أنفسهم، ومسخهم قردة وخنازير وإنزال الرجز عليهم من السماء وأخذ الصاعقة لهم، وتحريم طيبات أحلت لهم. الصاوي على الجلالين ج1/ 53.

1 - ذكرها الصاوي كذلك في حاشيته على الجلالين بقوله: "وقد وبخ الله المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم بعشرة أخرى: كتمانهم أمر محمد، وتحريف الكلم، وقولهم هذا من عند الله، وقتلهم أنفسهم، وإخراجهم فريقا من ديارهم، وحرصهم على الحياة وعداوتهم لجبريل، واتباعهم السحر، وقولهم نحن أبناء الله، وقولهم يد الله مغلولة قال تعالى "غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا" ج1/ 54.

أتباعهم قالوا: لا ليس بنبي ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الاستفهام إذا دخل على الإثبات ينفيه[1] أي ما أمرتم الناس بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم[2] ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ تتركونها فلا تأمروها ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ التوراة وفيها الوعيد على مخالفة القول العمل ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ سوء فعلكم فترجعون ﴿وَاسْتَعِينُواْ﴾ اطلبوا المعونة على أموركم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ حبس النفس على ما تكره ﴿وَالصَّلاَةِ﴾ أداء الصلاة، أفردها بالذكر تعظيما لشأنها. وفي الحديث كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة[3]. وقيل الخطاب لليهود لما عاقهم عن الإيمان الشره وحب الرئاسة، فأمروا بالصبر وهو الصوم لأنه يكسر الشهوة، والصلاة لأنها تورث الخشوع ﴿وَإِنَّهَا﴾ هذه الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ ثقيلة ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلاَقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فيجازيهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ذكّرهم الله تبارك وتعالى بنعمه ليشكروا ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ فضلت آباءكم ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾ هو يوم القيامة ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ أي ليس لها شفاعة فتقبل "فما لنا من شافعين" ﴿وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداء ﴿وَلاَهُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أي

---

1 - ذكر في روح البيان عازيا للتأويلات النجمية: الإثبات بعد الاستفهام نفي كما أن النفي بعد الاستفهام إثبات. ج466/2.

2 - قاله في الجلالين ج26/1

3 - (كان إذا حزبه أمر صلى) أخرجه أحمد: كتاب مسند الأنصار/ باب حديث حذيفة بن اليمان (22210). أبو داود: كتاب الصلاة/ باب وقت قيام النبي من الليل (1124) وورد في الجامع الصغير ج2/ رقم الحديث 6641.

آباءكم ﴿مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ من فرعون وآله ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشد العذاب ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ يقتلون أولادكم المولودين ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يستبقون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ لقول بعض الكهنة إن مولودا يولد في بني إسرائيل يكون سببا لذهاب ملكك[1] ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ في ذلكم العذاب ﴿بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ بلاء عظيم من ربكم، أو في ذلكم الإنجاء «بلاء» إنعام «عظيم من ربكم» ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا﴾ فلقنا ﴿بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من الغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون وقومه ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نعطيه عند انقضائها التوراة[2] ﴿ثُمَّ اتَّخَذتُّمُ الْعِجْلَ﴾ الذي صاغه السامري إلهاً ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد ذهابه إلى ميعادنا ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ باتخاذه لوضعكم العبادة في غير محلها ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ﴾ ذنوبكم ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ تفسير للكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً ﴿فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليقتل البريء منكم المجرم ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ فوفقكم لفعل ذلك، وأرسل عليكم سحابة سوداء لئلا يبصر بعضكم بعضا فيرحمه حتى قتل منكم نحو سبعين ألفا[3] ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

---

1 - ذكره الإمام السيوطي عند تفسير هذه الآية، ج1/ 60 من حاشية الصاوي على الجلالين.

2 - قال النقاش في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه الصلاة والسلام واصل أربعين يوما بلياليها. القرطبي ج1/ 375.

3 - قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل. ابن كثير ج1/ 93. وورد في مسند علي

ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية قصة بني إسرائيل مع فرعون، وفرعون موسى اسمه مصعب بن الريان أو الوليد بن مصعب[1]، كان ملك مصر أربعمائة سنة[2] ما تألم من رأسه قط، ما أصابه مرض قط، وكل يوم يأكل جملا ولا يأتي بيت الخلاء إلا في أربعين يوما، وبعد ذلك أخذه الاستدراج قال إنه إله ليس بعبد فادعى الربوبية "ما علمت لكم من إله غيري" بعد ذلك ادعى فوق ذلك "أنا ربكم الأعلى". فرعون هذا رأى رؤيا أن نارا خرجت من دور بني إسرائيل فأحرقت دوره وممالكه كلا، فقال له الكهنة إن مولودا يولد في بني إسرائيل سيكون فيه ذهاب ملكك[3]، هذا معنى رؤياك، قال: بنو إسرائيل عبيدي لا يمكن أن يولد منهم مولود يذهب بملكي، إذاً كل من ولد من بني إسرائيل ذكرا لا بد أن أقتله، فقتل من الصبيان الموجودين في الحال عشرين ألف صبي، وصار كل مولود ولد في بني إسرائيل ذكرا يقتله حتى قتل تسعين ألف مولود[4] مع عشرين ألفا، هذا مائة ألف وعشرة آلاف كل هذا في طلب موسى فقط، ولسان الألوهية يخاطبه إن المولود الذي تطلب قتله ستربيه في بيتك وعلى حجرك وتنفق عليه حتى يكون سبب هلاكك على يده على رغم أنفك. فولد موسى كما سيأتي في القصص فكان

بن أبي طالب من الجامع الكبير ج2/ 118 الحديث مطولا ومنه: (...فقالوا لموسى ما توبتنا؟ قال: يقتل بعضكم بعضا فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفا فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم فقد غفرت لمن قتل وتبت على من بقي).

1 – ابن كثير ج1/ 91. ط/ دار الفكر 1980م.

2 – قصص الأنبياء ص 97.

3 – حاشية الصاوي على الجلالين ج1/ 60. وقصص الأنبياء ص97.

4 – حاشية النسفي على تفسير الخازن. ج3/ 396. ط/ دار المعرفة ـــ بيروت

سبب هلاك فرعون هو موسى عليه الصلاة والسلام. ولما أهلك الله فرعون وقومه طلب موسى من الله أن يعطيه كتابا يهدي به قومه بني إسرائيل يكون فيه الحلال والحرام والأمر والنهي، فأمره الله بالصيام أربعين ليلة[1]، أربعين ليلة ليس كصومنا لياليها وأيامها كلا، هذا ثمانون ليلة، لم يفطر مدة أربعين يوما ليلا ونهارا، ولم يحس بالجوع لأنه متوجه إلى الحضرة، في يوم واحد ذهب إلى الخضر نصف نهار قال: "آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا"، لما ذهب إلى المخلوق جاع في نصف يوم، ولما توجه إلى الحق مكث ثمانين يوما أي أربعين يوما بالليالي ولم يحس بالجوع، لهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: من أخلص لله أربعين يوما نبعت الحكمة من قلبه وجرت على لسانه[2]، هذا أصل خلوة الذين يدخلون الخلوة أربعين يوما؛ خلوة ثلاثة أيام أصلها "ثلاثة أيام إلا رمزا"، وخلوة سبع ليال "سبع ليال وثمانية أيام حسوما". ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ سترناكم بالسحاب ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ هما

---

1 - قال ابن عباس ومجاهد ومسروق رضي الله عنهم: هي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة، أمره أن يصوم الشهر وينفرد فيه بالعبادة فلما صامه أنكر خلوف فمه فاستاك بعود خرنوب فقال الملائكة: إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فزيد عليه عشر ليال من ذي الحجة. وقيل إن الله تعالى أوحى إليه لما استاك "يا موسى لا أكلمك حتى يعود فوك إلى ما كان عليه قبل، أما علمت أن رائحة الصائم أحب إلي من ريح المسك؟ القرطبي مج4/ ج7/ 274.

2 - أورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ "من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" رقم 8361. وفي الحلية لأبي نعيم عن مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من عبد يخلص العبادة لله أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه". ج10/60.

الترنجبين والطير السمانى ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ولا تدخروا، فكفروا النعمة وادخروا فقطع عنهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن وباله عليهم ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بيت المقدس أو أريحا ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ واسعا لا حجر فيه ﴿وَادْخُلُواْ الْبَابَ﴾ بابها ﴿سُجَّداً﴾ منحنين ﴿وَقُولُواْ﴾ مسألتنا ﴿حِطَّةٌ﴾ قولوا حطة، حطة ما تحط الخطايا وهي لا إله إلا الله[1] ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ منهم ﴿قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا حبة في شعرة، ودخلوا يزحفون على أستاههم، أمروا بالسجود وقول لا إله إلا الله فلم يسجدوا بل دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة[2] ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً﴾ عذابا طاعونا ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم، خروجهم عن الطاعة. لما كانوا في التيه قالوا: يا موسى من أين لنا ما نأكل؟ فنزل عليهم موائد من السماء يأكلون، وكلما جاء وقت الغداء ينزل الطعام على أحسن ما يكون فيأكلون وترفع المائدة إلى وقت هيئتها في الغد. قالوا: من أين لنا الملابس؟ ضمن الله تبارك وتعالى أن لا تتسخ ثيابهم ولا تبلى، فقالوا: من أين لنا ما نشرب؟ فضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا. فقالوا الشمس تضر بنا، فأتى الله بغمام سترهم حتى لم يجدوا حر

---

1 – قال الحسن وعكرمة: حطة بمعنى حط ذنوبنا، أمروا أن يقولوا لا إله إلا الله ليحط بها ذنوبهم. القرطبي ج1/ 411.

2 – روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة يغفر لكم خطاياكم فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبة في شعرة. كتاب التفسير من صحيح مسلم (5330). وأخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه كتاب تفسير القرآن / باب وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية (4479).

الشمس، فشكوا من الظلمة في الليل فضرب الله أعمدة من نور في صحراء التيه كلا، كل هذا ببركة موسى الذي معهم. هذه فضائل الصحبة هم مع هلاكهم ومخالفتهم لأمر الله ووقوع العذاب عليهم كان من بينهم موسى وهارون وأعطوا هذا من أنواع النعم كلا بسبب موسى وهارون. وهارون وموسى من عباد الله الصالحين، ولكن لما صاحبا هؤلاء الفسقة مكثا معهم أربعين سنة في التيه أيضا ذاقا من العذاب بسبب الصحبة كما أن الفساق وجدوا النعمة بسبب الصحبة؛ الخير كله في الصحبة والشر كله في الصحبة. اللهم صل على سيدنا محمد وسلم.

الدرس الرابع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى﴾ اذكر يا محمد إذ استسقى، الاستسقاء طلب السقيا ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وقد عطشوا في التيه ﴿فَقُلْنَا﴾ لموسى ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وهو الذي فر بثوبه[1]، خفيف مربع[2] كرأس الرجْل[3]، رخام أو كذّان[4] فضربه ﴿فَانفَجَرَتْ﴾ انشقت وسالت ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ بعدد الأسباط ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ سبط منهم ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ موضع شربهم فلا يشركهم فيه غيرهم، وقلنا لهم

---

1 – قال سعيد ابن جبير هو الحجر الذي وضع عليه موسى ثوبه لما اغتسل وفر به حتى برأه الله مما رماه به قومه. القرطبي1/ 420.

2 – قال ابن عطية ولا خلاف أنه كان حجرا منفصلا مربعا تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى. القرطبي 1/ 420.

3 – انظر حاشية الصاوي على الجلالين ج2/ 459. ط/ دار الفكر 1988م.

4 – في حاشية العلامة الصاوي على الجلالين: قوله أو كذّان بفتح الكاف وتشديد الذال المعجمة الحجر اللين. ج1/69/ دار الفكر. وفي المنجد: الكذان حجارة رخوة نخرة.

﴿كُلُواْ﴾ من رزق الله، من مرزوق الله ﴿وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ عثا إذا أفسد، مفسدين حال مؤكدة لعاملها، أخبر تبارك وتعالى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما كان في التيه مع بني إسرائيل عطشوا وطلبوا منه الاستسقاء، وهذا الفرق بين بني إسرائيل وبين أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الأمم قبلنا ليس لهم أن يطلبوا شيئا من الله تبارك وتعالى، إذا أرادوا طلبا أي طلب يأتون لنبي ذلك الزمان وهو الذي يطلب من الله تبارك وتعالى مباشرة دل عليه استسقاء موسى لقومه ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا﴾ كل هذا ليس لهم أن يطلبوه مباشرة من الله تبارك وتعالى وهذه الأمة أعطاهم الله الإذن المطلق في الدعاء، قال "واسألوا الله من فضله" وقال "ادعوني أستجب لكم" أينا عرضت له مهمة أو حاجة يسأل الله تبارك وتعالى فيستجيب له. طلبوا السقيا من موسى عليه الصلاة والسلام - وكان موسى رجلا ستِّيرا ذا مروءة وحياء في قومه، وقومه يتجردون عند الاغتسال من المني، بعضهم يرى عورة بعض، وموسى منذ نشأ امتنع من ذلك، إذا أراد أن يغتسل ذهب بعيدا واستتر واغتسل وحده، فقالوا ما حمل موسى على هذا إلا أن فيه أُدرة[1]، فلما ذهب يوما واعتزل واغتسل وخرج من الماء، أراد أن ياخذ ثوبه ففر الحجر بالثوب، وصار يقول ثوبي حجر، ثوبي حجر[2]، معناه يا حجر

---

1 - في لسان العرب لابن منظور: الأدرة بالضم نفخة في الخصية يقال رجل آدر بين الأَدَر.

2 - أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه

ادفع لي ثوبي حتى جاء أمام الناس ورأوه ليس به أي سوء فأخذ ثوبه ولبسه، فغضب وأخذ عصاه وضرب الحجر، فأوحى الله إليه أنه يحمل هذا الحجر ولا يفارقه. لما كانوا في التيه طلبوا منه السقيا أوحى الله إليه أن يضرب بعصاه هذا الحجر فضربه وكان مربعا ذا أربعة أركان كل ركن خرج منه ثلاث عيون فصارت اثنتي عشرة عينا وكان بنو إسرائيل اثني عشر سبطا كما قال الله تبارك وتعالى، كل سبط انفرد بمشربه هذا معنى «قد علم كل أناس مشربهم» والرسول صلى الله عليه وسلم طلبوا منه السقيا، فرقى المنبر ورفع يديه فجعل ظهورهما نحو السماء وقال: (اللهم اسق بلادك وارحم عبادك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت)[1] قال الراوي والسماء كأنها زجاجة ما فيها قزعة واحدة، أتت سحابة حفت المدينة ونزل المطر من الجمعة إلى الجمعة التي تليها[2]. قوم موسى طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم السقيا فدعا

فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها".صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء /باب حديث الخضر مع موسى (3404) ولمسلم في كتاب الحيض/ باب جواز الاغتسال عريانا في الخلوة (513) وفي كتاب الفضائل /باب من فضائل موسى (4372).

1 - أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ج2 تحت رقم 6565 ونص الحديث: كان إذا استسقى قال: (اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت) أبو داود في كتاب الصلاة/ باب رفع اليدين في الاستسقاء (994) ولمالك في الموطأ كتاب الصلاة/ باب ما جاء في الاستسقاء (403)

2 - راجع حديث استسقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري: كتاب الجمعة/ باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة (933) وفي صحيح مسلم: كتاب صلاة الاستسقاء/ باب الدعاء في الاستسقاء (1493).

موسى بأمر من قومه فاستجاب الله دعاءه، فأحرى محمد صلى الله عليه وسلم دعا لنا بأمر من الله تبارك وتعالى "واستغفر لذنبك وللمومنين والمومنات" هذا أمر من الله أن النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر لنا، استغفر لنا بأمر من الله، وحيث أن موسى استجيب له بأمر من قومه فأن يستجاب لمحمد الذي دعا بأمر من الله تبارك وتعالى أقوى وأرجى، فلنا رجاء كبير بكون الله أمر نبيه أن يدعو الله لنا ويستغفر لنا. «كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ» أمرهم أن يأكلوا أكلا مطلقا وأن يشربوا شربا مطلقا وهذا يحملهم على الانبساط والتوسع المؤدي إلى الفساد فأردفه بقوله «وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ» كلوا واشربوا ولا تعثوا في الأرض مفسدين، مرة أخرى "كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين" كما أن موسى بني إسرائيل طلب لقومه وهم بنو إسرائيل السقيا فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عينا، كذلك موسى الروح في كل إنسان يطلب السقيا لقومه وهم الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة والنفس والقلب، اثنا عشر حسا، فلما ضرب حجر وجود العبد بعصا لا إله إلا الله انفجرت اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم: مشرب النفس العبادات والمجاهدات، ومشرب القلب الخوف والرجاء، ومشرب العقل القبض والبسط، ومشرب الروح مشاهدة الجمال والجلال، ومشرب السر الأنس والهيبة "فسقاهم ربهم شرابا طهورا" «كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ» بالرجوع إلى شهوات النفس ومخالفة الأمر.

موسى ضرب حجرا فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، ولكن أغرب منه ما أرانا النبي صلى الله عليه وسلم لأن انفجار الماء من الحجارة ربما شوهد في بعض الأماكن،

والنبي صلى الله عليه وسلم نبع الماء من بين أصابعه الشريفة[1]، وهذا ما شوهد قط. هذه سنة الاستسقاء بقيت اليوم للزرع أو للحيوان أو لشرب الناس، يخرج الإمام والمسلمون معه في حالة خشوع وتذلل ويؤدون صلاة الاستسقاء فإن الله يستجيب لهم.

طلب موسى السقيا لقومه، مكث مدة طويلة يصلي ويدعو فلم يستجب له، فقال يا رب إننا ندعوك ونحن أكثر من ثلاثة آلاف شخص من الصالحين لاحتياج خلقك ولم تستجب لنا، قال: لم أستجب لكم لأن فيكم نماما، من يسعى بالنميمة بين الناس، قال له: يا رب عرفني من هو؛ قال: إذا عرفتك إياه أكون كمثله، وأنا أنقم منه شيئا وأمارسه هذا لا يليق. بعد يوم أوحى الله إلى موسى أن ذلك النمام مات وجنازته عند باب المسجد، فسارع موسى ليدرك الجنازة ويعلم من هو فوجد سبعين جنازة[2]. سِتر الله تبارك وتعالى. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ كذلك بنو إسرائيل في التيه لما ملوا من الحياة قالوا إنهم ملوا من هذا الطعام الذي ينزل من السماء وهو نوع واحد هو المن والسلوى، كذبوا ما ملوا من الطعام إنما ملوا من الحياة فقط ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ شيئا ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ هذه الأنواع التي لا تخرج إلا من الأرض علموا أن هذا لا يمكن إلا إذا رجعوا إلى القرى والمدن وهذا مطلبهم حقيقة ﴿قَالَ﴾

---

1 – حديث نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم متفق عليه. أخرجه مسلم في باب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم من كتاب الفضائل (4225) وأخرجه البخاري في باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة من كتاب الوضوء عن أنس (169).

2 – ذكرها الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ج407/1 (دار الجيل): برواية عن كعب الأحبار مع اختلاف يسير في الروايتين.

لهم موسى ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ «أتستبدلون الذي هو أدنى» أخس «بالذي هو خير» أشرف أي تأخذونه بدله؟ قالوا لا نريد إلا هذا فقط، فدعا الله تبارك وتعالى فقال تعالى ﴿اهْبِطُواْ﴾ أي انزلوا ﴿مِصْراً﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ من النبات، فنزلوا بيت المقدس أو أريحا قرية قريبة من بيت المقدس وزرعوا فرزقهم الله هذه النباتات فصار معاشهم إلى يومنا هذا، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الذل والهوان ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أثر الفقر والسكون والخزي فهي لازمة لهم وإن كانوا أغنياء لزوم الدرهم المضروب للسكة، لا ترى يهوديا إلا وترى فيه آثار الفقر والذلة والمسكنة ولو كان غنيا ﴿وَبَاءُو﴾ رجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ﴾ الضرب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كزكريا ويحيى ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي ظلما، قتلوا الأنبياء ظلما، قتلُ الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق، قتلوا في يوم واحد سبعين نبيا فقام ثلاثمائة من الصالحين يزجرونهم عن هذا فقتلوهم أيضا[1] ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ يجاوزون الحد في المعاصي، هذا مما أخبر الله عن أسلافهم ، كانوا يزكون أسلافهم أنهم كانوا مستقيمين، وهذا القرآن يبين خبائث آبائهم. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالأنبياء ﴿وَالَّذِينَ هَادُواْ﴾ هم اليهود ﴿وَالنَّصَارَى﴾ هم النصارى ﴿وَالصَّابِينَ﴾ طائفة بين اليهود والنصارى[2] ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ منهم ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ في زمن نبينا ﴿وَعَمِلَ

---

1 - ورد في ابن كثير ج103/1: قال أبو داوود الطيالسي حدثنا شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود قال: كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار.

2 - قال السدي: هم فرقة من أهل الكتاب وقال مجاهد والحسن هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية. القرطبي 1/ 434.

صَالِحاً﴾ بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثواب عملهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وتمسك بشريعته فهو من المسلمين وهو من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لا فرق بين عنصر وعنصر سواء أصله نصراني أو يهودي أو صابي أو مجوسي إذا أقر بالشهادة وعمل بشريعة محمد فهو من عباد الله الصالحين. ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ اقتلعناه من أصله لما أبيتم قبولها وقلنا ﴿خُذُواْ مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ أي اعملوا بما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لما أتى موسى بالتوراة وفيها التكاليف الأمر والنهي والحلال والحرام امتنع بنو إسرائيل من العمل بالتوراة فأخذ جبريل جبلا قدر معسكرهم وكانوا ستمائة ألف، اقتلع جبلا على قدرهم ورفعه فوقهم وقال إنهم إن لم يعملوا بالتوراة كما أمر الله يسقط عليهم الجبل فيهلكون عن آخرهم[1] ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ فقبلوا كرها، والإنسان ما قبله كرها كلما أمكنه أن يمتنع عنه يرجع إلى الامتناع، قبلوا كرها فلذلك ارتدوا بعد ذلك ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بالتوبة ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الهالكين ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ عرفتم ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ هذا كلا خبائث آبائهم الذين قالوا إنهم كانوا صالحين؛ من آبائهم أيضا قوم أيلة قوم داود عليه السلام اعتدوا في السبت، تجاوزوا الحد بصيد السمك وقد نهيناهم عنه ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فأهلكهم الله وصيرهم كلا قردة وخنازير مبعدين فأهلكوا بعد ثلاثة أيام ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ تلك العقوبة ﴿نَكَالاً﴾ عبرة مانعة من ارتكاب مثل ما عملوا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ الأمم التي

---

1 – أوردها القرطبي 1/ 436.

في زمانها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ الأمم التي تأتي بعدها ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خصوا بالذكر لأنهم هم المنتفعون بها. هؤلاء قوم داود، الله تبارك وتعالى جعل لكل أمة يوما يكون يوم عيد في الأسبوع، أعطاهم يوم الجمعة، فاليهود قالوا إنهم اختاروا السبت لأنه آخر الأسبوع وهو اليوم الذي قالوا إن الله فرغ فيه من خلق العباد، والنصارى اختاروا يوم الأحد لأنه أول أيام الأسبوع فلذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أنتم الآخرون السابقون أعطوا يوم الجمعة، فأخطأوا الذي أعطاهم الله فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى[1] فالجمعة أفضل أيام الأسبوع، (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تزوج بحواء وفيه مات وفيه تقوم الساعة وفيه ساعة إجابة لا يوافقها عبد مسلم يصلي ويدعو إلا استجيب له)[2] وتلك الساعة هي آخر ساعة من الجمعة، قالوا كيف تكون آخر ساعة من يوم الجمعة والحديث يقول "يصلي فيه ويدعو"؟ الجواب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من توضأ وجلس ينتظر الصلاة فهو في الصلاة[3]. إذاً من تطهر آخر الجمعة

---

1 - الحديث (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم وهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فهم لنا فيه تبع، فاليهود غدا والنصارى بعد غد). صحيح مسلم: كتاب الجمعة/ باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (1412- 1414) صحيح البخاري: كتاب الجمعة/ باب فرض الجمعة (876).

2 - (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه قبض وفيه تقوم الساعة ما على وجه الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مصيخة حتى تطلع الشمس شفقا من الساعة إلا ابن آدم وفيه ساعة لا يصادفها عبد مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه). الجامع الصغير ج1/ 4096.

3 - جاء هذا الحديث في موطأ مالك: كتاب النداء للصلاة/ باب ما جاء في الساعة التي في يوم الجمعة (222). وورد في تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك للسيوطي ج132/1 دار الفكر. وأورده الإمام

وجلس يذكر الله تبارك وتعالى ينتظر المغرب هو الذي وافق عشية ذلك اليوم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا شيء مخصوص بالتجانيين الحمد لله. فلما شدد بنو إسرائيل على أنفسهم شدد الله عليهم، قال لهم لا تصيدوا السمك يوم السبت وعيشهم بالسمك، فكان إذا أتى يوم السبت اجتمعت الحيتان جميعا فوق الماء ودخلت القرية قيل لأنه ابتلاء من الله تبارك وتعالى، أو لأنها تزور الحوت الذي ابتلع يونس عليه الصلاة والسلام كان يسكن تلك القرية[1] "إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرعا ويوم لا يسبتون لا تاتيهم" فلما طال بهم الأمر أوحى الشيطان إلى واحد منهم إن الله لم ينهكم عن طلب السمك يوم السبت إنما نهاكم عن أخذه فقط، فحفر أحدهم حفرة في حديقته ولما جاء يوم السبت سال الماء وسار معه الحيتان ودخلوا في الحفرة، ولما رجع الماء بقي الحيتان فانتظر إلى يوم الأحد فصاد السمك وطبخ وأكل وباع ولم يصبه شيء، وفي السبت الثاني فعل ذلك حتى جمع كثيرا من الأموال بهذا، فتتابع الناس ففعلوا كمثل ما فعل فلم يصبهم شيء، فتجرأوا على الصيد فدخلوا البحر واصطادوا يوم السبت، فلما أرادوا أن يصطادوا افترقوا ثلاثة أقسام: فرقة امتنعت عن الصيد ولم تنه، وفرقة نهتهم عن الصيد، وفرقة اصطادت، أهلك الله الفرقة الذين اصطادوا كما سيأتي في الأعراف ونجّى الفرقة التي نهتهم عن الصيد، وسكت القرآن عن الفرقة الثالثة، قيل هلكوا مع الهالكين وقيل نجوا مع الناجين، ونفهم من القرآن أنهم هلكوا مع الهالكين لأنهم "كانوا لا يتناهون عن

الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ج1/ 247 ط/دار الجيل وزاد فيه: ...وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعي ذلك الوقت وتأمر خادمتها أن تنظر إلى الشمس فتوذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس وتخبر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتوثره عن أبيها صلى الله عليه وسلم وعليها.

1 – انظر تفسير روح البيان ج1/ 156.

منكر فعلوه لبيس ما كانوا يفعلون" بئس ما فعلوا قال الله لهم «كونوا قردة خاسئين»[1] هذا أمر من الله تبارك وتعالى أمر التحقير؛ فعل الأمر في القرآن يأتي على خمسة عشر معنى، هذا هو الأصول، ليس كل أمر للوجوب، أصل الأمر للوجوب ولكن الأمر في القرآن جاء على خمسة عشر معنى: أمر للوجوب وهو الأصل "أقيموا الصلاة" إقامة الصلاة واجبة، وأمر للندب "فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا" هذا مندوب، وأمر الإباحة "فاصطادوا" لا يوجب الصيد إنما هو مباح لنا فقط، وأمر الإرشاد كقولك لولدك الصغير كل مما يليك، هذا تأديب له، وأمر الإشهاد "وأشهدوا إذا تبايعتم" ليس واجبا إنما هو إشهاد فقط وأمر التحقير "كونوا قردة خاسئين" هذا جعلهم من جنس القردة، وأمر الإهانة "كونوا حجارة أو حديدا" معناه لا أبالي بكم، إهانة لهم، وأمر التسوية "اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم" سواء صبرهم وعدم صبرهم، وأمر الإنذار "كلوا وتمتعوا" وأمر التهديد "اعملوا ما شئتم" معناه ستهلكون، وأمر التمني قال الشاعر: [ألا أيها الليل الطويل ألا انجل][2] تمنّ فقط، وأمر الدعاء "رب اغفر لي" هذا طلب من الله تبارك وتعالى، وأمر الإكرام "ادخلوها بسلام آمنين" هذا أمر يتضمن إكراما، هذا يفهمك أن ليس كل ما أمر الله به أوجبه، فهو واجب ومندوب وإرشاد وتهديد وإباحة[3] ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً

---

1 - راجع قصة أصحاب السبت في كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس صفحة 160.

2 - هذا صدر بيت لامرئ القيس وعجزه .... بصبح وما الإصباح منك بأمثل] وهو من معلقته المشهورة: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

3 - ذكرها السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن وأضاف أنواعا أخرى من الأمر كأمر التعجيز نحو "قل فاتوا بسورة من مثله"، والعجب نحو "انظر كيف ضربوا لك الأمثال"، وأمر الاحتقار نحو " ألقوا ما

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ المفسرون يقدمون هذه الآية لموالاة خبائث بني إسرائيل، قتلوا واحدا منهم اسمه عاميل[1] كان رجلا غنيا عمر طويلا فاستعجل أبناء عمه أن يموت فيرثوه وتأخر موته فاستعجلوا وقتلوه، أخذوه ليلا وذهبوا به وذبحوه وألقوه بجانب حي وأصبحوا يطلبون أثره حتى أتوا للحي واهموهم أنهم هم الذين قتلوه فأنكروا، فأتوا لموسى عليه الصلاة والسلام وطلبوا منه أن يظهر لهم من قتل قتيلهم، قالوا: نطلب منك أن تدعو الله أن يظهر لنا قاتله قال لهم موسى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً» اقتلوا بقرة، قال الله ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ نطلب منك أن تظهر لنا قاتل قتيلنا وأنت تأمرنا بذبح البقر ﴿قَالَ أَعُوذُ﴾ أمتنع ﴿بِاللَّهِ﴾ من ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ المستهزئين، لا يستهزئ إلا جاهل وأنا أستعيذ بالله من الجهل. لما علموا أن هذا عزم من موسى كانوا لو أخذوا أي بقرة وذبحوها لوجدوا مرادهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ ما سنها ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُ﴾ الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ﴾ مسنة[2] ﴿وَلاَ بِكْرٌ﴾ صغيرة ﴿عَوَانٌ﴾ نُصُف ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي بين ذينك المذكورين ﴿فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ به من ذبحها، زادوا في التشديد ﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ شديدة الصفرة ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إليها بحسنها أي تعجبهم

أنتم ملقون"، وأمر التكذيب نحو "قل فاتوا بالتوراة فاتلوها"، وأمر المشورة نحو "فانظر ماذا ترى" والتعجب نحو "أسمع بهم وأبصر". ج3/ 242 ــ 243.

1 – انظر حاشية الصاوي على الجلالين ج1/ 74 – 77. (دار الفكر)

2 – قال نافع بن الأزرق لابن عباس: أخبرني عن قول الله تعالى "لا فارض" قال الهرمة، أما سمعت قول الشاعر: لعمري لقد أعطيت ضيفك فارضا   يساق إليه ما يقوم على رجل. الإتقان ج2/ 76.

﴿قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة أم عاملة ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ جنس البقر ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لكثرته فلم نهتد إلى المقصود ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إليها، في الحديث: (..لو لم يستثنوا لما بُينت لهم آخر الأبد)[1] لما قالوا إن شاء الله ببركة إن شاء الله إذاً أتى الجواب، يهتدون إلى المطلوب ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ﴾ غير مذللة بالعمل ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ تقلبها للزراعة ﴿وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ الأرض المهيأة للزراعة ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب وآثار العمل ﴿لاَشِيَةَ﴾ لا لون ﴿فِيهَا﴾ غير لونها المتقدم ﴿قَالُواْ الآنَ جِئْتَ﴾ نطقت ﴿بِالْحَقِّ﴾ الآن بينت لنا مرادك فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه[2]، فاشترَوها بملء مَسْكها ذهبا. كان واحد من الصالحين مات وترك ولدا طفلا وليس عنده إلا بقرة، فذهب إلى الغابة وقال: يا رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب أستودع عندك بقرتي هذه إذا كبر ولدي سلمها له، فنشأ الولد صالحا بارا بأمه إذا جاء النهار يحتطب وإذا أتى بالحطب باعه وقسم ثمنه ثلاثة أقسام: قسم يأكله هو وقسم يعطيه لأمه وقسم يتصدق به، وإذا جاء الليل قسمه ثلاثة أقسام: قسم ينام فيه وقسم يجلس عند أمه وقسم يتعبد فيه لله تبارك وتعالى حتى أشفقت عليه أمه قالت له اذهب إلى الغابة فإن والدك أودع لرب إبراهيم لك بقرة هنالك، إذا أتيت إلى الغابة قل يا رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب سلمني بقرتي، فلما أتى إلى الغابة قال هذا فجاءته البقرة وقالت له: اركبني قال: لا، أمي ما أمرتني بركوبك. قالت: لو ركبتني لعجزت عني فلا تقدر مني على شيء،

---

1 - جاء في تفسير ابن كثير في رواية عن ابن جريج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد). ج112/1.

2- انظره في الجلالين ص13/ دار الريان للتراث.

فأتى بالبقرة إلى أمه قالت له: اذهب إلى السوق وبعها بثلاثة دنانير هذه البقرة ثمنها ثلاثة دنانير لا يقل عن ذلك، ولكن لا تقطع شيئا إلا بعد مشورتي، فأتى للسوق فتعرض له رجل قال له: بكم تبيع هذه البقرة؟ قال: أبيعها بثلاثة دنانير على مشورة أمي، قال: أعطيك ستة دنانير ولا تشاور أمك، قال له: سأشاور أمي، فأتى إلى أمه قالت له: بعها بستة دنانير مع مشورتي فلما عاد قال له الرجل: أعطيك اثني عشر دينارا ولا تشاور أمك، قال: لا، حتى أشاور أمي فرجع إلى أمه قالت له: هذا ليس برجل هذا لعله ملَك، فإن رجعت إليه قل له: أمي تأمرني أن أشاورك هل أبيع هذه البقرة أم لا أبيعها؟ فشاوره قال له: لا تبع هذه البقرة، فامسكها عندك، فإن موسى سيرسل لك قوما فيشترونها ولا تبعها لهم إلا بملء جلدها من الذهب، فصاروا يطلبون البقرة التي وصف لهم موسى عليه الصلاة والسلام فلم يجدوا صفتها إلا في هذه البقرة فاشتروها بملء مسكها وهو جلدها ذهبا، فلما ذبحوا البقرة رجعوا إلى موسى وقالوا له: ذبحنا البقرة، قال خذوا لسانها أو عجب ذنبها واضربوا الميت به فقط فسيحيى، أخذوا لسان البقرة وضربوا به الرجل فقام وأوداجه تتدفق دما، قال فلان وفلان هؤلاء هما اللذان قتلاني ورجع ميتا فحرما الميراث. وهذا ما أقرته شريعتنا، من قتل موروثا حرم الميراث ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ لغلاء ثمنها ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ فضرب بلسانها أو عجب ذنبها فحيي وقال قتلني فلان وفلان ابني عمه ومات فحرما الميراث وقُتلا ﴿كَذَلِكَ﴾ الإحياء ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ الله الذي أحيى هذا الإنسان بعد ما قتل هكذا يحيي الموتى كلا، من قدر على إحياء واحد قادر على إحياء الجماعة ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ دلائل قدرته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون فتعلمون أن القادر على إحياء نفس واحدة قادر على إحياء نفوس كثيرة فتومنون

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أيها اليهود صلبت عن قبول الحق ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ المذكور من إحياء القتيل وما قبله من الآيات ﴿فَهِيَ﴾ القلوب ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ في القسوة ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ منها، فهذه القلوب قاسية كالحجارة أو أشد قسوة من الحجارة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قالوا: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: تلاوة القرآن وكثرة ذكر الله وذكر الموت)[1]، إذا قسا القلب ومات لكثرة الغفلة أو لكثرة الذنوب يحتاج الإنسان إلى إحيائه، فإذا ضربه بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله وتلاوة القرآن وخلاء البطن والمناجاة بالصلاة في الليل ربما تموت النفس فيحيى القلب "يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي" إذا حييت النفس مات القلب وإذا حيي القلب ماتت النفس، موت النفس تركها مراداتها ورجوعها إلى الحق، وحيث أن القلب شبهه القرآن بالحجارة فالإنسان يحتاج في كسر الحجارة إلى ضرب شديد وإلى قوة جماعة فلهذا فضّل الذكر جماعة عن الذكر فردا، لأن الجماعة إذا اجتمعوا على ضرب حجارة يكون أشد تأثيرا من ضرب فرد، فلهذا الذكر جهرا والذكر مع الجماعة له فائدته ونتيجته ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾ بيان أن بعض الحجارة ألين من القلوب، القلوب أشد قسوة من الحجارة إن من بعض الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزل من علو إلى أسفل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وقلوبكم لا تتأثر ولا تلين ولا تخشع ﴿وَمَا اللَّهُ

---

1 – روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء قيل وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن) الجامع الكبير ج282/1 للبيهقي في الشعب عن ابن عمر.

بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إنما يؤخركم لوقتكم ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُواْ﴾ اليهود ﴿لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ﴾ قال المفسر[1] في التوراة، ولكن لو كان في التوراة لا يحتاج لقوله ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فهموه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إنما هذا نزل في جماعة اختارهم موسى فذهبوا معه إلى الميقات وسمعوا المناجاة من الحق، سمعوا الحق يأمر موسى وينهاه، فحرفوا وبدلوا ما سمعوا وهم يعلمون أنهم مفترون[2] ﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾ منافقو اليهود ﴿الَّذِينَ ءامَنُواْ قَالُواْ ءامَنَّا﴾ بأن محمدا نبي وهو المبشر به في كتابنا ﴿وَإِذَا خَلاَ﴾ رجع ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُواْ﴾ أي رؤساؤهم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ المؤمنين ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ عرفكم في التوراة من نعت محمد ﴿لِيُحَاجُّوكُم﴾ ليخاصموكم ﴿بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ في الآخرة يقيموا عليكم الحجة ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أنهم يحاجونكم، قال تعالى ﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ما يخفون ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون من ذلك. ﴿وَمِنْهُمْ﴾ اليهود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ عوام ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ لا يعلمون التوراة ﴿إِلاَّ﴾ لكن ﴿أَمَانِيَّ﴾ أكاذيب ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ ظنا ولا علم عندهم ﴿فَوَيْلٌ﴾ شدة عذاب ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ مختلقا من عندهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة، وآية الرجم وكتبوها على خلاف ما أنزل ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المختلق ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرُّشا.

---

1 – يعني جلالَ الدين السيوطي في الجلالين.

2 – قال الربيع وابن إسحاق: المراد السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم. تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج2/2

﴿وَقَالُواْ﴾ لما وعدهم النبي النار ﴿لَن تَمَسَّنَا﴾ تصيبنا ﴿النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ قليلة أي أربعين، مدة عبادة آبائهم العجل ثم تزول ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتَّخَذتُّمْ﴾ ما اتخذتم ﴿عِندَ اللَّهِ عَهْداً﴾ ميثاقا منه بذلك ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ﴾ بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ بَلَى﴾ تمسكم النار وتخلدون فيها ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شركا ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ﴾ من كل جانب بأن مات مشركا ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قرن الجملة الأولى بالفاء لأن دخولهم النار تسببوا فيه فيجاء بفاء السببية، والجملة الأخيرة ليس فيها فاء لأن دخول الجنة لا يتسبب بعمل العبد (لن يدخِل أحدَكم عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته)[1] إذا مات الإنسان كافرا دخل النار وخلد فيها بسبب كفره وإذا آمن بالله وعمل صالحا دخل الجنة بفضل الله تبارك وتعالى، والخلود في الجنة والخلود في النار صحت فيهما الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والإنسان لم يعمل عملا يخلده في الجنة أو في النار، فالكافر ولو كثرت خطيئاته إن عذب على كل خطيئة مائة ألف سنة لا بد أن تتناهى سيئاته يوما مّا، والمسلم إذا جوزي بكل ذرة من أعماله مائة ألف عام في الجنة لا بد أن تنتهي أعماله. إذاً ما هو السبب في الخلود في الجنة أو في النار؟ نية العبد (نية المؤمن خير من عمله)[2] المؤمن ينوي أنه

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق/ باب القصد والمداومة على العمل (6464). وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب لن يَدخل أحدٌ الجنة بعمله (5043)

2 - أخرجه العسكري في الأمثال عن النواس بن سمعان رضي الله عنه بلفظ (نية المؤمن خير من عمله ونية الفاجر شر من عمله) الجامع الكبير للسيوطي ج1/ 858.

مؤمن وطائع ولو عمر أبدا لكان مؤمنا أبدا، بتلك النية دخل الجنة وسكن فيها أبدا. والكافر نيته أنه يبقى كافرا ولو عاش أبدا لعاش أبدا كافرا فلهذا دخل النار ومكث فيها أبدا، (إنما الأعمال بالنيات)[1] ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في التوراة وقلنا ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَ﴾ أحسنوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ برا ﴿وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ أوجبُ حقٍ على العبد أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا، وأكبر حق بعد حق الله تبارك وتعالى حق الوالدين، برورهما واجب، والعقوق من الكبائر وبعد ذلك اليتامى من مات أبوه وهو صغير يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة)[2] «والمساكين» من ليس عنده شيء «وقولوا للناس» جميعا «حُسنا» من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدق في شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ هذا ما عهد الله إلى بني إسرائيل فقبلتم ذلك ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عن الوفاء به ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ﴾ كآبائكم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وقلنا ﴿لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ تريقونها بقتل بعضكم بعضا ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قبلتم ذلك الميثاق ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بقتل بعضكم بعضا ﴿وَتُخْرِجُونَ

---

1 - بداية حديث طويل متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي/ باب بدء الوحي (1) وفي صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب قوله إنما الأعمال بالنية (3530) وهو الحديث الأول من الأربعين النووية.

2 - (أنا وكافل اليتيم كهاتين) أخرجه الشيخان صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب فضل من يعول يتيما (6005) وفي صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق/ باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (5296).

فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَّاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ تتعاونون على القتل بالإثم بالمعصية والظلم ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ﴾ إذا جاءكم أسارى من إخوانكم تفادونهم بالمال ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ هذه قصة تتعلق بالأوس والخزرج وبني قريظة وبني النضير، الأوس والخزرج هم الذين دخلوا في الإسلام عندما أتى النبي صلى الله عليه وسلم المدينة فصار النبي يطلق عليهم اسم الأنصار، كانت بينهم عداوة مدة مائة وعشرين سنة يتحاربون فيما بينهم، وبنو قريظة وبنو النضير قبيلتان من اليهود هاجروا من الشام لما قرأوا في التوراة أن النبي الذي يخرج في آخر الزمان مولده مكة ومهاجره يثرب، هاجروا إلى يثرب وسكنوا فيها، قالوا إنهم ينتظرون خروج النبي الذي يأتي في آخر الزمان، هذا سبب سكناهم المدينة، فلما أتوا لحق بنو قريظة بالأوس وبنو النضير بالخزرج كلهم تحالف مع قبيلة فصاروا إذا تقاتل الأوس والخزرج خرج بنو قريظة مع الأوس وبنو النضير مع الخزرج فيتحاربون، وبنو قريظة وبنو النضير ممنوعون من القتال بينهم في التوراة هم مؤمنون بالكتاب والكتاب نهاهم عن قتل بعضهم بعضا وإخراج بعضهم بعضا. ولما لحقوا بهؤلاء المشركين صاروا يتحاربون معهم ويحاربون إخوانهم ويقتلونهم، فإذا قيل لهم أتقاتلون إخوانكم؟ قالوا إن تركنا القتال ذل حلفاؤنا وإذا أخذ أسير من ذلك الجانب جمع هؤلاء مالا وفدوه وردوه[1]، قالوا تقاتلونهم وإذا أتى أساراهم تفادونهم قالوا أمرنا بهذا في التوراة فلهذا وبّختهم الآية ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وهو الفداء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو ترك القتل والإخراج ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ﴾ هوان وذل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وعدهم الله بالخزي وقد وقع لهم

---

1 – انظر القصة في حاشية الصاوي على الجلالين ج87/1 دار الفكر

الخزي بقتل بني قريظة ونفي بني النضير إلى الشام وضرب الجزية إلى يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ﴾ بأن آثروها عليها ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أتبعناهم رسولا في إثر رسول ﴿وءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل حيث سار يسير معه فلم تستقيموا ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمْ﴾ من الحق ﴿اِسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن اتباعه ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ فكذبتم فريقا منهم كعيسى ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وتقتلون فريقا بالمضارع، قتلتم زكرياء ويحيى، هذا القتل لشناعته باق إلى الأبد كأنه جديد دائما أو هم يقتلون الأنبياء دائما حتى نبينا عليه الصلاة والسلام سحروه فما أثر فيه وسمموا له شاة لما أتى لخيبر صنعوا له طعاما وجعلوا فيه السم، قال: (أنشدكم بالله هل تصْدقوني؟ قالوا نعم، قال: هل جعلتم السم في هذا اللحم؟ قالوا: نعم، قال: ولِمَ؟ قالوا: إذا كنت نبيا حقا لا يضرك وإن كنت كاذبا استرحنا منك[1]، ذلك السم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخر عمره: مازال السم الذي أكلت بخيبر يعاودني والآن أوان قطع أبهري[2] قطع حبل قلبه

---

1 – جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه: كتاب الجزية/ باب "إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم" (3169).

2 – جاء في الجامع الصغير ج2/ رقم 7915 بلفظ: (ما زالت أكلة خيبر تعتادني كل عام حتى كان هذا أوان قطع أبهري) وكذلك أخرجه أحمد في مسنده: كتاب مسند الأنصار/ باب حديث امرأة كعب بن مالك (22807) وأبو داود في صحيحه: كتاب الديات/ باب في من سقى رجلا سما أو أطعمه فمات أيقاد منه (3913).

ليرزق الشهادة صلى الله عليه وسلم ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي مغطاة بأغشية فلا تعي ما تقول ﴿بَل﴾ للإضراب ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أبعدهم عن رحمته وخذلهم عن القبول ﴿بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ إيمانهم قليل جدا ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة وهو القرآن ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنكرون ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان، هذا دعاؤهم قبل إتيان النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ من الحق وهو بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿كَفَرُواْ بِهِ﴾ حسدا وخوفا على الرئاسة ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ﴾ باعوا ﴿بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَّكْفُرُواْ﴾ كفرهم ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن ﴿بَغْيًا﴾ حسدا ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَّشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو﴾ رجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ من الله بكفرهم ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ استحقوه قبل بتضييع التوراة والكفر بعيسى ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ القرآن ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي التوراة قال تعالى ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ والحال أنهم يكفرون ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي بما سواه وهو القرآن ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ قتلتم ﴿أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِنْ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم صادقين في أنكم آمنتم بالتوراة، التوراة نهت عن قتل الأنبياء وقد قتلتم الأنبياء، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ كالعصا واليد وفلق البحر تسع آيات ﴿ثُمَّ اتَّخَذتُّمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾ إلها ﴿وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ باتخاذه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ لما كلفوا العمل بالتوراة امتنعوا أيضا ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا ﴿خُذُواْ مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاسْمَعُواْ﴾ ما تؤمرون به سماع قبول

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي خالط حبه قلوبهم كما يخالط الشراب ﴿بِكُفْرِهِمْ قُلْ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا﴾ شيئا ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦ إِيمَانُكُمْ﴾ بالتوراة إن كان الإيمان بالتوراة هذا مقتضاه عندكم فبيس الإيمان إيمانكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كما زعمتم ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ﴾ الجنة ﴿عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ خاصة ﴿مِن دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم ﴿فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قالوا إنهم أبناء الله وأحباؤه والجنة مخصوصة لهم، تمنوا الموت إذاً ولن يتمنوا الموت ﴿وَلَنْ يَّتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من كفرهم بالنبي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ والله لتجدنهم ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ تجد حرص اليهود على الحياة وعلى الدنيا أشد من حرص المشركين ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ تعميره ألف سنة ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي أحدهم ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ مبعده ﴿مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُّعَمَّرَ﴾ وهذا التعمير لا يبعده من النار ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ سبب نزول هذه الآية أن عبد الله بن صوريا ركب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو كان رئيس قومه في اليهودية فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أسئلة قال له: أسألك أسئلة إذا أجبتني عنها أومن بك، كيف نومك؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم تنام عيناي ولا ينام قلبي[1]، قال صدقت هكذا قرأنا في التوراة، قال له: لِم يكون الولد تارة يشبه آباءه وأعمامه ليس فيه أدنى شبه بأمهاته وأخواله؟ قال له الرسول صلى الله عليه وسلم أيهما علا ماؤه يكون الشبه له، إذا وقع الجماع الذي أنزل أولا يخلق

---

1 – "تنام عيناي ولا ينام قلبي" أخرجه أحمد في مسنده: كتاب مسند الأنصار /باب حديث السيدة عائشة (22944).

بمائه باطن الولد والذي علا ماؤه يخلق بمائه ظاهر الولد، فيصير الشبه للذي علا ماؤه، قال له صدقت، قال له: أخبرني عما حرم إسرائيل على نفسه، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: لحوم الإبل وألبانها وذلك أنه مرض مرضا شديدا فنذر إن شفاه الله من ذلك المرض ليترك أحب الطعام إليه وهو لحم الإبل وأحب الشراب إليه وهو ألبان الإبل، قال له: صدقت، أخبرني ما نُزُل أهل الجنة أول ضيافتهم على الله تبارك وتعالى؟ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: كبد الحوت، قال له: صدقت، الآن بقي سؤال واحد أخبرني عمن يأتيك بالوحي من الملائكة، قال له الرسول: ذلك جبريل، قال: آه أفسدت الكلام، جبريل؟ هذا عدو لنا، لو كان ميكائيل الذي يأتي بالرزق لآمنا بك ولكن جبريل الذي يأتي بالشدائد والهلاك وخراب الديار هذا لا. قال له عمر بن الخطاب: ما نسبة جبريل من الله تبارك وتعالى؟ قال له: جبريل على يمينه تبارك وتعالى وميكائيل على يساره، قال عمر - وهذا من موافقات عمر - إن كان الأمر هكذا وكنتم عدوا لجبريل لابد أن تكونوا عدوا لميكائيل أيضا ولله تبارك وتعالى. قال: لا نحن أحباء ميكائيل وأعداء جبريل. قال تعالى: «قل من كان عدوا لجبريل» فليمت غيظا ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ أي القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾ عداوته لجبريل أكسبته عداوته لله تبارك وتعالى ﴿وَمَلاَئِكَتِهِ﴾ جميعا ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الأنبياء ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ الذي قالوا إنه صديقهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ نزلت ردا على ابن صوريا قال يوما للنبي صلى الله عليه وسلم: ما جئتنا بشيء، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْدًا﴾

على الإيمان بالنبي ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بنقضه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ التوراة ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ما فيها من أنه نبي حقا ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ﴾ ما تلت ﴿الشَّيَاطِينُ عَلَى﴾ عهد ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ من السحر وكانت دفنته الشياطين تحت كرسيه لما نزع ملكه وكانت تسترق السمع وتضم إليه أكاذيب وتلقيه إلى الكهنة فيدونونه وفشا ذلك وشاع أن الجن تعلم الغيب، فجمع سليمان الكتب ودفنها فلما مات دلت الشياطين عليها الناس فاستخرجوها فوجدوا فيها السحر فقالوا: إنما ملككم بهذا فتعلموه ورفضوا كتب أنبيائهم، قال تعالى تبرئة لسليمان وردا على اليهود في قولهم انظروا إلى محمد يذكر سليمان في الأنبياء وما كان إلا ساحرا، قال تعالى ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ أي لم يعمل السحر ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ﴾ يعلمونهم ﴿مَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ أُلهماه من السحر ﴿بِبَابِلَ﴾ بلد في سواد العراق[1] ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ الملكان هما هاروت وماروت كانا من صالحي الملائكة ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ أنزلهما الله بلاء يعلمان الناس السحر ويعلمانهم أن السحر كفر ﴿فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ هذا التعليم لأن تعليم الشر واجب حتى تقدر على اجتنابه، لو قرأت في القرآن أن شرب الخمر حرام والزنا حرام ولم تعلم الكيفية ولم تعلم أن في الإنسان جارحة لها شهوة لهذا العمل فتجتنبه، لا تقدر على الاجتناب، فإذا تعليم السحر كان لاجْتنابه فقط ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِۦ﴾ أي بالسحر ﴿مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾

---

1 – ذكره السيوطي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ج101/1. ط/ دار الفكر

في الآخرة ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآَخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ اليهود ﴿ءامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ﴾ امتثلوا أمر الله لأثيبوا ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا يقولون للرسول راعنا فظن الصحابة أنه من الرعاية فصاروا يقولون راعنا أيضا أمر من الرعاية وهو سب عندهم من الرعونة[1] ﴿وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

1 – انظره في تفسير الجلالين عند تفسير الآية.

الدرس الخامس

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ سبب نزول هذه الآية أن اليهود والمشركين طعنوا في نسخ بعض الآيات من القرآن، قالوا: لو كان كلام الله لم ينسخ، إذ لا يجوز النسخ في كلام الله تبارك وتعالى، وهذا لفرط جهلهم، والنسخ وقع في القرآن نقلا بنص القرآن ويقبله العقل والنسخ جاء على ثلاثة أوجه: آية نسخت تلاوتها وحكمها كقوله: "عشر رضعات معلومات قد يحرمن"[1]، هذه كانت آية تتلى وحكمها جار فنسخت تلاوتها ونسخ حكمها؛ وآية نسخت تلاوتها وبقي حكمها كقوله: "الشيخ والشيخة إن زنيا فارجموهما البتة" هذه كانت آية تتلى رفعت تلاوتها وحكمها جار؛ وآية رفع حكمها وبقيت تلاوتها[2] "كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين" هذه

---

1 – جاء في صحيح مسلم عن عائشة أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن. صحيح مسلم: كتاب الرضاع/ باب التحريم بخمس رضعات (2634).

2 – راجع هذه الأوجه مفصلة في حاشية الصاوي على الجلالين ج1/ 105. ط/ دار الفكر

آية تتلى إلى الآن وحكمها منسوخ، نسخت بآية الميراث، وبين صلى الله عليه وسلم نسخها بقوله: (لا وصية لوارث)[1] ليست الآية منسوخة بالحديث ولكن الحديث بين أن هذه الآية منسوخة، فإن الآية بينت أن ما نسخ الله يأتي بخير منه، وكلام المخلوق لا يكون أفضل من كلام الخالق أبدا إلا أن الوحي قسمان: شيء يتلى وشيء ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم فيبينه لنا وعلى كل حال النسخ واقع في القرآن نقلا[2]، وأما عقلا فإن الله تبارك وتعالى هو الفاعل المختار المتصرف

---

1 - (لا وصية لوارث) طرف حديث أخرجه أبو داود في سننه كتاب الوصايا/ باب ما جاء في الوصية للوارث (2486). وأخرجه أحمد في مسنده: كتاب مسند الشاميين/ باب حديث عمرو بن خارجة (17007) وفي سنن النسائي والترمذي وابن ماجه وقد ترجم به البخاري في كتاب الوصايا فقال باب لا وصية لوارث، قال ابن حجر: هذه الترجمة لفظ حديث مرفوع كأنه لم يثبت على شرط البخاري.

2 - أنواعه في القرآن كثيرة عد منها المحاسبي في كتابه "العقل وفهم القرآن" ص 256 ــ 257 خمسة عشر نوعا نذكر منها:

-/ ما رفع رسمه من الكتاب ولم يرفع حفظه من القلوب فأثبت حكمه بسنة النبي صلى الله عليه وسلم كآية الرجم وغيرها.

-/ ما رفع حكمه من الآية بآية أخرى وبقي رسمه ثابتا في كتاب الله عز وجل "إن يكن منكم عشرون صابرون الآية".

-/ أن يرفع رسمه من الكتاب و يرفع حفظه من القلوب وحكمه كقوله صلى الله عليه وسلم عن سورة: إنها نسخت البارحة.

-/ أن يرفع رسمه من الكتاب ويبقى حفظه في القلوب ويرفع حكمه كرواية عائشة "لا يحرم إلا عشر رضعات"

-/ أن يرفع الرسم ويرفع الحكم لعلة فانقضت تلك العلة "فإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار...الآية.

-/ أن يفعل النبي صلى الله عليه وسلم أو يأمر أمته بفعل ليس بنص كتاب الله عز وجل فينسخه الله بحكم أنزله الله في كتابه كنسخ الصلاة إلى بيت المقدس ونهيه عن الاستغفار لعمه.

في الوجود كيف شاء يجري حكما زمنا وإن شاء أنهاه ويأتي بحكم جديد لا اعتراض عليه في هذا فنزلت هذه الآية. ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾[1] نُزِلْ حكمَها إما مع لفظها أو حكمها فقط ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ نؤخر تلاوتها ولا نُزل حكمها وتلاوتها مرفوعة ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ بأنفع للعباد منها في السهولة أو كثرة الأجر ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ في التكليف والثواب والحجة البالغة ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه النسخ والتبديل، الاستفهام للتقرير، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هو المالك المتصرف كيف شاء إن أقروا بأنه هو الواحد القهار الفاعل ما يشاء لا يعترضون عليه في نسخ بعض الأحكام ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يمنع عذابه عنكم إن أتاكم، الله تبارك

-/ أن يختلفوا في الآيتين ناسخة إحداهما الأخرى أم غير ناسخة، وإن أجمعوا أن يستعملوا التي اختلفوا فيها منسوخة أم لا على التجوز والاحتياط لا على القطع كقوله "وأن تجمعوا بين الأختين" ثم قال عز وجل "إلا ما ملكت أيمانكم" أحلته آية وحرمته أخرى.

-/أن يختلفوا في الآيتين أناسخة إحداهما أم لا، ويجمعوا على إثبات حكمها في معنيين مختلفين من ذلك قوله "ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها" لا تخافت عن أصحابك فلا يستطيعون أن يأخذوا عنك ولا تجهر حتى لا يسب المشركون القرآن.

1 - قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما "ما ننسخ من آية" ما نبدل من آية، وقال ابن جريج عن مجاهد "ما ننسخ من آية" أي ما نمح من آية، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد "ما ننسخ من آية" قال نثبت خطها ونبدل حكمها، حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم. وقال ابن أبي حاتم: يعني قبضها رفعها مثل قوله "الشيخ والشيخة إن زنيا فارجموهما البتة" وقوله: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا". ابن كثير ج1/ 150.

وتعالى بين في الآية الأخيرة فيما قرأنا أمس[1] حكم السحر، وحكم السحر أنه حرام، كبيرة وكفر ولا يتماشى مع الإيمان أبدا، ولا يمارسه إلا كافر، والدليل على أن السحر كفر نفي الله تبارك وتعالى السحر عن سليمان قال "وما كفر سليمان" يعني ما سحر، فعلى هذا السحر كفر والملائكة الذين أنزلهم الله جاءوا لتعليم السحر، لتعليم أنه شر حتى يجتنبوه، والمفسرون يأتون بقصة لهذين الملكين هاروت وماروت والقصة **لا أصل لها** قررها كثير من المفسرين ولكن أخذوها من الإسرائيليات فقط، ويكذبها القرآن. **القصة:** قالوا إن الملائكة عيروا بني آدم بكثرة ذنوبهم، فقال الله تبارك وتعالى إني خلقتهم وركبت فيهم شهوة تقتضي منهم هذه المعاصي ولو ركبت فيكم هذه الشهوة لوقع منكم مثل ما وقع منهم، قالوا لا يتأتى منا أننا نعصيك أبدا. هذا الجواب لا يمكن أن يجيب به ملك أبدا، فقال الله تبارك وتعالى: اختاروا من صلحائكم فاختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة فركب الله فيهما شهوة الطعام والشراب والجماع وأنزلهما إلى الأرض وأمرهما أن لا يشركا بالله شيئا ولا يقتلا نفسا ولا يزنيا ولا يحكما إلا بما أنزل الله ولا يشربا الخمر، فنزلا فصارا يحكمان بين الناس بالحق، فإذا جاء الليل ذكرا الاسم ورجعا إلى الملإ الأعلى، وإذا أصبح الصبح يرجعان أيضا وإذا جاء الليل قرآ الاسم الذي علمهما الله فيصعدان إلى السماء، حتى تنازعت امرأة مع بعلها ومثلا بين أيديهما فلما نظر أحد الملكين إليها أخذت بمجامع قلبه والتفت إلى صاحبه وقال له: وقع لك مثل ما وقع لي؟ قال له: نعم، ما الرأي؟ قال: نحاولها فقط، قال: ألم تعلم أن

1 – في نهاية الدرس الرابع، والآية هي قوله تعالى: "واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر".

الله شديد العقاب؟ قال: هو غفور رحيم؛ فراودا المرأة فامتنعت إلا أن يحكما لها على بعلها، فحكما لها حينا أن الحق معها، فقالت لا بد أن تشربا من الخمر فشربا، كلما أرادت معصية قال أحدهما: الله شديد العقاب، قال الآخر: هو غفور رحيم، قالت المرأة إنه لا يكفيها أن يحكما لها عليه بل يقتلانه فقتلاه، فحاولاها أيضا، فقالت لا بد أن تسجدا للصنم فسجدا له، وقع منهما كل ما نهيا عنه فلما جاء الليل قالت المرأة لا بد أن تعلماني الاسم الأعظم الذي تصعدان به إلى السماء فعلماها فذكرت الاسم وطارت إلى السماء ومسخت فهي نجم الزهرة إلى يومنا هذا ــ هكذا يقولون ــ وهما لما جاء الليل عجزا عن الطيران والصعود إلى السماء فذهبا إلى إدريس نبي ذلك الزمان فأوحى الله إليه أنهما يختاران بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا لزواله وألقيا في بئر فهما يعذبان في تلك البئر إلى يومنا هذا. هذه قصة هاروت وماروت **وهي كذب** لا أصل لها.

وذكر الحسد[1] والحسد من الكبائر قال صلى الله عليه وسلم: (إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)[2] لأن الحاسد يبغض نعمة الله تبارك وتعالى

---

1 – في نهاية الدرس الرابع: "فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ" من الحق وهو بعثة النبي صلى الله عليه وسلم "كَفَرُواْ بِهِ" حسدا وخوفا على الرئاسة "فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا" باعوا "بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُواْ" كفرهم "بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ" من القرآن "بَغْيًا" حسدا "أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ". وكذلك في مضمون الآية: "ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم".

2 – عن أبي هريرة: "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب". الجامع الصغير ج1/ حديث رقم2908. وفي سنن أبي داود كتاب الأدب/ باب في الحسد (4257) ولابن ماجه في كتاب الزهد/ باب الحسد (4200).

وينسب الجور إلى الخالق ويعادي ولي الله ويسعى في تعجيز قدرة الله والحيلولة دون طاعة العباد له، الحسود لا يسود، الإنسان جبل على كراهية التبعية، لا تجد أي إنسان يحب أن يكون تابعا لمثله إلا لموجب وذلك الموجب إذا زال زالت التبعية، حتى خالقنا أجرى علينا من المنافع والخيرات ما يقتضي منا أن نكون طائعين له، ومن أراد زوال هذه الخيرات فإنما أراد أن يرفع وجود طاعته تبارك وتعالى. والحاسد لا يضر إلا نفسه؛ لا تجد ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد، كلما فعل شيئا لمحسوده رجع ضرره عليه، فيزداد غيظا ويزيد ويرجع إليه، تجده مغضبا دائما لفعل نفسه، مثاله مثال من أخذ حجرا وأراد أن يرمي به يد إنسان ليكسرها فرجعت الرمية فكسرت يده هو، ورمى بحجر آخر فرجع إلى يده الأخرى، ورمى بحجر ثالث فقلع عينه ورمى برابع فقلع عينه الأخرى هكذا فعل الحاسد.

كان ملك من الملوك يأتيه عالم وهو مقبول عنده يعظمه دائما، كلما جلس يقول له: أحسن إلى كل من أحسن إليك والمسيء تكفيه إساءته، فحسده رجل بجواره لمقامه عند هذا الملك، فسعى إلى الملك وقال له: فلان هذا أنت تقربه وهو يتكلم فيك، يقول إنك أبخر، قال له: كيف أعلم أنه يقول في هذا؟ قال إذا رجع إليك تأمل عمله فستجد أنه يقول إنك أبخر؛ فخرج ودعا الرجل إلى بيته وأطعمه الكراث والبصل والثوم، هذه الأطعمة التي لها روائح كريهة، وبعد ذلك قال له: اذهب إلى الملك يدعوك، فأتى وقال له: أحسن إلى كل من أحسن إليك والمسيء تكفيه إساءته، قال له: ادن مني، يريد أن يناجيه، فضم ثوبه إلى فمه، فصدَّق ما قيل له فيه، فغضب الملك حتى كتب بيده وكان لا يكتب إلا لجائزة، كتب بيده إلى عامل له: إذا أتاك حامل رسالتي فاذبحه واسلخه واملأ جلده تبنا وأرسله إلي حينا، فلما كتبه وختمه دفعه للعالم، فعرض له الحاسد قال له هب لي هذه الرسالة،

وتوسل بكل وسيلة حتى وهب له الرسالة، فذهب إلى العامل ودفعها له فقرأ العامل الرسالة وقال: الملك أمرني أن أذبحك وأملأ جلدك تبنا وأرسله إليه. قال: لا لست أنا هو صاحب الكتاب، راجع الملك لست أنا صاحب الكتاب، قال له: أنا لا أراجع أمر الملك، أنفذ أمره ولا أراجعه، فذبحه وسلخه وملأ جلده تبنا وأرسله إلى الملك، فلما رآه الملك وعلم أنه الحاسد أرسل إلى العالم فدخل العالم وقال: أحسن إلى كل من أحسن إليك والمسيء تكفيه إساءته، قال له: قل لي ما قصتك؟ ألم تقل إني أبخر؟ قال أعوذ بالله، أقول في الملك ما لا أعلم؟ قال له أنت لما أدنيتك من نفسي غطيت فمك؟ قال له إن فلانا ذلك أطعمني طعاما له رائحة، فكرهت أن يشم الملك في رائحة كريهة، قال له الملك: أحسن إلى كل من أحسن إليك والمسيء تكفيه إساءته[1].

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ «أم» بل تريدون أن تسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ سبب نزول هذه الآية أن أهل مكة اجتمعوا وأتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا له: إذا أحببت أن نؤمن بك فوسع لنا أراضي مكة، انقل هذه الجبال حتى نجد أرضا نزرع فيها وتجعل لنا الصفا ذهبا وتبعث لنا قصيا بن كلاب جدنا نشاوره على الإيمان بك، وتأتينا بالملائكة فيشهدون لك أنك نبي. ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ قوم موسى قالوا: أرنا الله جهرة ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ يأخذه بدله وذلك بترك النظر في الآيات البينات واقتراح غيرها. من نظر إلى الآيات البينات وصار يقترح غيرها فهو مخذول ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ هذا ضال، طلب الآيات

---

1 – أورد الحكاية الإمام إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان ج200/1.

لا يجدي شيئا، من أراد الله به الإيمان ير الآية قبل أن يطلبها، ومن رأى هذه الآيات المتكررة ومع ذلك يطلب الآيات فهو محكوم عليه بالشقاوة فقط والخذلان.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾ كان عمار وبلال إذا رجعا من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مرا بكنيسة وصارا ينصتان للمواعظ يجدان فيها بعض أحاديث تؤيدهما على الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم والقرآن فلما رأى اليهود أنهما يستمعان إليهم طمعوا في ارتدادهما فصاروا يدعونهما إلى دينهم ويحملونهما على الردة، قال لهم عمار: كيف نقض العهد عندكم؟ قالوا: هكذا كمثل القتل، قال نحن عاهدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أن نتابعه مدة أعمارنا فلا ننقض عهده أبدا فنزلت هذه الآية ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾ حملتهم أنفسهم الخبيثة على الحسد ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ في التوراة ﴿الْحَقُّ﴾ في شأن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿فَاعْفُواْ﴾ عنهم أي اتركوهم ﴿وَاصْفَحُواْ﴾ أعرضوا فلا تجازوهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ فيهم من القتال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا منسوخ بآية السيف ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتُواْ الزَّكَاةَ﴾ كلما أوجب الصلاة ذكر الزكاة لأن الصلاة أكبر عبادات البدن والزكاة أكبر عبادات المال ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ طاعة كصلة وصدقة ﴿تَجِدُوهُ﴾ تجدوا ثوابه ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به.

ركب عمر بن الخطاب في زمنه إلى البقيع فسلم على أهل البقيع وقال: خبر ما طرأ بعدكم أموالكم قسمت ودوركم سكنت ونساؤكم تزوجن، هذا ما طرأ بعدكم،

فسمع صوتا: ولكن ما قدّمنا وجدناه وما تركنا عدمناه[1]. هذا مصداق قوله "وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله" ﴿وَقَالُواْ﴾ اليهود ﴿لَنْ يَّدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً﴾ جمع هائد من كان يهوديا فقط هو الذي يدخل الجنة هذا قاله اليهود ﴿أَوْ نَصَارَى﴾ وقال نصارى نجران إن الجنة لن يدخلها إلا من كان نصرانيا، هذا كلامهم لما تناظروا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، أقسم اليهود لن يدخلها إلا اليهود وأقسم النصارى لن يدخلها إلا النصارى قال تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ القولة ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ شهواتهم الباطلة ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ﴾ حجتكم على ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلَى﴾ يدخل الجنة غيركم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ انقاد لأمره خص الوجه لأنه أشرف الأعضاء فغيره أولى ﴿وَهْوَ مُحْسِنٌ﴾ موحّد ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ ثواب عمله الجنة ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والإسلام والإيمان والإحسان هو دين المصطفى صلى الله عليه وسلم. جاء رجل إلى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ليس عليه أثر السفر شديد بياض الثياب فجلس بين يديه صلى الله عليه وسلم حتى مست ركبتاه ركبتي المصطفى صلى الله عليه وسلم قال: أخبرني عن الإسلام، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (شهادة أن لا إلـــه إلا الله وأني رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلا) قال: صدقت فأخبرني عن الإيمان قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه

---

1 - جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مر ببقيع الغرقد فقال: السلام عليكم أهل القبور أخبار ما عندنا أن نساءكم قد تزوجن، ودوركم قد سكنت، وأموالكم قد قسمت. فأجابه هاتف: يا ابن الخطاب أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه، وما أنفقناه فقد ربحناه، وما خلفناه فقد خسرناه. القرطبي ج2/ 73.

ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال صدقت قال: فعجبنا منه يسأله ويصدقه، قال فأخبرني عن الإحسان قال: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قال: صدقت ومتى تقوم الساعة؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن أخبرك عن أشراطها أي علاماتها: إذا ولدت الأمة ربتها إذا كثر السراري حتى أن الأمة تلد سيدتها، الأمة إذا ولدت من سيدها يكون ولدها سيدها ومعتقها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، فانصرف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أدركوه، فطلبوه فلم يجدوا له أثرا. قال لهم صلى الله عليه وسلم: تعلمون من السائل؟ قالوا: لا، قال: ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1]. من دخل في الإسلام بأن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن في هذا اليوم

---

1 - الحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا" قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتومن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرني عن الساعة قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (9). (الحديث الثاني من الأربعين النووية).

ورسله وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال صدقت قال: فعجبنا منه يسأله ويصدقه، قال فأخبرني عن الإحسان قال: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قال: صدقت ومتى تقوم الساعة؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن أخبرك عن أشراطها أي علاماها: إذا ولدت الأمة ربتها إذا كثر السراري حتى أن الأمة تلد سيدها، الأمة إذا ولدت من سيدها يكون ولدها سيدها ومعتقها وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، فانصرف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أدركوه، فطلبوه فلم يجدوا له أثرا. قال لهم صلى الله عليه وسلم: تعلمون من السائل؟ قالوا: لا، قال: ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[1]. من دخل في الإسلام بأن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن في هذا اليوم

---

1 - الحديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا" قال: صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتومن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال فأخبرني عن الساعة قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال فأخبرني عن أماراها، قال: أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم. صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (9). (الحديث الثاني من الأربعين النووية).

ياتيك دحية الكلبي مسلما وكان دحية فعل أفعالا قبيحة والصحابة يكرهونه. فلما حان وقت دخوله والنبي صلى الله عليه وسلم في ملإ من أصحابه طلع دحية، فكره المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يواجهوه بما لا يليق فيصد خاطره عن الإسلام ولا يحب أن يأمرهم بشيء، فلما دخل دحية أخذ صلى الله عليه وسلم رداءه ونشره وقال لدحية: اجلس هنا، فأتى وطوى الرداء فقبله وجعله على قلبه وقال: ما أكرم هذه الأخلاق، فجلس قال: علمني الإسلام، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: قل أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فنطق بالشهادتين وصار يبكي بكاء شديدا، قال له المصطفى صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك بعدما كنت كافرا وهداك الله للإسلام؟ قال أنا فعلت شيئا في الجاهلية ما أظن أن الله يغفره لي، سأله المصطفى فأجاب قال له: أنا كنت من العرب الذين يكرهون البنات ورزقني الله سبعين بنتا وقتلتهن عن آخرهن أخشى أن الله تبارك وتعالى ما يغفر لي هذه الخطيئة، فتوقف النبي صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل فقال له: أخبره أن الله غفر له ذنوب ستين سنة وكفر ستين سنة، كيف لا يغفر له قتل بناته؟ هذه الكلمة تجب ما قبلها. من كان كافرا مدة مئات السنين أو آلاف السنين إذا قال هذه الكلمة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، قال الصحابة: هذا لدحية خاصة أم لنا عامة؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: بل لكم عامة، ففرحوا بذلك. قال النبي صلى الله عليه وسلم: يا رب إنك غفرت لدحية الكلبي كفر ستين سنة وذنوب ستين سنة بكلمة واحدة فكيف أمتي الذين يرددونها ليلا ونهارا وهم مصدقون كيف لا تغفر لهم؟[1]

---

1 – راجع إسلام دحية الكلبي في الصفحة 183 من الجزء الأول من تفسير روح البيان.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ معتد به وكفرت بعيسى ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ معتد به وكفرت بموسى ﴿وَهُمْ﴾ الفريقان ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الكتب المنزلة، اليهود امتنعوا من التصديق بعيسى وهم قرأوا التوراة وفيها التصديق بعيسى والنصارى كذلك ﴿كَذَلِكَ﴾ كما قال هؤلاء ﴿قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ المشركون من العرب وغيرهم ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ قالوا لكل ذي دين ليسوا على شيء ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُّذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ نزلت لما صدوا النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن البيت أو نزلت في الروم الذين خربوا بيت المقدس أو في المشركين أو فيهم جميعا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُّذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بالصلاة والتسبيح ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ بالهدم أو التعطيل، ويدخل في هذا كل من منع مسجدا من المساجد أي متعبّد أو ذاكر لله تبارك وتعالى ﴿أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَّدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ أي أخيفوهم بالجهاد ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوان بالقتل والسبي والجزية ﴿وَلَهُمْ فِي الآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو النار ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ سبب نزول هذه الآية طعن اليهود في نسخ القبلة؛ كان الرسول صلى الله عليه وسلم له قبلة وهي القبلة الحقيقية إلى كل جهة، يصلي إلى كل جهة "فأينما تولوا فثم وجه الله" وبعد ذلك أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فنسخت وأمر بالصلاة إلى الكعبة فطعن اليهود في تحويل القبلة فنزلت هذه الآية «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» يعني الجهات كلا لله تبارك وتعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ﴾ وجوهكم في الصلاة بأمره ﴿فَثَمَّ﴾ هناك ﴿وَجْهُ اللَّهِ﴾ قبلته التي رضيها ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ يسع فضله كل شيء ﴿عَلِيمٌ﴾ حيث أن قبلة النصارى المشرق

فقط "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً" لما كان مولد عيسى مكانا شرقيا قدسوا الشرق وقالوا لا تصح الصلاة إلا إلى الشرق، واليهود قبلتهم المغرب "وما كنت بجانب الغربي" لأن مناجاة موسى وقعت في جهة المغرب فاختاروا المغرب قبلة والمسلمون قبلوا أمر الله تبارك وتعالى من غير ميل إلى أي شيء يريدونه لأنفسهم فصادفت قبلتهم أنها قبلة إبراهيم – وهم على دين إبراهيم – ومولد محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الذي حاول الفريقان حصل للمسلمين من غير قصد، ومقصدهم امتثال أمر الله فقط. «فأينما تولوا فثم وجه الله» قبلته، هذا تأويل المؤولين[1]، أو فأينما تولوا فثم وجه الله: جهته، ذاته، الذات ليس لها جهة ولا مكان فأينما توجه العبد فهو مستقبل فلهذا الذي يقتضيه كمال المعرفة من العبد أن يصلي إلى أي جهة شاء، أما كوننا نصلي إلى جهة واحدة فذلك أدب وامتثال لأمر الله تبارك وتعالى وتأديب للنفس كي تالف إفراد الوجهة، إذا كان العبد كلما أراد التعبد أو الدعاء أو الذكر استقبل جهة واحدة هذا أحسن فإفراد وجهة العبد ظاهرا يؤثر في الباطن حتى يرزقه الله إفراد الوجهة باطنا، والقبلة الحقيقية هي الذات العلية، المطلوب من العبد أن يكون قلبه متوجها إلى هذه القبلة الحقيقية دائما وسرمدا، وتكرار استقبال القبلة ربما يؤدب باطن العبد حتى يصل إلى استقبال القبلة الحقيقية، لولا ذلك لشق على العارف أن يصلي إلى جهة معلومة

---

1 – جاء في سنن ابن ماجه عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فتغيمت السماء وأشكلت علينا القبلة فصلينا وأعلمنا فلما طلعت الشمس إذا نحن قد صلينا لغير القبلة فذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله "فأينما تولوا فثم وجه الله" سنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها/ باب من يصلي لغير القبلة وهو لا يعلم (1010)، وأخرجه الترمذي في سننه: كتاب الصلاة/ باب ما جاء في الرجل يصلي لغير القبلة في الغيم (315).

فالجهات كلها واحدة. كان ملك استضاف بعض العلماء فتعشوا عنده فسأل سؤالا قال: ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوني على يونس بن متى)[1] والنبي صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين؟ قالوا هذا السؤال لا يجيب عنه إلا عالم واحد، فأتوا به فكرر السؤال فقال: هنا فقير مدين يطالب بألف دينار وليست عنده، لا أجيبك عن هذا السؤال إلا إذا قضيت دين هذا المسكين، فقضى دين المسكين في الحين، قال له معنى (لا تفضلوني على يونس بن متى) هو أن الله ليس له مكان ولا جهة والرسول صلى الله عليه وسلم عرج إلى السماء وتجاوز السماوات والعرش والكرسي وكان قريبا من الله تبارك وتعالى بحيث يقول (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[2] ويونس غرق في البحر فابتلعه حوت وابتلعه حوت آخر في قعر البحر في جوف الحوت والحوت في جوف حوت آخر، ليس محمد أقرب إلى الله من يونس الذي في قعر البحر وهو فوق الطبقات. هذا معنى (لا تفضلوني على يونس بن متى)[3] «إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» والإنسان خليفة الله تبارك وتعالى في أرضه فذات الإنسان خليفة عن ذات الله تبارك وتعالى، وصفات الإنسان خليفة عن صفات الله تبارك وتعالى: القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام كل إنسان نال قسطا من هذه الصفات وهي حقيقة لله وحده وأفعال الإنسان خليفة عن أفعال الله تبارك وتعالى

---

1 - (لا تفضلوني على يونس بن متى) أورده في الشفا بتعريف حقوق المصطفى القاضي عياض ج1/ 132.

2 - قوله صلى الله عليه وسلم (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) طرف من حديث أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة/ باب ما يقال في الركوع والسجود (751)

3 - انظر القصة في روح البيان ج1/211.

فكل إنسان خليفة عن الله في جزء من العالم قل أو كثر؛ كلنا رب لشيء إلا أن الرب لا يطلق على غير الله إلا إذا أضيف إلى شيء: رب الدار، أُضيفَ، رب الثوب، رب الكتاب، الله هو الرب حقيقة، ولما لم يكن للروح مكان ولا جهة أصبح خليفة عن الله تعالى، فالله ليس له مكان ولا جهة والروح في الإنسان كذلك ليس له أين ولا كيف فلهذا لا يكون خليفة عن الله إلا الإنسان ﴿وَقَالُواْ﴾ اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ قال تعالى ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيها له عنه ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا، والملكية تنافي الولادة، الإنسان لا يمكن أن يملك ولده حتى في الشريعة من ملك ولده عتق عليه، ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون[1] كل بما يراد منه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ موجدهما لا على مثال سبق ﴿وَإِذَا قَضَى﴾ أراد ﴿أَمْراً﴾ إيجاده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فهو يكون هذا أمر إظهار القدرة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ كفار مكة للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ بأنك رسوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ﴾ مما اقترحناه ﴿كَذَلِكَ﴾ كما قال هؤلاء ﴿قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ من التعنت وطلب الآيات ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والعناد. هذا فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون أنها آيات فيومنون، فاقتراح آية معها تعنت ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالهدى ﴿بَشِيراً﴾ من أجاب إليه بالجنة

---

1 – سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قول الله تعالى: "كل له قانتون" قال مُقِرُّون، قال وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: أما سمعت قول عدي بن زيد: قانتا لله يرجو عفوه   يوم لا يُكفر عبد ما ادخر. الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج126/1.

﴿وَنَذِيراً﴾ من لم يجب إليه بالنار ﴿وَلاَ تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ أهل النار الكفار ما لهم لم يومنوا إنما عليك البلاغ فقط ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ اليهود والنصارى لا يرضون عن المصطفى ولا عن المسلمين حتى يتابعوهم في دينهم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ﴾ هو الإسلام ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وما عداه ضلال ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها فرضا ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوحي من الله ﴿مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحفظك ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يمنعك ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ يقرأونه كما أنزل ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أولئك يومنون بالقرآن ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ بالكتاب المؤتى بأن يحرفه ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تقدم مثله، دعا الحق بني إسرائيل وذكرهم بالنعم التي أنعم على آبائهم وذكرهم بالفضل الذي أعطى لآبائهم ليتذكروا ليشكروا تلك النعمة حتى يومنوا ويستقيموا. الفرق بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم "خير أمة أخرجت للناس" وبني إسرائيل، هو أن بني إسرائيل ذكّرهم الله فضله فتكبروا وغضبوا فهلكوا لما رأوا فضلهم، وأمة محمد "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا"، نحن إذا تذكرنا فضل الله تبارك وتعالى قوي رجاؤنا فيه، وهم إذا تذكروا فضلهم تكبروا يقع لهم مثل ما وقع لإبليس ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي﴾ تغني ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فداء ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وهو يوم القيامة، خوفوا من ذلك اليوم فإن الإنسان إذا عرض له بلاء في الدنيا ربما يقوم إنسان بجاهه فينجيه من ذلك البلاء وإذا لم يجد هذا فربما يعطي مالا فيسلم من ذلك البلاء، وإن لم يجد هذين ربما قام

فيه الكبراء وشفعوا فيه فنفعته الشفاعة، وإذا لم يجد هذا كلا لم يبق له إلا القتال يجد أنصارا من عشيرته وأحبابه ينصرونه على القتال، والله نفى هذه الوجوه كلا يوم القيامة «لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون» لم يجدوا من يشفع فيهم حتى تقبل شفاعتهم، هم ليس لهم شافع "فما لنا من شافعين" بخلاف المسلمين. ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذِ ابْتَلَى﴾ اختبر ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ إبراهيم اسم عجمي في لغة عبران معناه أب رحيم[1]، ابتلاه ﴿رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ بأوامر ونواهي كلفه بها، قيل هي مناسك الحج و قيل المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وفرق الرأس كان في دينه وقلم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والاستنجاء والختان، وهو أول من اختتن وكان ابن ثمانين سنة بالقدوم، وقيل ثلاثون خصلة عشرة في سورة براءة "التائبون العابدون الحامدون" وعشرة في سورة المؤمنون "قد أفلح المؤمنون إلى أولئك هم الوارثون" وعشرة في سورة الأحزاب "إن المسلمين والمسلمات" تلك الخصال الثلاثون هي التي ابتلى بها إبراهيمَ ربُّه[2] ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أداهن تامات ﴿قَالَ﴾ تعالى له ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ قدوة في الدين كل أهل الأديان يقولون إنهم على دين إبراهيم ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ اجعل

---

1 – قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: وإبراهيم تفسيره بالسريانية فيما ذكره الماوردي والعربية فيما ذكره ابن عطية أب رحيم. قال السهيلي وكثيرا ما يقع الاتفاق بين السُّريانِ والعَرَبِ أو يقاربه في اللفظ ألا ترى أن إبراهيم تفسيره أب راحم لرحمته بالأطفال ولذلك جعل هو وسارة زوجته كافلين لأطفال المومنين الذين يموتون صغارا إلى يوم القيامة. قال القرطبي قلت: ومما يدل على هذا ما خرجه البخاري من حديث الرؤيا الطويل عن سمرة وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في الروضة إبراهيم عليه السلام وحوله أولاد الناس. القرطبي ج2/ 96.

2 – راجع تفسير الجلالين وحاشية الصاوي عليه ج1/ 119 ط/ دار الفكر

أولادي أيضا أئمة في الدين ﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ﴾ بالإمامة ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، إبراهيم ما عرف أن من ذريته كفارا إلا لما أتى هذا الجواب ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعا يثوبون إليه أي يترددون إليه من كل جانب ﴿وَأَمْناً﴾ أي مأمنا لهم من الظلم والغارات الواقعة في غيره، كان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه ﴿وَاتَّخِذُواْ﴾ أيها الناس ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت ﴿مُصَلًّى﴾ مكان صلاة بأن تصلوا خلف المقام ركعتي الطواف[1] ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أمرناهما ﴿أَنْ﴾ بأنْ ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ من الأوثان ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ المقيمين فيه ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جمع راكع وساجد أي المصلين ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ هذا المكان ﴿بَلَداً ءَامِناً﴾ إذ ذاك فلاة، هنا دعا والمكان قفر، فلهذا قال بلدا. وفي سورة إبراهيم قال "رب اجعل هذا البلد آمنا" لأن الدعاء في سورة إبراهيم وقع ومكة قرية عامرة وقد أجاب الله دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه[2] أي لا يقطع حشيشه ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وقد فعل بنقل الطائف من الشام إليه وكان أقفر لا زرع فيه ولا ماء ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم

---

1 - أخرج الترمذي في سننه عن جابر قال لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة دخل المسجد فاستلم الحجر ثم مضى على يمينه فرمل ثلاثا ومشى أربعا ثم أتى المقام فقال: "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" فصلى ركعتين والمقام بينه وبين البيت ثم أتى الحجر بعد الركعتين فاستلمه ثم خرج إلى الصفا أظنه قال: "إن الصفا والمروة من شعائر الله". سنن الترمذي: كتاب الحج/ باب ما جاء كيف الطواف (784).

2 - ورد في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حديث بذلك راجع صحيح البخاري كتاب البيوع/ باب ما قيل في الصواغ (2090). وصحيح مسلم كتاب الحج/ باب تحريم مكة وصيدها (2412).

بِاللَّهِ﴾ طلب الإمامة لذريته فمنعوا، مُنع الظالمون من الإمامة فلهذا في طلب الرزق قال «من آمن منهم بالله» ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَ﴾ أرزقُ ﴿مَن كَفَرَ﴾ أيضا ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ أعطيه متاعا ﴿قَلِيلاً﴾ مدة حياته ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ ألجئه في الآخرة ﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ فلا يجد عنها محيصا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ الأسس والجدر ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ يبنيه ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ يبني معه يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ بناءنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ منقادين ﴿لَكَ وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ أولادنا ﴿أُمَّةً﴾ جماعة ﴿مُسْلِمَةً لَّكَ﴾ علم أن بعض ذريته من الظالمين فلهذا طلب منه أن تكون منهم أمة مسلمة ﴿وَأَرِنَا﴾ علمنا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شرائع ديننا أو حجنا ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ بيت الله تبارك وتعالى جعله الله مثابة للناس وأمنا. هو الكعبة التي بمكة أو ببكة، بكة لغة في مكة أو الموضع الذي عليه الكعبة فقط هو بكة. والكعبة بنيت عشر مرات: البناء الأول بناها الملائكة، والثاني بناها آدم، وبناها شئث بن آدم جد الرسول صلى الله عليه وسلم، وبناها إبراهيم رابعا بعد الطوفان وبناؤه هو الذي جاءت فيه الآية، وبعد إبراهيم بناها العمالقة، وبنتها جرهم، وبناها قصي بن كلاب، وبنتها قريش، وبناها عبد الله بن الزبير، وبناها الحجاج، بناء الحجاج هو القائم الآن[1]. الملائكة اغتابوا آدم وبعد ذلك طلبوا التوبة من الله تبارك وتعالى وعندهم البيت المعمور هو الكعبة في السماء يطوفون به دائما فأمرهم الله أن يبنوا لآدم مثل هذا البيت فبنوا

---

1 – بناء البيت عشرا ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ج124/1 دار الفكر ونظمه بعضهم فقال:

بنى بيت رب العرش عشر فخذهمُ ملائكة الله الكرام وآدم

فشئث فإبراهيم ثم عمالق قصي قريش قبل هذين جرهم

وعبد الإله بن الزبير بنى كذا بناء لحجاج وهذا متمم

الكعبة في مقابلة البيت المعمور لو وقع البيت المعمور على الأرض لوقع على نفس الكعبة، فكان آدم يحج البيت، حج أربعين مرة من الهند إلى مكة[1]، قالوا للرسول: ما كان يركب؟ قال: أي دابة تحمل آدم؟ لا تقدر أي دابة أن تحمل آدم حتى الفيل، كان يمشي على قدميه من أرض الهند إلى مكة حج أربعين مرة، فلما جاء طوفان نوح رفع الملائكة الكعبة إلى السماء فأخذوا الحجر الأسود وجعلوه وديعة في جبل أبي قبيس بجوار الكعبة[2]، ولما تقادم الزمان جاء زمن إبراهيم، كان إبراهيم في سواد العراق من نواحي الكوفة فهاجر إلى فلسطين جزء من الشام وكان في طريق هجرته مكاس لا يأتيه إنسان عنده امرأة جميلة إلا انتزعها منه، ومع إبراهيم زوجته سارة أجمل نساء العالم، حسن يوسف إنما هو لشبهه بسارة فقط؛ فلما قرب من المكاس، وكان في قانونهم أن من أتى بامرأة جميلة وقال إنها زوجته انتزعت منه لا تليق الزوجة الجميلة إلا للملك فقط، وإن قال إنها أخته تركت له، فلما قرب من الديوان قال إبراهيم لسارة ليس على وجه هذه الأرض مسلم إلا أنا وأنت، فأنت إذا أختي ومع ذلك هي بنت عمه. إذا سألوني سوف أقول إنك أختي، هذه إحدى كذباته التي يعتذر بها يوم القيامة أنه كذب. إبراهيم غيور جدا صنع صندوقا وجعل المرأة داخل الصندوق وقفل عليها، فلما أتى لصاحب المكس قال له ماذا في الصندوق؟ قال له: قدِّر ما شئت فقط من المال أعطيك ديوانته. إذا قلت إن

---

1 - ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ج1/ 123.

2 - قال القرطبي في تفسيره عن ابن عباس: صاح أبو قبيس — وهو الجبل المشرف على مكة — قال: يا إبراهيم يا خليل الرحمن إن لك عندي وديعة فخذها فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنة كان آدم قد نزل به من الجنة. القرطبي ج2/ 122.

الصندوق ممتلئ ذهبا أعطيك ربعه ذهبا، هذا هو المكس عندهم ربع المال، قال الرجل لا، حتى أفتح الصندوق فقط ففتحه ووجد أجمل نساء العالمين في الصندوق، قال: ما هذه منك؟ قال: هي أختي، فأخذها وذهب بها إلى الملك، خالف القانون لشدة جمال المرأة وإبراهيم غيور كما قلنا، فكشف الله تبارك وتعالى عنه الحجب فلم تغب عنه سارة منذ أدخلوها القصر وفي البيوت، فكان إبراهيم يشاهدها في كل أحوالها، عصمها الجليل من أن يشك فيها. فلما حضرت بين يدي الملك مد يده إليها فصرع في الحين فنوى التوبة وعاد إليه عقله فمد يده إليها أيضا فصرع أشد من الأولى فلما أفاق قال لها: أنت ساحرة؟ قالت: لا أنا زوجة الخليل والجليل يمنعني، قال: مثلوا بها، فجعلوا ثقبة في أذنها وجعلوا فيها شيئا فصار أحسن شيء حتى فعلته النساء كلا إلى يومنا هذا، فأتحفها أمة هي هاجر وردها إلى زوجها، فقالت لإبراهيم: أبشرْ فإن الله كف العدو ورزقني وليدة تخدمني[1]، يا إبراهيم أنا

---

1 - جاء في صحيح مسلم: عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله قوله "إني سقيم" وقوله "بل فعله كبيرهم هذا" وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس، فقال لها إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له لقد قدم أرضك امرأة لاينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها فأوتي بها فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعى الله أن يطلق يدي ولا أضرك، ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعى الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك، ففعلت وأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان و لم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر. قال فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها: مهْيَم، قالت: خيرا كف الله يد الفاجر وأخدم

عاقر ما ولدت منك، وإني أهدي لك هذه الجارية تتخذها سرية ليرزقك الله منها ذرية فتسرى بها فولدت إسماعيل. والغيرة قد تؤدي إلى الحمل، فلما ولدت الجارية حملت سارة فولدت إسحاق، فكان إسماعيل وهو أكبر من إسحاق إذا خرجا إلى اللعب يضرب إسماعيل إسحاق فيبكي ويأتي إلى أمه فغضبت سارة من ذلك، قالت: هذه جارية كنت أملكها والآن ولدها كل يوم يضرب ولدي هذا لا صبر لي عليه، أخرجْ هذه الجارية من هنا لا أجاورها أبدا. ركب إبراهيم عليه السلام وأردف هاجر وإسماعيل وسار بهم من الشام إلى أرض الكعبة وهي قفار في ذلك الوقت فلما جاء تركهما هنالك بسقاء من الماء وجراب فيه تمر وذهب عنهما، صارت المرأة تناديه يا إبراهيم يا إبراهيم وإبراهيم يمشي فقط حتى قالت أخيرا: آالله أمرك بهذا يا إبراهيم؟ قال: نعم، قالت إذاً اذهب حيث شئت إن كان أمر الله فلا يضيعنا. فلما مكثا أياما نفد ما عندهما من الماء وعطش إسماعيل حتى كاد يموت فخرجت هاجر إلى أن وصلت إلى جبل الصفا وطلعت عليه تنظر هل ترى ماء أو بشرا ما رأت شيئا، فذهبت إلى المروة ثم رجعت إلى الصفا وذهبت إلى المروة سبع مرات، هذا أصل السعي[1] بين الجبلين فرجعت إلى الولد تنتظر الموت فقط فأتى

خادما. قال أبو هريرة فتلك أمكم يا بني ماء السماء. (مَهْيَمْ: ما شأنك وما خبرك؟) صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب في فضائل إبراهيم الخليل (4371)، وفي صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى "واتخذ الله إبراهيم خليلا" (3358).

1 – قال ابن عباس في حديثه فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فلذلك سعيُ الناس بينهما. مسند أحمد: من مسند بني هاشم (3080).

جبريل فركض بقدمه فنبعت بئر زمزم فسال الماء حتى صار بحرا، فصار جبريل يكف الماء ويقول زم، زم، معناه اسكن حتى رجع بئرا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا معينا[1]، فزمزم هذا قعره لا يعرفه إلا الله تبارك وتعالى داخله بحر ماؤه تحت مكة كلا، فشربت المرأة وشرب الولد[2]. وكان صيادون يسكنون في الفلوات ولا يرون فيها آثار الماء، فنظروا إلى طائر يحوم حول هذه المرأة قالوا: سبحان الله هذه الطيور لا ترى إلا في محل فيه ماء وأين يوجد الماء في هذه القفار؟ فأتوا فوجدوا بئر زمزم وهاجر وإسماعيل قالوا لها: نشرب من مائكم؟ قالت: نعم ولكن لا حق لكم فيه، فشربوا، بعد ذلك طلبوا مجاورتها فجاوروها وهم جرهم عرب، فنشأ إسماعيل عربيا. فلما مضى زمن استأذن إبراهيم سارة أن يزور هاجر وإسماعيل ولده، قالت نعم بشرط أن لا تنزل عن الجمل، فأتى إبراهيم ووجد إسماعيل غائبا ووجد امرأة في البيت فقال: السلام عليكم أين بعلك؟ قالت: لا أدري أين ذهب؟ قال: أنتم بخير؟ قالت: لا لسنا في خير ... قال: هل عندكم عيش؟ قالت: ما عندنا شيء، ذهب بعلي يتصيد فإن وجد شيئا وإلا فنحن بشر حالة وما أكثر سؤالك. قال: إذا أتى بعلك سلمي مني عليه وقولي له يغير عتبة باب بيته. فلما رجع حدثته: جاء هنا رجل

---

1 – عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا). صحيح البخاري كتاب المساقاة/ باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه (2368) وفي رواية أخرى: (يرحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت لكانت زمزم عينا معينا) صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا (3363).

2 – وردت هذه القصة مفصلة في تفسير ابن كثير ج1/ 177.

سألني عن أشياء كثيرة وقال إني أقول لك أنك تغير عتبة الباب، قال: ذلك أبي إبراهيم قال إني أطلقك وأنت طالق. فلما مكث زمانا استأذن سارة أيضا في الزيارة وكانت هاجر توفيت، قالت له بشرط أن لا تنزل عن الجمل، فأتى أيضا ووجد إسماعيل خارجا إلى الصيد فلما رأته المرأة الثانية قالت: أهذا بعلي؟ ما أحسن هذا الرجل ما أشبهه ببعلي، والله ما يميز بينهما إلا الشيب فقط، انزل انزلْ، قال: لا أنزل ولكن كيف أنتم؟ قالت: نحن بخير ما نحتاج لشيء وزوجي سوف يأتي الآن، انتظر، انزل حتى أغسل قدميك، قال إبراهيم: لا أنزل، فأتت بحجر من حجر المقام وجعلته تحت قدم إبراهيم وغسلت قدمه اليمنى ثم غسلت الأخرى أيضا فلهذا بقي أثر قدم إبراهيم على الحجر إلى يومنا هذا. فلما أتى إسماعيل قال: أنا أشم رائحة إبراهيم في البيت، قالت: جاء هنا رجل لا فرق بينك وبينه إلا الشيب فقط، سلم عليك وقال إنك تثبت عتبة الباب، قال: ذلك إبراهيم أمرني أن أمسكك ولا أطلقك. ورجع إبراهيم بأمر من الله تبارك وتعالى وقال: يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني له بيتا هنا وأمرك أن تعينني، قال: نعم أعينك، فشرعا في بناء البيت[1]، إبراهيم

---

1 – في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله قال فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما فني الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا، قال: فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة، ففعلت ذلك أشواطا ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل تعني الصبي، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل فإذا

يتكلم بالعبرانية وإسماعيل يتكلم بالعربية ولكنْ كلاهما يفهم عن الآخر ولا يتكلم بلغة الآخر، إذا نطق إسماعيل سمع إبراهيم ولا يتكلم، وإذا تكلم إبراهيم سمع إسماعيل ولا يتكلم، فبنيا الكعبة وهي هذه الكعبة الموجودة الآن في مكة لها فضائل كثيرة تاتي في سورة آل عمران "فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا"، (من حج و لم يرفث و لم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[1].

هي بصوت فقالت: أغث إن كان عندك خير فإذا جبريل قال: فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض قال فانبثق الماء فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفز قال فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم لو تركته كان الماء ظاهرا قال فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها؛ قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذاك وقالوا ما يكون الطير إلا على ماء، فبعثوا رسولهم فنظر فإذا هم بالماء، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا: يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك؟ فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله إني مطلع تركتي قال فجاء فسلم فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولي له إذا جاء غير عتبة بابك، فلما جاء أخبرته قال: أنت ذاك فاذهبي إلى أهلك، قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله إني مطلع تركتي قال فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد فقالت: ألا تنزل فتطعم وتشرب، فقال: وما طعامكم وما شرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء، قال: اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم. قال فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: بركة بدعوة إبراهيم صلى الله عليهما وسلم. قال ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله: إني مطلع تركتي، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له فقال يا إسماعيل إن ربك أمرني أن أبني له بيتا، قال: أطع ربك قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه، قال: إذن أفعل أو كما قال، قال فقاما فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم قال حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا (3365).

1 - أخرجه البخاري في كتاب الحج/ باب فضل الحج المبرور (1521) (من حج لله فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه). وأخرجه مسلم في كتاب الحج/ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (2404).

تهيأ رجل من الصالحين إلى حج بيت الله الحرام وعنده ولد صغير قال له: إلى أين يا أبت؟ قال: أذهب إلى بيت الله. قال له: بيت الله موجود؟ قال: نعم. قال: لا بد أن تحملني معك. فصار يبكي أشد بكاء أنه لابد أن يذهب إلى بيت الله يظن أن الأمر كحالة الناس، لج في البكاء حتى قال الناس: احمله معك فحمله معه حتى صار قريبا من البيت، فلما قال هذا بيت الله مات الصبي[1]، فشكا الصالح موت ولده: ولدي وثمرة قلبي، قيل له: أنت كنت تريد البيت ووصلت إلى البيت وهو كان يريد رب البيت لقي رب البيت وما أطاقه ومات. لما سمع بيت الله فقط يظن أن الله موجود هنالك فاشتاق إليه فلما وصل حقق الله رجاءه ووصل إلى الحضرة وهو ضعيف ومات المسكين. هذا هو الحج الحقيقي، من يحج الكعبة الحقيقية التي هي حضرة الله تبارك وتعالى، ولهذا قالت رابعة مخاطبة الجنيد: يا جنيد تطوف بالبيت أم برب البيت؟ الجنيد فقيه كامل، قال لها: أنا أطوف بالبيت. قالت: أف لكم تأتون بيت الله بقلوب قاسية، أما إذا كان طوافكم بالبيت فقط فليس إلا حجارة وحشيشا، أما أنا فأطوف برب البيت.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أهل البيت ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ من أنفسهم وقد أجاب الله دعاء إبراهيم بمحمد صلى الله عليه وسلم فلهذا قال صلى الله عليه وسلم: (أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى)[2] "ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد" تلك البشارة

---

1 – انظر قصة الصبي في تفسير روح البيان ج6/ 28 – ج1/ 229.

2 – أخرج أحمد في مسنده عن أبي أمامة أنه قال يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي أنها يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام. مسند أحمد: مسند الأنصار/باب حديث أبي أمامة الباهلي (21231).

هي محمد صلى الله عليه وسلم ودعوة إبراهيم "وابعث فيهم رسولا منهم" وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ القرآن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحكمة حيث أطلقت في القرآن فالمراد علم القرآن ومواعظ القرآن وأحكام القرآن، فلهذا تعلم عظمة ما أعطى الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، الله ذكر في القرآن أن الدنيا متاع قليل وهذا القليل الذي ذكر لنا ما نقدر أن ندرك نهايته، الدنيا وما فيها عجزنا أن ندرك منتهاها وهي قليل. والعلم قال "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" وهذا العلم الذي قال أيضا إنه قليل ما نقدر أن ندرك نهايته، فكيف بالذي قال إنه كثير، قال: "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا" القليل ما عرفنا نهايته وهو أعطانا كثيرا بعد ذلك "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا". ورد أن العلماء إذا حشروا يوم القيامة يخاطبهم الرب كما ورد: وضعت نوري فيكم، وما وضعته فيكم وأعذبكم بعد ذلك سيروا أنتم كلكم مغفور لكم[1]. ﴿وَمَنْ يَّرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ لا يرغب عن ملة إبراهيم ويتركها ﴿إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ جهل أمر نفسه أنها مخلوقة لله يجب عليها عبادته، واستخف بها وامتهنها ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ إبراهيم اخترناه في الدنيا بالرسالة والخلة ﴿وَإِنَّهُ﴾ إبراهيم ﴿فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العلى واذكر ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ انقد لله

---

1 – قال صلى الله عليه وسلم: (يبعث الله تعالى العباد يوم القيامة ثم يتميز العلماء فيقول: يا معشر العلماء إني لم أضع فيكم علمي وأنا أريد أن أعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم). الطبراني عن أبي موسى الجامع الكبير ج1/988. وورد في مسند واثلة في الجامع الكبير للسيوطي (مخطوط) ج2/ 619. بلفظ: (إذا كان يوم القيامة يجمع الله العلماء فيقول إني لم أستودع قلوبكم الحكمة وأنا أريد أن أعذبكم ثم يدخلهم الجنة). عن ابن أبي يعلى وابن عساكر في تاريخه

وأخلص له دينك ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لما قال الله لإبراهيم أسلم، لم يقل: أسلم لمن؟ قال: «أسلمت لرب العالمين» ﴿وَأَوْصَى بِهَا﴾ بالملة ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ قال: ﴿يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أمرهم بالثبات على الإسلام. ولما قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟ هذا كلام اليهود وهو كذب، نزل ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضورا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾ بعد موتي ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسحَاقَ﴾ عد إسماعيل[1] ﴿إِلَهاً وَاحِداً﴾ إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كلهم، إله واحد ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ﴾ الجماعة ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ سلفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العمل جزاء ﴿وَلَكُمْ﴾ اليهود ﴿مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ﴾ قالت اليهود من كان يهوديا فهو على صراط مستقيم وقالت النصارى: من كان نصرانيا فهو على صراط مستقيم ﴿قُلْ بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ مائلا عن الأديان كلها إلى الدين القيم ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا يذكر الله إبراهيم في القرآن إلا وبرأه من الشرك ﴿قُولُواْ﴾ أيها المسلمون ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ من القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ من الصحف العشر ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ أولاده ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ من التوراة ﴿وَعِيسَى﴾ من الإنجيل ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ

---

1 – أدخل إسماعيل في جملة الآباء وإن كان عمًّا لهم لأن العرب تسمى العم أبا والخالة أما. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عم الرجل صنو أبيه) الجامع الكبير ج512/1. وقال في عمه العباس: (ردوا علي أبي). وقال فيه: (هذا بقية آبائي). حاشية النسفي على الخازن. ج1/ 88.

مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كاليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي بما آمنتم به ﴿فَقَدِ اهْتَدَواْ﴾ سلكوا الصراط المستقيم ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان به ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ خلاف معكم ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ يا محمد شقاقهم ﴿وَهْوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وقد كفاه إياهم بقتل قريظة ونفي النضير وضرب الجزية عليهم ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ صبغ الله إبراهيم صبغته صبغة الله وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها، شبه فطرة الله بالصبغ لبقاء أثره على صاحبه أبدا كما يبقى الصبغ في الثوب كذلك الإيمان، ومشاكلة مع ما يفعله النصارى، النصارى إذا ولد لهم مولود وبلغ اليوم السابع لابد أن يغسل بماء يأخذونه من المعمودية[1] من غسلوه بماء المعمودية يقولون إنه صار نصرانيا وعلى دين النصارى كأنه صبغة عندهم فلهذا ذكر الله تبارك وتعالى أنه صبغ إبراهيم بصبغته وهي الإيمان بالله وحده، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على فطرة الإسلام فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء)[2] بل أنتم تجدعونها، فكذلك الله تبارك وتعالى أخذ العهد من ذرية آدم وآدم غير موجود والذرية غير موجودة، خاطب عدما في عدم وأجابوه: "ألست بربكم قالوا بلى" فبقي هذا الإيمان فطرة في الإنسان حتى إذا ولد

---

1 - انظر الصاوي في حاشيته على الجلالين ج1/ 130. ط/دار الفكر

2 - أخرجه البخاري عن أبي هريرة : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة هل ترى فيها جدعاء؟) صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما قيل في أولاد المشركين (1385) وفي صحيح مسلم من كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (4803) بلفظ (ما من مولود إلا يولد على الفطرة...)

وكان أبواه مسلمين بقي على فطرة الإيمان وإذا كان أبواه يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وهي صبغة الله تبارك وتعالى ﴿وَمَنْ﴾ لا أحد ﴿أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ الله أحسن صبغة من كل صابغ، بنو آدم يصبغون بالألوان يصبغون الأبيض فيكون أسود، ويصبغون الأبيض فيكون أحمر أو أزرق، كل لون يقدرون أن يصبغوا إليه ولكن عجزوا عن أن يصبغوا أسود فيصير أبيض هذا عجز عنه الصباغون، والله تبارك وتعالى يأخذ قلب الكافر وهو أسود فيصبغه فيصير أبيض بالإيمان ويأخذ الشعر الأسود فيصبغه حتى يصير أبيض بالشيب، الصباغون عجزوا عن هذه الكيفية، فلهذا قال لا أحد أحسن من الله صبغة بل هو أحسن الصابغين صبغة[1] ﴿وَنَحْنُ لَه عَابِدُونَ﴾ قال اليهود للمسلمين: نحن أهل الكتاب الأول وقبلتنا أقدم ولم تكن الأنبياء من العرب ولو كان محمد نبيا لكان منا، النبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل ولم يأت نبي عربيا هذا ما عرفناه ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ تخاصموننا ﴿فِي اللَّهِ﴾ أن اصطفى نبيا من العرب ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فله أن يصطفي من عباده من يشاء ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ نجازى بها ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ تجازون بها ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ونحن مخلصون له الدين والعمل فنحن أولى بالاصطفاء منكم ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ هؤلاء ما كانوا يهودا وما كانوا

1 - جاء في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من رواية أشعث بن إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن بني إسرائيل قالوا: يا رسول الله هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله فناداه ربه: يا موسى سألوك هل يصبغ ربك؟ فقل نعم أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي). ابن كثير ج1/ 189.

نصارى ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ الله أعلم، لما كان الله أعلم قال "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا" لأن اليهودية نشأت من التوراة والتوراة نزلت على موسى والنصرانية نشأت من الإنجيل والإنجيل نزل على عيسى بن مريم فلهذا رد الله عليهم كما سيأتي في سورة آل عمران "وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده". أسباط إبراهيم دخل فيهم عيسى وعيسى كما تعلمون ليس له أب. كان الحجاج بن يوسف جبارا وفاجرا ويكره أهل البيت سمع بعالم قال إن الحسن والحسين من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم فأحضره بين يديه وقال له: أنت قلت إن الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال له: نعم. قال: لا بد أن تأتيني بدليل من القرآن وإلا قتلتك. قال له: نعم. قال له: ولا أقبل هذا الدليل: "قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم" أن النبي لما نزلت هذه الآية دعا بالحسن والحسين، لا أقبل هذا دليلا. قال له: آتيك بدليل أبلغ من ذلك: الله تبارك وتعالى ذكر ذرية إبراهيم قال "وزكرياء ويحيى وعيسى وإلياس" عد عيسى من ذرية إبراهيم؟ قال له: نعم، قال له: ومن أبو عيسى؟ إذاً الذرية تطلق على أولاد البنات لولا أن أولاد البنات من الذرية لما كان عيسى من ذرية إبراهيم، قال له: صدقت وأجازه أعطاه مالا كثيرا[1] ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ

---

1 - أخرج الحاكم في المستدرك عن عاصم بن بهدلة قال: اجتمعوا عند الحجاج فذكر الحسين بن علي، فقال الحجاج: لم يكن من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم وعنده يحيى بن يعمر فقال له: كذبت أيها الأمير فقال: لتأتيني على ما قلت ببينة ومصداق من كتاب الله عز وجل أو لأقتلنك قتلا فقال: "ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى" إلى قوله عز وجل: "وزكرياء ويحيى وعيسى وإلياس" فأخبر الله عز وجل أن عيسى من ذرية آدم بأمه والحسين بن علي من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم بأمه، قال: صدقت فما حملك على تكذيبي في مجلسي؟ قال: ما أخذ الله على الأنبياء ليبيننه للناس ولا يكتمونه، قال الله عز

مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ تقدم مثله، الآباء وإن صلحوا وإن بلغوا ما بلغوا أعمالهم لا تنفع أولادهم "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" نعم صلاح الآباء ينفع الذرية إذا اقتفوا آثارهم وأما من ترك نهج آبائه الصالحين فليس بينه وبينهم شيء. رجع الرشيد يوما من الحج وحوله الجيش وعلى وجهه ستارة يحتجب بها، فلقيه بهلول، هو أخوه ولكنه مجذوب قال: يا هارون، يا هارون، يا هارون ثلاث مرات، فتعجب من إنسان يدعوه باسمه ما قال له: يا أمير المومنين، فأوقف الجيش وقال: أحضروا بين يديّ هذا الرجل الذي يناديني باسمي، فأحضروه بين يديه فرفع الستارة عن وجهه، فقال له: يا هارون إياك أعني، قال له: أنت تعرفني؟ قال له: نعم أعرفك. قال: من أنا؟ قال: أنت الذي إذا ظُلم أحد في أقصى المغرب وأنت في أقصى المشرق يسألك الله عنه يوم القيامة، فبكى وقال له: ما ترى حالي؟ ما تظنني؟ قال له: انظره في كتاب الله، "إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم" وأظنك في الجملة الثانية. قال له: أما تعرف قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: "فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون". قال له: أعمالنا التي نقوم بها نحج ونفعل كذا وكذا. قال: "إنما يتقبل الله من المتقين". قال له: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم نرجوها. قال: "يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا". قال له: اذكر لي حاجتك أقضها لك. فضحك وقال: تقدر أن تقضي لي حاجتي ؟ قال: نعم أقدر. قال: تغفرُ

وجل: "فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا"، قال: فنفاه إلى خراسان. المستدرك: كتاب معرفة الصحابة رضي الله تعالى عنهم/ باب ومن مناقب الحسن والحسين ابني بنت رسول الله (3164).

لي ذنوبي وتدخلني الجنة. قال: هذا لا أقدر عليه ولكن بلغني أن عليك ديونا كثيرة وأقدر أن أعينك على قضاء دينك. قال: ديونك أكثر من ديوني، عليك من حقوق الناس ما ليس علي والدَّين لا يقضي الدَّين كمن يغسل البول بالبول فقط، لا حاجة لي بمالك. قال له: ما بالنا نكره الموت؟ قال: لأنكم خربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تخرجوا من العمارة وترجعوا إلى الخراب، لو عمرتم الآخرة لاشتقتم إلى الموت، يا هارون اتق الله رفعت الطين ووضعت الدين، رفعت الجص ووضعت النص، إن كان من مالك فقد أسرفت "إن الله لا يحب المسرفين" وإن كان من غير مالك فقد ظلمت "إن الله لا يحب الظالمين". هدده وقال إنه سيقتله لأنه أساء الأدب معه، قال له وزراؤه: لا، يا أمير المؤمنين لا تقتله، فضحك وقال: لا أدري أيكم أشد جنونا، الذي يقتل من لم يحضر أجله أو الذي يشفع فيمن حضر أجله أيكما أشد جنونا، ما أشد حماقتكم جميعا وذهب عنه[1].

«تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» المدار على العمل الصالح وإخلاص العمل لله تبارك وتعالى، والعمل لا يعتبر إلا إذا أخلص فيه لوجه الله تبارك وتعالى، إذا كان الباعث على العمل هو وجه الله فهذا عمل مخلص، وإذا كان الإنسان إذا خلا وحده لا يصلي وإذا حضر بين الجماعة يصلي فهذا مُراءٍ، وإذا كان يصلي وحده صلاة خفيفة في غياب الناس وفي الجماعة يصلي صلاة حسنة فهذه الصلاة ليس فيها رياء ولكن الإحسان هو الذي بقي فيه الرياء. ومن الرياء ترك العمل لأجل الناس من ترك عملا لأجل الناس فقد راءى، ومن عمل لأجل الناس فقد أشرك، لا يكون الإخلاص إلا إذا عمل لله

---

1 – ذكرها الغزالي مجملة ومختصرة في إحياء علوم الدين ج3/ 65. ط/ دار الجيل

وترك لله ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمْ﴾ لما حولت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة سيقول السفهاء هذا الكلام: أي شيء صرف النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن قبلتهم ﴿الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ على استقبالها وهي بيت المقدس ﴿قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ الجهات كلها فيامر بالتوجه إلى أي جهة شاء لا اعتراض عليه ﴿يَهْدِي مَنْ يَّشَاءُ﴾ هدايته ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دين الإسلام ومنه أنتم ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما هديناكم ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يا أمة محمد ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ خيارا عدولا ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يوم القيامة ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ أنه بلغكم، الله تبارك وتعالى من جوده وكرمه وفضله علينا جعل أمة محمد خير أمة أخرجت للناس كما قال "كنتم خير أمة أخرجت للناس" وقال في هذه الآية: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس» جعل هذه الأمة الأخيرة أفضل الأمم ليصلحوا للشهادة يوم القيامة. إن الله إذا حشر الخلق كلا يسأل المرسلين ويسأل الأمم "فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين". إذا اجتمع الخلائق أولهم وآخرهم إنسهم وجنهم وملائكتهم في صعيد واحد، أول من يحاسب القلم يسأل هل بلغ للوح ما أمِر بتبليغه؟ يقول: نعم. فيقر اللوح بأنه بلغه القلم. ويقال للوح: هل بلغت لجبريل الكتاب الفلاني الذي أنزله إلى النبي الفلاني؟ يقول اللوح إنه بلغ لجبريل. جبريل هل بلغت لنوح؟ فيقول: نعم بلغتُ. نوح هل بلغتَ لأمتك؟ يقول: نعم بلغت لأمتي فكفروا. أيتها الأمة هل بلغ إليكم نوح؟ قالوا: لا "ما جاءنا من بشير ولا نذير". فتأتي أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويشهدون أن الأنبياء بلغوا رسالاتهم وأن نوحا بلغ. فيقول قومه: كيف يشهد هؤلاء علينا وهم جاءوا أخيرا؟ يقول الله لأمة محمد: كيف تشهدون لنوح وأنتم جئتم بعده بقرون؟ يقولون: أنزلت القرآن كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه على محمد فبلغ لنا قوله تعالى "إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن انذر قومك" فيقول الحق جل جلاله: يا محمد أمتك عدول يصلحون للشهادة؟ يقول: نعم أمتي عدول خيار يصلحون للشهادة[1]. فتقوم الحجة للأنبياء على أممهم. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ﴾ الجهة ﴿الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ أولاً وهي الكعبة وكان صلى الله عليه وسلم يصلي إليها فلما هاجر استقبل بيت المقدس فصلى إليه سنة أو سبعة عشر شهرا ثم حول إلى الكعبة ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ علم ظهور ﴿مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ فيصدقه ﴿مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ يرجع إلى الكفر شكاً في الدين وذلك أن شأن القبلة ارتد بسببه كثير من ضعفاء المسلمين[2] ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ التولية إليها ﴿لَكَبِيرَةً﴾ شاقة على الناس ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ منهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية لما حولت القبلة إلى الكعبة قال المسلمون: إخواننا الذين ماتوا قبل تحويل القبلة لعلهم بطلت صلواهم فقال الله "وما كان الله ليضيع إيمانكم" أي صلاتكم إلى بيت المقدس ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إن الله لرءوف رحيم بالناس في عدم إضاعة أعمالهم ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ كان النبي يتطلع إلى الوحي ليؤمر بالصلاة إلى القبلة لأن الكعبة قبلة إبراهيم وهو على

---

1 – عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيدا، فذلك قوله جل ذكره "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" والوسط العدل. صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب قوله تعالى "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" (4487).

2 – القرطبي ج2/ 157. الخازن ج1/ 63.

دين إبراهيم. وأيضا ذلك أدعى إلى إسلام العرب. فصار يتشوف إلى وحي يأمره بالتوجه إلى القبلة فقال الله إنه يرى تطلع النبي صلى الله عليه وسلم لطلب القبلة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ نحولنك ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تحبها ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الكعبة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التولي إلى الكعبة ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ لما في كتبهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ على صدقك ﴿مَا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾ عنادا ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ هذا قطع لطمعه في إسلامهم وطمعهم في عوده إليها ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ اليهود قبلة النصارى والعكس ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوحي ﴿إِنَّكَ إِذاً﴾ إن اتبعتهم فرضا ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ يعرفون محمدا ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ قال ابن سلام: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي لمحمد أشد لأن ابني لم أدر هل خانتني أمه أم لا[1]. قال يعرفون أبناءهم ولم يقل آباءهم والإنسان أعرف بأبيه من ابنه ولكن معرفتك للإبن متقدمة منذ يوم ولادته أنت تعرفه إلى يومنا هذا والأب مضى له زمن قبل وجودك لا تعرفه، فلهذا لم يقل كما يعرفون آباءهم وإن كانت معرفة الأب أشد، بل يعرفون أبناءهم ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نعت محمد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا الذي أنت عليه ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

---

1 – قال القرطبي: وروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدا صلى الله عليه وسلم كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر بعث الله أمينه في سمائه على أمينه في أرضه بنعته فعرفته وإبني لا أدري ما كان من أمه. الجامع لأحكام القرآن ج2/ 163.

الشاكّين ﴿وَلِكُلٍ﴾ من الأمم ﴿وِجْهَةٌ﴾ قبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾ بادروا إلى الطاعات ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ القرآن يأمرنا بالمسارعة والمسابقة والمبادرة فعيش الإنسان لا يقتضي إلا هذا. قال: "سارعوا إلى مغفرة" وقال "سابقوا" وقال هنا «فاستبقوا الخيرات» والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا)[1] أمر الدين يحتاج للمبادرة وإلا ضيعت كثيرا من الأوقات حيث لا تشاء، والمبادرة هي الصلاة في أول الوقت، (أول الوقت رضوان الله وآخر الوقت عفوه تبارك وتعالى)[2] ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ لسفر ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ كرره للتأكيد ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ اليهود والمشركين ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ مجادلة ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ إلا أهل الظلم فهم يجادلون عنادا ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ لا تخافوا جدالهم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ بامتثال أمري ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق إتماما كإتمامها بإرسالنا ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً﴾ كما أتممنا نعمتكم بإرسال الرسول أتممنا نعمتكم كذلك بالتوجه إلى القبلة ﴿مِنكُمْ﴾ هو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾

---

1 - هذا الحديث جزء من خطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة، فقد روي عن جابر بن عبد الله أنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ياأيها الناس توبوا إلى الله تعالى قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا...) أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها/ باب في فرض الجمعة (1071).

2 - (أول الوقت رضوان الله ووسط الوقت رحمة الله وآخر الوقت عفو الله). الجامع الصغير ج1/ رقم الحديث 2808.

القرآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يطهركم من الشرك ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي﴾ بالصلاة والتسبيح ونحوه كالتهليل والتحميد ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ في الحديث عن الله (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه)[1] ﴿وَاشْكُرُواْ لِي﴾ نعمتي بالطاعة ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اسْتَعِينُواْ﴾ على الآخرة ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على الطاعة والبلاء ﴿وَالصَّلاَةِ﴾ خصها بالذكر لتكرارها وعظمتها ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالعون ﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت لحديث بذلك[2] ﴿وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ لا تعلمون ما هم فيه. الشهادة لها كرامات، الشهداء وجدوا كرامات ليست للأنبياء. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله أعطى الشهيد ست خصال: أن يغفر له في أول قطرة من دمه، وأن يهتدي إلى منزلته في الجنة في الحين، ويجعل الله على رأسه تاجا الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوجه ثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفعه في سبعين من قربائه ولا يحس

---

1 - ورد في صحيح البخاري بلفظ: يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منه وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة". صحيح البخاري كتاب التوحيد/ باب قوله تعالى "ويحذركم الله نفسه" (7405)، ولمسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب الحث على ذكر الله تعالى (4832).

2 - روي عن أنس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أرواح الشهداء تجعل في حواصل طير خضر معلقة في قناديل تحت العرش فيقول جل جلاله: لكم حاجة؟ فيقولون ربنا ردنا إلى أجسادنا حتى نستشهد في سبيل الله) الجامع الكبير ج1/ 103. وأخرج الدارمي في سننه عن عبد الله بن مسعود حديثا بهذا المعنى كتاب الجهاد/ باب ما يتمنى الشهيد من الرجعة إلى الدنيا (2303).

بالموت إلا كما تحس بقرص النحل)[1] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ للعدو ﴿وَالْجُوعِ﴾ القحط ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ﴾ بالهلاك ﴿وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ بالجوائح ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ على البلاء بالجنة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ بلاء ﴿قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ قالوا هذه الكلمة، في الحديث: (من استرجع عند المصيبة آجره الله فيها وأخلف عليه خيرا منها)[2] وفيه (أن مصباح النبي صلى الله عليه وسلم طفئ فاسترجع، قالت عائشة إنما هذا مصباح فقال: كل ما ساء المؤمن فهو مصيبة)[3] ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ مغفرة ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ نعمة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ شك بعض المسلمين في الطواف بين الصفا والمروة حيث أن الكفار كانوا يطوفون بينهما لعبادة الأوثان فقال تعالى «إن

---

1 - أخرجه الترمذي في سننه من كتاب فضائل الجهاد / باب في ثواب الشهيد (1586) وفي سنن ابن ماجه: كتاب الجهاد/ باب فضل الشهادة في سبيل الله (2789) ولأحمد من كتاب مسند الشاميين/ باب حديث المقدام بن معدي كرب (16553).

2 - أخرج مسلم في صحيحه عن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها) قالت: فلما مات أبو سلمة قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: أرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت إن لي بنتا وأنا غيور فقال أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها وأدعو الله أن يذهب بالغيرة. صحيح مسلم كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند المصيبة (1525)

3 - روى عكرمة أن مصباح رسول الله صلى الله عليه وسلم انطفأ ذات ليلة فقال إنا لله وإنا إليه راجعون فقيل أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: نعم كل ما آذى المؤمن فهو مصيبة. القرطبي 175/2. وفي الجامع الصغير "كل شيء ساء المؤمن فهو مصيبة" ج2/ 6323.

الصفا والمروة» جبلان بمكة ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام دينه ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾ تلبس بالحج أو العمرة ﴿فَلاَ جُنَاحَ﴾ أي لا إثم ﴿عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أن يسعى بينهما سبعا ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ أكثر من ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ نزل في علماء اليهود الذين كتموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم يكتمون ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ كآية الرجم ونعت محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ في التوراة ﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يبعدهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ الملائكة والمؤمنون[1] ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ عملهم ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ ما كتموا ﴿فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أقبل توبتهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ مستحقون ذلك في الدنيا والآخرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خالدين في اللعنة أو خالدين في النار المدلول بها عليها ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ طرفة عين ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون لتوبة أو معذرة ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ نزل في قوم سألوا الرسول: صف لنا ربك قال ﴿وَإِلَهُكُمْ﴾ المستحق للعبادة ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا نظير له في ذاته ولا في صفاته ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ طلبوا آية على ذلك فنزل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما فيهما من العجائب ﴿وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان ﴿وَالْفُلْكِ﴾ السفن ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ ولا ترسب موقرة ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من التجارات والحمل ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾

---

1 – قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة "ويلعنهم اللاعنون" يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون. ابن كثير ج1/ 201.

بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بعد يبسها ﴿وَبَثَّ﴾ فرق ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ لأنهم ينمون بالخصب ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ تقليبها جنوبا وشمالا حارة وباردة ﴿وَالسَّحَابِ﴾ الغيم ﴿الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ بلا علاقة، هذه الثماني كلها ﴿لآيَاتٍ﴾ دالات على وحدانيته تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ من تفكر في هذه الآيات يعلم أن فاعلها لا يعجزه شيء وهو المستحق للعبادة دون غيره ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ غيره ﴿أَندَاداً﴾ أصناما ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ بالتعظيم والخضوع ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي كحبهم له ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من حبهم للأنداد ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد ﴿الَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الكفار ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ يبصرون ﴿الْعَذَابَ﴾ لرأيت أمرا عظيما ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ﴾ وترى أيضا أن القوة والغلبة ﴿لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ﴾ الرؤساء ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾ أنكروا إضلالهم ﴿وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ أسباب الوصل بينهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ المتبوعين ﴿كَمَا تَبَرَّأُواْ مِنَّا﴾ اليوم، هذا للتمني ﴿كَذَلِكَ﴾ كما أراهم شدة عذابه وتبرأ بعضهم من بعض ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ السيئة ﴿حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي تزيينه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ الإثم ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ القبيح شرعا ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من تحريم ما لم يحرم وغيره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي الكفار ﴿اتَّبِعُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من التوحيد وتحليل الطيبات ﴿قَالُواْ﴾ لا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام وتحريم السوائب والبحائر قال تعالى ﴿أَ﴾ يتبعونهم ﴿وَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً﴾ من أمر الدين ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صفتهم ومن

يدعوهم إلى الهدى ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يصوت ﴿بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ من لا يسمع إلا صوتا جهورا وأنت تصوت عليه لا يسمع ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ حلالات ما رزقناكم ﴿وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على ما أحل لكم ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ أكل الميتة ﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ ذبح على اسم غيره ﴿فَمَنُ اضْطُرَّ﴾ ألجأته الضرورة إلى أكل شيء ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ غير خارج على المسلمين على مذهب الشافعي أو غير باغ غير مستغن بالجيفة مع وجود غيرها ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ متعد على مذهب الشافعي ولا عاد ولا متجاوز للحلال والحرام ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المشتمل على نعت محمد ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ من الدنيا ﴿أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ غضبا عليهم ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من دنس الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ المعدة لهم في الآخرة لو لم يكتموا ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ ما أشد صبرهم على النار بارتكاب موجباتها ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ بسبب أن الله ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ التوراة ﴿بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ لَّيْسَ الْبِرُّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ في صلاتكم ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ردا على اليهود والنصارى ﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي الكتب ﴿وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ مع حبه له ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ القرابة ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المسافرين ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الطالبين ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وفي فك الرقاب

المكاتبين ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ﴾ الله أو الناس ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ شدة الفقر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وقت شدة القتال ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في إيمانهم ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ شرع في الفقه ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ وصفا وفعلا ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ ولا يقتل الحر بالعبد ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ من القاتلين ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾ من دم أخيه المقتول ﴿شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ﴾ فعلى العافي اتباع القاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بأن يطالبه بالدية بلا عنف ﴿وَأَدَاءٌ﴾ وعلى القاتل أداء الدية ﴿إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ بلا مطل ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم ﴿تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ القصاص أو العفو المكلف مخير فيهما وذلك تخفيف من الله تبارك وتعالى ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لم يحتم واحدا كما حتم على اليهود القصاص وعلى النصارى الدية ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بأن ظلم القاتل بأن قتله ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ بقاء عظيم ﴿يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ لأن الإنسان إذا علم أنه إذا قتل يقتل ترك القتل فحييت بذلك نفسان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ تتقون القود ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل بأن لا يزيد على الثلث ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وهذا منسوخ بآية الميراث وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا وصية لوارث)[1] ﴿فَمَن بَدَّلَهُ﴾ الإيصاء ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ علمه ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقول الموصِي ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعل الموصَى ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً﴾ ميلا عن الحق ﴿أَوْ إِثْماً﴾ بأن تعمد فزاد على الثلث ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الموصي والموصَى له ﴿فَلا

---

1 – رواه الدارقطني في السنن عن جابر، حديث حسن. الجامع الصغير ج2/ الحديث رقم 9933.

إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ قلائل أو مؤقتات بعدد معلوم وهي رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ مسافر سفر قصر ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فعليه عدة ما أفطر ﴿مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يصومها بدله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي لا يطيقونه ﴿فِدْيَةٌ طَعَامِ مَسَاكِينَ﴾ من عجز عن الصوم يفدي، يعطي كل يوم مدا فقط ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ بالزيادة على القدر المذكور ﴿فَهُوَ﴾ أي التطوع ﴿خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإفطار والفدية وقت السفر والمرض ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير لكم فافعلوه. تلك الأيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أي يفرق بين الحق والباطل ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ حضر ﴿مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تقدم مثله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ سئل النبي صلى الله عليه وسلم: الله قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه جهارا؟ قال إني قريب[1] ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ نزل لما كان في صدر الإسلام من تحريم الجماع ليلا وقت رمضان «أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ» الإفضاء ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ بالجماع ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ كناية عن

---

1 – قال عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوف عن الحسن قال: سأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين ربنا؟ فأنزل الله عز وجل "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان" الآية. ابن كثير ج1/ 219.

تعانقهما ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بالجماع ليلة الصيام كما وقع لعمر[1]، نزلت هذه الآية والناس كانوا يفعلونه قبل عمر ويكتمونه ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أباحه من الجماع بأن تشكروا الله فتقولوا: اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا[2] وتقولوا بسم الله ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ كلوا حتى يطلع الفجر ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ﴾ من الفجر ﴿إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ بالاعتكاف ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ الحرام ﴿وَتُدْلُواْ﴾ تلقوا ﴿بِهَا﴾ بحكومتها أو بالأموال رشوة ﴿إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال لِمَ تبدو الأهلة دقيقة ثم تزيد حتى تمتلئ نورا ثم تعود كما بدأت ولا تكون على حالة واحدة كالشمس ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ جمع ميقات ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعلمون بها أوقات زرعهم ومتاجرهم وعُدد نسائهم وصيامهم وأفطارهم

---

1 - أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، فرجع عمر من عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمر عنده فأراد امرأته فقالت: إني قد نمت. قال: ما نمت ووقع عليها وصنع كعب مثل ذلك. فغدا عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فنزلت الآية. اه من أسباب النزول للسيوطي على حاشية الصاوي ج176/1.

2 - ورد حديث بذلك أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري (لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فرزقا ولدا لم يضره الشيطان أبدا). صحيح البخاري كتاب الوضوء/ باب التسمية على كل حال وعند الوقاع (3271)، وفي صحيح مسلم كتاب النكاح/ باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع (2591).

﴿وَالْحَجِّ﴾ وزمن الحج ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ في الإحرام كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿وَلَكِنِ الْبِرُّ مَنِ اتَّقَى﴾ من ترك مخالفة الله ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ في الإحرام كغيره ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ولما صُد النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت قال تعالى ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ من الكفار ﴿وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم[1] ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ مكة ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشرك ﴿أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لهم في الحرم ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ﴾ فيه ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فيه ﴿كَذَلِكَ﴾ القتل والإخراج ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنِ انتَهَوْاْ﴾ عن الكفر وأسلموا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ﴾ توجد ﴿فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ العبادة ﴿لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَواْ﴾ عن الشرك ﴿فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ المحرم مقابل ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فكما قاتلوكم فيه فاقتلوهم في مثله ﴿وَالْحُرُمَاتُ﴾ جمع حرمة ما يجب احترامه ﴿قِصَاصٌ﴾ يقتص بمثلها إذا انتهكت ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ بالقتال في الحرام ﴿فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ﴾ في الانتصار ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طاعته في الجهاد ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أنفسكم ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ الهلاك ﴿وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أدوهما بحقوقهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ منعتم عن إتمامها ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ عليكم وهو شاة ﴿وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ﴾ المذكور

---

1 - قال نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس أخبرني عن قوله تعالى "ثقفتموهم" قال: وجدتموهم، أما سمعت قول حسان: [فإما تثقفن بني لؤي خذيمة إن قتلهم دواء]. الإتقان ج2/ 72.

﴿مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ كقمل وصداع ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ بثلاثة آصع ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ بشاة[1] ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ يجب عليه الهدي ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى وطنكم ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم "تلك عشرة كاملة" ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور من وجوب الهدي أو الصيام على المتمتع ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أهل مكة لا يجب عليهم الهدي إذا تمتعوا ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة ﴿فَمَن فَرَضَ﴾ على نفسه ﴿فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ بالإحرام ﴿فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ كصدقة ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ فيجازيكم ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ نزل في أهل اليمن ما يبلغكم لسفركم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ﴾ أفضل الزاد ﴿التَّقْوَى﴾ ما يتقى به سؤال الناس ﴿وَاتَّقُونِ يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ﴾ في أن تبتغوا ﴿فَضْلاً﴾ رزقا ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالتجارة في الحج ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ دفعتم ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ بعد المبيت بمزدلفة بالتلبية والتهليل والدعاء ﴿عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وهو جبل في آخر المزدلفة يقال له قزح عليه المسجد الآن ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ﴾ قبل هداه ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُواْ﴾ يا قريش ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ كانوا يعتزلون الناس ويقفون وحدهم ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ اللَّهَ﴾ من ذنوبكم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ فَإِذَا قَضَيْتُم

1 – كما نص عليه الحديث انظر صحيح البخاري كتاب كفارات الأيمان/ باب قول الله تعالى فكفارته إطعام عشرة مساكين (6708).

مَّنَاسِكَكُمْ﴾ عبادات حجكم بأن رميتم جمرة العقبة وطفتم واستقررتم بمنى ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ بالتكبير والثناء ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ﴾ كما كنتم تذكرون آباءكم بالمفاخرة ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ من ذكرهم ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيؤتاه فيها ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ نصيب ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَّقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة ﴿وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ هي الجنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بعدم دخولها ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ ثواب ﴿مِّن﴾ أجل ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ عملوا من الحج والدعاء ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك[1]. اللهم صل على سيدنا محمد.

---

[1] – هذا لفظ جلال الدين السيوطي في الجلالين عند تفسيره للآية. وجاء في تفسير الطبري عن الأعمش عن إبراهيم في قوله :أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا قال: كانوا يرون أنه يفرغ من حساب الناس يوم القيامة في نصف النهار، فيقيل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار. وعن ابن جريج قال: لم ينتصف النهار حتى يقضي الله بينهم، فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. تفسير الطبري: الفرقان / وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا. تفسير الطبري/ سورة الفرقان/ وقدموا إلى ما عملوا من عمل.. الآية.

الدرس السادس

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيـم

يا همة الشيخ احضري لنـــا بهذا المحضـــر

ولتعطفـــي بنظـــرة تأتي لنـــا بالظفـــر

﴿وَاذْكُرُواْ اللّهَ﴾ بالتكبير عند رمي الجمرات ﴿فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ أيام التشريق الثلاثة[1] ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ استعجل بالنفر من منى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ في ثاني أيام التشريق بعد رمي جماره ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالتعجيل ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ بها حتى بات ليلة الثالث ورمى جماره ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بذلك أي هم مخيرون في ذلك، ونفي الإثم ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ اتقى الله في حجه لأنه الحاج في الحقيقة ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم. ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات مناسك الحج وأمر العباد أن يتموا الحج والعمرة لله من دون رياء ولا سمعة لأن الحج أكثر العبادات رياء، فلا تجد حاجا يعرض له خبر إلا وذكر خبرا في الحجاز أي جذلان بحجه فلهذا قال "وأتموا الحج والعمرة لله"، وأمر بالإحسان، والإحسان

---

1 – قال ابن عباس الأيام المعدودات أيام التشريق والأيام المعلومات أيام العشر. وقال عكرمة "واذكروا الله في أيام معدودات" يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر. ابن كثير ج245/1.

إحسان العبد في أقواله وأفعاله وإحسانه في نيته وإحسانه في ظنه بأن يحسن الظن بالله تبارك وتعالى وبعباده، يقول الرب على لسان نبيه: (أنا عند ظن عبدي بي)[1] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن)[2] وأمر عباده إذا أتموا حجهم أن يكثروا من ذكر الله تبارك وتعالى كذكرهم آباءهم أو أشد ذكرا. والحج في الظاهر قصد البيت وأداء مناسك الحج، والحج الحقيقي هو الرجعة إلى الله تبارك وتعالى، فمن قضى ذلك الحج حتى وصل إلى الحضرة فليكثر من ذكر الله تبارك وتعالى لا يهمه إلا الله حتى يذوق ذكر الله تبارك وتعالى فلهذا خاطب العارفين "فإذا قضيتم مناسككم" بالحج الحقيقي "فاذكروا الله كذكركم آباءكم" والولد في طفولته يذكر أباه في كل حاجة عرضت له، وفي رجولته يفتخر بذكر أبيه، فكما أن العبد يذكر أباه في الحالتين افتخارا وافتقارا، فالعارف بالله يذكر ربه افتخارا وافتقارا بل أشد من ذلك، فإن الولد ربما استغنى عن أبيه بولي غيره والعارف لا يجد غنى عن الله تبارك وتعالى ولا يرى غيره، فلهذا حض على الإكثار من ذكر الله بعد الوصول إلى حضرة الله تبارك وتعالى. فمن الناس من غرضه الدنيا فقط، ومنهم من يريد الدنيا والآخرة، ومنهم من يريد الدنيا ويبيع آخرته بدنياه، ومنهم من يبيع دنياه بأخراه، أربعة أقسام كلهم ذكرهم الله في هذه الآية فمنهم "من يقول ربنا آتنا في الدنيا" يطلب الدنيا فقط "وما له في الآخرة من

---

1 - حديث صحيح أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب التوحيد/ باب قول الله تعالى يريدون أن يبدلوا كلام الله (7505) وهو طرف من حديث أخرجه مسلم: كتاب الدعاء والتوبة والاستغفار (4832).

2 - (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن) حديث صحيح. صحيح مسلم عن جابر: كتاب الجنة وصفة نعيم أهلها/ باب الأمر بحسن الظن بالله (5124). الجامع الصغير ج2/ الحديث رقم 9987.

خلاق" "ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار" هذا طلب خير الدنيا وخير الآخرة، والثالث سياتي في الآية "ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام" هذا باع آخرته بدنياه، والرابع هو أكملهم باع نفسه واشترى الآخرة «واذكروا الله في أيام معدودات» يقال أيام معدودات جمع معدودة ولا يقال يوم معدودة، المذكر لا ينعت بالمؤنث ولكن حيث أنه يجوز أن تقول أياما معدودة كما تقدم "لن تمسنا النار إلا أياما معدودة" وصف الجمع بالمؤنث جائز فلهذا "معدودات" هنا جمع معدودة وصف جمع مؤنث، والأيام المعدودات اختلف فيها مالك والشافعي، مالك يقول يوم النحر وتالياه، والشافعي يقول أيام التشريق هي الأيام المعدودات بدليل «فمن تعجل في يومين» من أيام التشريق «فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» فصلت الآية الأيام المعدودات من أيام الرمي وهي أيام التشريق، فاليوم الأول يوم النحر معدود، وقال الله في آية الحج «واذكروا الله في أيام معدودات» والأيام المعلومات عند مالك ثلاثة أيام بعد يوم النحر فاليوم الأول معدود عنده غير معلوم، واليومان معدودان معلومان واليوم الرابع معلوم غير معدود، هذا مذهب مالك. والحاج إذا رمى الجمرة في اليومين وراح إلى مكة فلا إثم عليه هذا هو التعجل. ومن تأخر حتى أكمل الأيام الثلاثة فلا إثم عليه. عبر بنفي الإثم لأنَّ من الحجاج من يقول من تعجل فعليه الإثم ومنهم من يقول من تأخر فعليه الإثم فلهذا نفت الآية الإثم في الوجهين هذا «لِمَنِ اِتَّقَى» بامتثال أمر الله واجتناب نَهيه لأن هذا هو الحاج حقيقة (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[1] (وليس

---

1 - (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) رواه الشيخان واللفظ للبخاري عن أبي

للحج المبرور جزاء إلا الجنة)[1] والحج المبرور علامته أن يرجع الحاج متواضعا زاهدا مقبلا على الله تبارك وتعالى. كان واحد من الفسقة حج بيت الله الحرام ورجع ودعته نفسه يوما إلى ما كان يرتكب من المعاصي فسمع من سره: تفعل هذا وأنت حاج فانزجر عن ذلك[2]، فهذا علامة الحج المبرور ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم بأعمالكم أو تحشرون إليه على كل حال، الحاج الحقيقي أيضا يحشر إلى حضرة الله تبارك وتعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ نزلت هذه الآية في رجل يقال له الأخنس بن شريق[3] كان منافقا حلو الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم يحلف إذا حضر عند النبي صلى الله عليه وسلم أنه مؤمن به ومحب له فيدني مجلسه فأكذبه الله تبارك وتعالى في ذلك، ومر بزرع وحمر لبعض المسلمين فأحرق الزرع وعقر الحمر ليلا، إذا حضر عند النبي يكون مؤمنا محبا صادقا وإذا أدبر صار يعادي أصحابه ويفسد عليهم قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ولا يعجبك في الآخرة لمخالفته لاعتقاده ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ،﴾ أنه موافق لمقوله ﴿وَهْوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ شديد الخصومة لك ولأتباعك لعداوته لك هذا هو القسم الثالث المنافق با ع أخراه بدنياه ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾

هريرة. صحيح البخاري: كتاب الحج: باب فضل الحج المبرور (1424). صحيح مسلم: كتاب الحج: باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (2404).

1 – لفظ الحديث عن أبي هريرة: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الحج/ باب وجوب العمرة وفضلها (1650) صحيح مسلم: كتاب الحج/ باب في فضل الحج والعمرة (2403).

2 – روح البيان 322/1.

3– تفسير الجلالين ج94/1.

انصرف عنك ﴿سَعَى﴾ مشى ﴿فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ من جملة الفساد ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ لا يرضى به ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ في فعلك ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ حملته الأنفة والحمية على العمل ﴿بِالإِثْمِ﴾ الذي أمر باتقائه ﴿فَحَسْبُهُ﴾ كافيه ﴿جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الفراش هي. الله لا يحب الفساد لاسيما فساد هذا المنافق في الحرث والنسل لأن الله تبارك وتعالى لما خلق آدم وأنزله إلى الأرض وجعله خليفة فيها علمه الحرف التي يعيش بها أولاده، فكان حرفة آدم الحرث[1]. والله تبارك وتعالى وضع البركة في النسل وفي الحرث، فهي أكثر في هذه الأشياء منها في جميع الأشياء الأخرى. إذا تأملت تجد أن الناس أكثرهم لا يزرعون فالقليل منهم هم الذين يشتغلون بالزراعة، والذين يشتغلون بالزراعة لا يشتغلون إلا في بعض أوقاتهم، ومع هذا ترى الإنسان لا يأكل إلا شيئا مزروعا، لولا أن الله أنزل البركة في الزرع ما أمكن هذا. وجعل البركة في الحيوان: الغنم والبقر والإبل، أكثر الحالات في هذه الأنعام لا تلد في السنة إلا مرة وإذا ولدت ولدت ولدا واحدا، فإذا اختلف ولدت ولدين، ومن أراد اللحم لابد أن يذبح واحدا منها، ومن أراد البيع يبيع شيئا منها ولا تخرج إلا لقيت قطيعا من الإبل أو قطيعا من البقر أو الغنم، وإذا تفكرت في السباع وفي الكلاب وحتى في القطط تجدها تلد في السنة مرتين في كل مرة تلد ثمانية أولاد، والناس لم يشتغلوا بذبحها ولا ببيعها ولا ترى

1 – عن ابن عباس قال: قال الله تعالى يا آدم ألم يكن فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة؟ قال: بلى يا رب وعزتك، ولكن ما ظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا. قال فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش فيها إلا نكدا. فأهبط من الجنة وعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع وسقى حتى إذا بلغ واشتد حصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه وخبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه الجهد. تفسير الخازن ج1/ 44.

كثيرا منها أبدا، لو لقيت خمسة من الكلاب لقلت هذا كثير من الكلاب، وتجد مائة بقرة وتجد مائة من الغنم، لولا أن البركة نزلت في الأنعام ما كان هذا، فلهذا هذا المنافق عاكس الله تبارك وتعالى حيث اشتغل بِهلاك الحرث والأنعام «وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة» هذا غاية في الكبر، من قيل له اتق الله ولم يتواضع فهو متكبر، فلهذا قيل لعمر اتق الله فعفر خده رضي الله عنه على الأرض تواضعا لله تعالى[1] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْرِي نَفْسَهُ﴾ هو صهيب الرومي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بمكة ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم خرج إلى الهجرة معه ثَمانية نفر فتلقاهم الكفار وقتلوا أصحابه كلا حتى بقي هو تعرضوا له ليمنعوه من الهجرة وكان عنده كنانة مملوءة من السهام قال لهم: يا قوم لقد علمتم أني أرماكم وكنانتي هذه مملوءة سهاما إذا أردتم أن تحولوا بيني وبين الهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أفرغ كنانتي فيكم وكل سهم أقتل به واحدا منكم وإذا نفد ما في كنانتي أقاتلكم بسيفي حتى أموت فافعلوا بعد ذلك ما شئتم، وخير لكم أن أعطيكم مالي الذي تركت بمكة وتتركوني أذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضوا بذلك، فلما وصل إلى نواحي المدينة تلقاه أبو بكر وقال له: ربح البيع، قال له: ما هذا؟ قال له نزلت فيك آية فتلا عليه هذه الآية[2] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْرِي نَفْسَهُ﴾ يبذلها في طاعة الله ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ رضاه وهو صهيب هاجر إلى المدينة وترك لهم ماله ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ حيث أرشدهم لما فيه رضاه، هذا هو القسم الرابع: باع دنياه بأخراه، المسلم باع نفسه

---

1 - روح البيان ج1/323.

2 - راجع القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ج3/ ص20.

باختياره لله تبارك وتعالى فكان ثَمنها الجنة والخواص باعوا أنفسهم باختيارهم لله تبارك وتعالى فكان ثَمنها مرضاة الله تبارك وتعالى والعوام ثمن أنفسهم الجنة "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" والخواص ثمن أنفسهم مرضاة الله تبارك وتعالى «ومن الناس من يشري نفسه» أي يبيعها «ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد» لابد للعبد من أن يبذل ماله لله وأولاده لله ونفسه لله. فمن بذل ماله لله وجد الفناء في الأفعال، يعلم أن لا فاعل في الوجود إلا الله، الفناء في الأفعال ثمن من بذل ماله لله، ومن أسلم أولاده لله وجد الفناء في صفات الله تبارك وتعالى، ومن أسلم نفسه لله وجد الفناء في ذات الله تبارك وتعالى فيفنى عن نفسه ويبقى بالله "وأن إلى ربك المنتهى". «والله رءوف بالعباد» ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه لما دخلوا في الإسلام بقوا يعظمون السبت ويكرهون لحم الإبل وألبانَها تبعا لدينهم القديم فنزلت فيهم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ﴾ في الإسلام ﴿كَافَّةً﴾ أي في جميع شرائعه[1] ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ طرق الشيطان تزيينه بالتفريق ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة فرجعوا فصاروا يفعلون كل ما يفعله المسلمون، يدخل في هذا إلى الآن من يتبع بعض العوائد ويرى التفرقة العنصرية بعد ما قال الإسلام "إنَّما المؤمنون إخوة" ويترك بعض الأشياء التي لا باس بِها تبعا للعوائد الذميمة. «ادخلوا في السلم كافة» وهذا خطاب يعم المسلمين جميعا أن يدخلوا في

---

1 – عن ابن عباس "ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة" يعني مؤمني أهل الكتاب فإنهم كانوا مع الإيمان بالله متمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التي أنزلت فيهم فقال الله: "ادخلوا في السلم كافة" يقول ادخلوا في شرائع دين محمد صلى الله عليه وسلم ولا تدعوا منها شيئا. ابن كثير ج1/ 249.

الإسلام كافة بجميع أجزائه يفسره حديث (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[1] أو خطاب لكل إنسان أن يُدخِل جميع أعضائه الإسلام، يدخل في الإسلام بكافة أعضائه فلا يمشي إلا إلى ما أمر الله به، ولا يبطش بيديه إلا بأمر الله، ولا ينظر بعينيه إلا بأمر الله، ولا يتكلم بلسانه ولا يأكل في جوفه ولا يتناول شهوة فرجه إلا موافقا لأمر الله تبارك وتعالى، هذا هو الدخول في الإسلام كافة. هذا دخول النفس، والقلب يتخلى عن جميع الأخلاق الذميمة ويتحلى بجميع الأخلاق الحميدة، والروح يترك الالتفات إلى غير الله تبارك وتعالى، والسر يفنى في ذات الله تبارك وتعالى ولا يرى غيره، هذا هو الدخول في الإسلام كافة ﴿فَإِن زَلَلْتُمْ﴾ ملتم عن الدخول في جميعه ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحجج الظاهرة على أنه حق ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء عن انتقامه منكم ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرون أي تاركو الدخول في الإسلام كافة ﴿إِلاَّ أَنْ يَّأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أمْر الله تبارك وتعالى ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جمع ظلة ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ السحاب ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ﴾ وهو إتيان الملائكة ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ فتم أمر هلاكهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ فيجازي كل عبد بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر. ﴿سَلْ﴾ يا محمد ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ تبكيتا ﴿كَمْ ءاَتَيْنَاهُم مِّنْ ءاَيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ ما عدد ما وجدوا من الآيات الظاهرة كفلق البحر وإنزال المن والسلوى، وكل هذه الآيات بدلوها كفرا ﴿وَمَنْ يُّبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ ما أنعم به عليه من الآيات لأنّها سبب للهداية ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ كفرا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ له ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ نزل في كفار

---

1 - (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (10).

مكة كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويسخرون منهم كبلال وعمار وصهيب فقال تعالى «زين للذين كفروا» من أهل مكة ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بالتمويه فأحبوها، كانوا يحبون الدنيا ويرونها كل شيء، إذا وجدوا المال وجدوا ما أحبوا وظنوا أن كل شيء تم لهم فلا يلتفتون لأخراهم ولا إلى مولاهم ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ هم بذلك يسخرون ﴿مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لفقرهم ﴿وَ﴾ يستهزئون بفقراء المسلمين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْاْ﴾ الشرك وهم هؤلاء ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وهؤلاء المساكين الذين يستهزئون بهم ويضحكون منهم يكونون فوقهم يوم القيامة في درجات الجنة وهم في الدرك الأسفل من النار ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رزقا واسعا في الآخرة بخلاف الدنيا فإنّها محدودة وكل ما فيها محدود، والله تبارك وتعالى يرزق أولياءه رزقا بغير حساب، ذكر الله في هذه الآية أن أهل التقوى يكونون فوق الناس يوم القيامة وكل من رغب إلى هذه الفوقية فليقتد برسول الله صلى الله عليه وسلم في ترك الدنيا وما فيها. الرسول صلى الله عليه وسلم أتِيَ بخزائن الأرض وجلبت إليه أخماس الغنائم وأهدته الملوك شرقا وغربا الأموال الطائلة وما أمسك درهما واحدا لنفسه من هذا، بل أغنى غيره وقوى المسلمين بما أعطاه الله وترك نفسه حتى أنه صلى الله عليه وسلم مات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله[1]. هذه الفوقية من رامها لابد أن يزهد في الدنيا ويقبل على الله تبارك وتعالى ويختار ما عند الله ويكون أحب إليه مما عند الناس ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كان الناس قبل بعث

---

1 – عن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعا من شعير. صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب ما قيل في درع النبي والقيمص في الحرب (2916).

الأنبياء على أمة واحدة دين واحد وهو الإيمان فاختلفوا بأن آمن بعض وكفر بعض ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من آمن بالجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من كفر بالنار ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ الكتب ﴿بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ من الدين ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ الدين ﴿إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي الكتاب فآمن بعض وكفر بعض ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحجج الظاهرة على التوحيد ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ﴾ أي مما اختلفوا ﴿فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ إلى الحق ﴿بِإِذْنِهِ﴾ هذه العبارة فيها قلب وتقديم وتأخير إنّما هدى الله الذين آمنوا من الخلاف إلى الحق ما هداهم من الحق إلى الخلاف بل من الخلاف إلى الحق، اللام في محل من ومن في محل اللام وهذا يقع في كلام العرب، والقرآن نزل عربيا كل ما ينطق به العرب ينطق به القرآن ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَّشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق الحق، الله تبارك وتعالى أخذ العهد على ذرية آدم "ألست بربكم قالوا بلى" فكلهم يولد على هذا الإيمان فلهذا ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[1] ولم يقل يسلمانه الإنسان مولود على الإسلام، إذا كفر إلى النصرانية أو إلى اليهودية فهو مرتد وأما إذا بقي على الإسلام فقد بقي على الفطرة "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ﴾ نزل في جهد أصاب المسلمين، المسلمون في بداية أمرهم أوذوا بأنواع الإذاية، واجههم الكفار بكل أذى حتى أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة، وبعد ذلك هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة

---

1 - (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء) صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ ما قيل في أولاد المشركين (1385).

إلى المدينة المنورة وما زال الكفار يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأشد ما لقي من الكفار يوم الخندق تنادى الكفار من جميع النواحي إلى المدينة وهم مجاورون لأعدائهم اليهود، والمنافقون من بينهم فيجدون إذاية شديدة من اليهود لهم، وصفهم القرآن "وبلغت القلوب الحناجر" فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرج الله عليهم فقال: كان من قبلكم يؤذى أحدهم في دينه فيوضع المنشار على رأسه فيشق حتى يشق فلقتين ولا يصده ذلك عن دينه، وكان أحدهم يؤخذ له مشط من النار يفصل بين جلده ولحمه حتى يسلخ جلده وهو حي ولا يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه[1] وكل رسول أرسله الله أوذي وأوذي قومه حتى قال متى نصر الله حتى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ﴾ شبه ما أتى ﴿الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من المؤمنين من المحن فتصبروا كما صبروا ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ﴾ شدة الفقر

1 – أخرج البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت قال شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله لَيَتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون). كتاب الإكراه/ باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر (6943). وفي كتاب المناقب/ باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة (3852).

= وذكره البخاري أيضا من حديث عدي ـــ وهو حديث طويل ـــ ومنه: (... قال فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله) الحديث. صحيح البخاري: كتاب المناقب/ باب علامات النبوة في الإسلام (3595).

﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ المرض ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أزعجوا بأنواع البلاء ﴿حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ﴾ حتى قال الرسول ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ﴾ استبطاء للنصر لتناهي الشدة عليهم ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ متى يأتي نصر الله الذي وعدناه؟ فأجيبوا من قِبل الله ﴿أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قريب إتيانه، هذه سنة الله تبارك وتعالى "ولن تجد لسنة الله تبديلا" ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ السائل عمرو بن الجموح[1] كان شيخا ذا مال فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماذا ينفق وعلى من ينفق «يَسْأَلُونَكَ» يا محمد «مَاذَا يُنفِقُونَ» الذي ينفقونه ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من أي مال قليل أو كثير هذا فيه بيان المنفَق الذي سأل عنه السائل ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ أجاب عن المصرف الذي هو الشق الآخر ﴿وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الإنسان ينفق من ماله ما قل أو كثر ما شاء فقط ومصرف الصدقات للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل هم أولى به ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ إنفاق أو غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فمجاز عليه. والإنفاق كل ما أنفق الرجل يقول الرسول صلى الله عليه وسلم لا تقصر عن شيء تقدر عليه ولو بشق تمرة[2] ولو بأن تفرغ الدلو في إناء أخيك ولو قابلته بكلمة طيبة وبشاشة وجه[3] كل هذه صدقات ولو أن تسعى معه في حاجته قضيت أو لم تقض كل هذه صدقات. «وما

---

1 - تفسير الجلالين ج205/1

2 - (اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة) متفق عليه، صحيح البخاري كتاب الأدب/ باب طيب الكلام (6023)، صحيح مسلم كتاب الزكاة/ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (1690).

3 - عن جابر قال صلى الله عليه وسلم (كل معروف صدقة وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك) سنن الترمذي: كتاب البر والصلة / باب ما جاء في طلاقة الوجه (1893).

تفعلوا من خير فإن الله به عليم» فمجاز عليه. ﴿كُتِبَ﴾ فُرض ﴿عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ للكفار ﴿وَهْوَ كُرْهٌ﴾ مكروه ﴿لَكُمْ﴾ طبعا لمشقته. لما أوجب الله علينا الجهاد شق على نفوس المسلمين هذه الفريضة ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهْوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهْوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لميل النفس إلى الشهوات الموجبة لهلاكها ونفورها عن التكليفات الموجبة لسعادتِها فلعل لكم في القتال إن كرهتموه خيرا لأن فيه إما الظفر والغنيمة أو الشهادة والأجر، وفي تركه وإن أحببتموه شرا لأن فيه الذل والفقر وحرمان الأجر ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ فبادروا إلى ما يأمركم به ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ سبب نزول هذه الآية أرسل النبي صلى الله عليه وسلم أول سراياه وعليها عبد الله بن جحش معه ثمانية فقاتلوا المشركين وقتلوا ابن الحضرمي آخر يوم من جمادى الآخرة والتبس عليهم برجب فعيرهم الكفار باستحلاله. أرسل النبي صلى الله عليه وسلم قبل بدر بشهرين ثمانية من أصحابه وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتابا وختمه وكتب له كتابا آخر يقول له: سر باسم الله على بركة الله ولا تفتح هذا الكتاب إلا بعد أن تسير يومين فإذا سرت يومين فافتح الكتاب ولا تكره أحدا على المسير معك من أحب السفر معك فليسافر ومن أحب الرجوع فليرجع. فلما سار يومين فتح الكتاب فوجد فيه (بسم الله سر على بركة الله حتى تأتي بطن نخلة – محل بين الطائف ومكة – فإذا لقيت عير قريش فلعلك تأتينا منهم بخير[1] فساروا إلى أن وصلوا إلى بطن نخلة آخر يوم من جمادى الآخرة قبل رجب وهو شهر محرم فيه القتال، لما رآهم الكفار قال لهم عبد الله بن جحش: احلقوا رأس واحد منكم

---

1 – راجع تفسير ابن كثير ج253/1.

فحلقوا رأس أحدهم، فلما رأوه محلوق الرأس قالوا هؤلاء قوم جاءوا للعمرة فقط، فأمِنوا فانقض عليهم الصحابة فرمى واقد[1] عمرا بن الحضرمي فوقع ميتا وهو أول قتيل من المشركين، وهذا أول قاتل في سبيل الله، وفر نوفل وأسروا عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وغنموا بعيرين وكثيرا من المير فأتوا به إلى المدينة. فعير كفار قريش الرسولَ صلى الله عليه وسلم قالوا له: تقاتل في أرض الحرم وفي الأشهر الحرم وصاروا يعيرون المسلمين الذين بمكة رسولكم هذا أيها الصباة صار يستحل الأشهر الحرُم وحرَمَ اللّهِ تبارك وتعالى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أمرتُهم بالقتال في الأشهر الحرم فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ المحرم ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ عظيم ﴿وَصَدٌّ﴾ منع الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه الذي هو عملهم هم ﴿وَكُفْرٌ بِهِۦ﴾ وكفر بالله تبارك وتعالى ﴿وَ﴾ صد عن ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ وهم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون الذين معه، هم أهل المسجد وأخرجوهم من مكة، هذا ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم وزرا ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ تبارك وتعالى من القتال في الحرم[2] ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشرك منكم

---

[1] - هو واقد بن عبد الله التميمي كما في الجامع لأحكام القرآن ج3/42

[2] - أورد القرطبي ج3/ ص46 أبياتا لعبد الله بن جحش ردا على المشركين في تعييرهم المسلمين بانتهاكهم حرمة الأشهر الحرم:

[تعدّون قتلا في الحرام عظيمـــة   وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكُمُ عمـــا يقـــول محمد   وكفـــر به والله راء وشـــاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهلـــه   لئلا يُـــرى لله في البيت ساجـــد
فإنـــا وإن عيرتمـــونـــا بقتله   وأرجف بالإسلام باغ وحاســـد
سقينا من ابن الحضرمي رماحنـــا   بنخلة لما أوقـــد الحرب واقـــد

﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لكم ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ الكفار ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ إلى الكفر ﴿إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾ هذا لا يزول أبدا، الكفار لا يزالون يقاتلون المؤمنين ليردوهم إلى الكفر إذا قدروا على ذلك ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصالحة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ فلا اعتداد بها ولا ثواب عليها والتقييد بالموت عليه يفيد أنه لو رجع إلى الإسلام لم يبطل عمله فيثاب عليه ولا يعيده كالحج مثلا وعليه الشافعي.

فلما نزلت هذه الآية فرح المسلمون، علموا أنهم برئوا من الذنب في عملهم هذا ولكن ليس لهم رجاء في الثواب وأوقفوا الغنيمة ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ المرتدون. فنزل ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ فارقوا أوطانهم ﴿وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ ثواب الله ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ للمؤمنين ﴿رَحِيمٌ﴾. وكان النبي صلى الله عليه وسلم أوقف الغنيمة فأخذ الخمس لنفسه وقسم الباقي للذين حضروا السرية.

الله تبارك وتعالى وصف المؤمنين بالهجرة، والهجرة هجرتان هجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام وقد انتهت هذه الهجرة بفتح مكة (لا هجرة بعد الفتح)[1] وهجرة من أوطان النفس من الشهوات البشرية إلى عبادة الله تبارك وتعالى وهذه لا تنتهي أبدا. والجهاد جهادان جهاد أصغر وجهاد أكبر قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) قالوا: الضرب بالسيوف هو

دماً وابن عبد الله عثمان بيننـــــا ينازعه غل من القد عانـــــد]

1 – متفق عليه صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب فضل الجهاد والسير (2783) ورواه مسلم في صحيحه: كتاب الإمارة/ باب المبايعة بعد فتح مكة (3468).

الجهاد الأصغر؟ قال: نعم، والجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى والشيطان[1] لأن المجاهد في الميدان الأول غايته أن يقتل بالسيف فيكون شهيدا والمجاهد في الميدان الثاني غايته أن يفنى في ذات الله تبارك وتعالى ويكون عارفا صِدّيقا والصديقون أعلى مقاما من الشهداء بدليل الآية "من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين" ذكر الصديقين قبل الشهداء. والهجرة هجرتان هجرة من أرض إلى أرض وهجرة من مألوفات النفس إلى ما يحبه الرب جل وعلا.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ نزلت في الخمر أربع آيات "ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا" هذا أول ما نزل في الخمر، هذه الآية مدحت الخمر "سكرا ورزقا حسنا" فاستباح المسلمون شرب الخمر فشربوا وهي حلال حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا رسول الله سل الله أن يبين لنا في الخمر بيانا شافيا، هذه الخمر تغيب العقل وتأتي بالمفاسد وهذا الميْسر الذي يجد فيه الإنسان المال الطائل بلا كلفة سل الله تبارك وتعالى أن يبين لنا الحكم في هذا فنزلت الآية الثانية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ما حكمهما ﴿قُلْ فِيهِمَا﴾ في تعاطيهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ عظيم لما يحصل بسببهما من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ باللذة والفرح في الخمر وإصابة المال بلا كد في الميسر، فلما نزلت هذه الآية شرب بعض الصحابة الخمر وتركها بعضهم، بعضهم قال «منافع للناس» إنه يتناول المنافع، وبعضهم قال

---

1 – عن جابر قال قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال (قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه). الجامع الكبير ج331/2. وورد (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) في إحياء علوم الدين للغزالي ج3/ 118 معزوا للبيهقي في الزهد من حديث جابر.

«فيهما إثم كبير» إن الإثم الكبير لا فائدة فيه ﴿وَإِثْمُهُمَا﴾ ما ينشأ عنهما من المفاسد ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ لما نزلت شربَها قوم وامتنع آخرون، فقال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانا شافيا، فصنع عبد الرحمن بن عوف وكان من أغنياء الصحابة وليمة للصحابة فأكلوا وشربوا الخمر فلما حضرت صلاة المغرب قدموا واحدا منهم وهو سكران فقرأ بسورة الكافرون وحذف اللاءات كلا. فقال عمر اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون" فقال بعضهم: حرمت، وقال بعضهم: لا، حرمت في أوقات الصلاة فقط فكان بعضهم يترك الخمر إذا أصبح حتى يصلي الصلوات الخمس وبعدها يتناول الخمر ويبيت سكران وإذا أصبح أصبح صاحيا ويصلي، فقال عمر: اللهم بيِّن لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت "يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنَّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون" انتهوا، فقال عمر: اللهم انتهينا اللهم انتهينا[1]. فحرمت الخمر من يومئذ واشتد تحريمها. أشد تحريم هو تحريم الخمر فلهذا قال علي كرم الله وجهه: لو

---

1 – روى عن عمر أنه لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت هذه الآية التي في البقرة "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير" فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في النساء "يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى" فكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران. فدُعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فنزلت الآية التي في المائدة فدُعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ "فهل أنتم منتهون" قال عمر: انتهينا انتهينا. مسند أحمد/مسند العشرة المبشرين بالجنة/ باب أول مسند عمر بن الخطاب (355) وفي سنن النسائي: كتاب الأشربة/ باب تحريم الخمر (5445).

صب خمر في بئر وبنيت منارة عليها لا أؤذن عليها، ولو صب في بحر فانكشف البحر ونبت حشيش لا أرعاه دوابي[1]، قال جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم إن الله مدح أربع خصال في جعفر الطيار فسأل الرسول جعفرا قال له: (ما أربع خصال مدحها الله فيك في الجاهلية؟ قال: والله يا رسول الله لولا أن الله أخبرك ما أخبرتك، أنا ما شربت الخمر قط في الجاهلية لأني أحوج إلى ما يزيد عقلي مما يزيله، والثاني ما عبدت صنما قط لأني رأيته لا يضر ولا ينفع والثالث ما زنيت قط في الجاهلية لأني غيور لا أحب من يَمس نسائي ولا بناتي، وما لا أحب أن يفعل بي لا أفعله لأحد، والرابع ما كذبت قط لأني رأيت أن الكذب دناءة[2].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ ما قدره ﴿قُلِ﴾ لهم انفقوا ﴿الْعَفْوَ﴾ أي الفاضل عن الحاجة ولا تنفقوا ما تحتاجون إليه وتضيعوا أنفسكم، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (ابدأ بنفسك ثم بِمن تعول أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[3] ومع ذلك

---

1 - عن علي رضي الله عنه: لو وقعت قطرة في بئر وبنيت مكانها منارة لم أؤذن عليها ولو وقعت في بحر ثم جف ونبت لم أرعه. من حاشية النسفي على تفسير الخازن ج1/ 146. وورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لعنت الخمر وشاربُها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وآكل ثَمنها وحاملها والمحمولة إليه) مسند ابن عمر من الجامع الكبير للسيوطي ج2/ 494.

2 - الحكاية أوردها البروسوي في روح البيان ج339/1.

3 - (أفضل الصدقة أو خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول) أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى (1716)، صحيح البخاري: كتاب الزكاة/ باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (1426). وروي (ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك، فإن فضل

أنفق أبو بكر جميع ماله وأقره الرسول صلى الله عليه وسلم. طلب النبي صلى الله عليه وسلم يوما الإنفاق في سبيل الله قال عمر فوافق مالا عندي وافق أني وجدت ثمانية آلاف دينار قلت كل خير جاء يسبقني إليه أبو بكر واليوم لابد أن أسبق أبا بكر، قال فأخذت أربعة آلاف دينار نصف ما عندي من المال وجئت به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قلت له كان عندي ثمانية آلاف دينار أربعة جعلتها في سبيل الله وأربعة أبقيتها لعيالي يكون هذا لي عند الله تبارك وتعالى. فجاء أبو بكر وقال: كل ما لي من المال صدقة في سبيل الله. قال الرسول: ما تبقي لعيالك؟ قال: يكفيهم الله ورسوله. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: بينكما ما بين كلمتيكما[1]، هذا قال إنه أبقى نصف ما عنده لعياله، وأبو بكر قال: يكفيهم الله ورسوله، قال عمر: والله لا أسابقك بعد هذا اليوم أبدا. هذا الدليل على أفضلية أبي بكر على عمر؛ ولكن الأفضلية من كل وجه لم تكن إلا للرسول صلى الله عليه وسلم أما غير الرسول فإذا كان فاضلا من جهة يكون مفضولا في جهة. وكان أبو بكر الغالب عليه حال المعرفة، وعمر الغالب عليه حال الشريعة، وعثمان الغالب عليه الطريقة، وعليٌّ الغالب عليه الحقيقة، وإن كان كلهم كاملا في جميع الأمور

عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا". للنسائي عن جابر حديث صحيح. سنن النسائي: كتاب الزكاة/ باب أي الصدقة أفضل (2499).

1 - ورد في إحياء علوم الدين للغزالي قوله صلى الله عليه وسلم: (بينكما ما بين كلمتيكما) ج1/ 283. ط/ دار الجيل. وجاء في الجامع الكبير من مراسيل الحسن البصري عن الحسن أن أبا بكر أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة فأخفاها فقال يا رسول الله هذه صدقتي ولله عندي معاد، وجاء عمر بصدقته فأظهرها فقال يا رسول الله هذه صدقتي ولي عند الله معاد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وترت قوسك بغير وتر ما بين صدقتيكما كما بين كلمتيكما. رواه أبو نعيم في الحلية. الجامع الكبير ج2/771، ج1/970.

الأربعة، فلهذا أبو بكر هو أفضل الصحابة ولكن يفضله بعض الصحابة في بعض الأشياء. وتجد الناس متفاوتين، تجد هذا كاملا من هذا الوجه ناقصا من هذا الوجه، فائقا في هذا، ووجوه الخير كثيرة كل ما يوافق الإنسان يكون هو بابه، تجد عبداً لله فتح الله عليه في الصلاة و لم يفتح عليه في الصيام، ومن فتح عليه في الصيام و لم يفتح له في ذكر الله، ومن فتح عليه في الذكر و لم يفتح له في الصدقات، ومن فتح له في الصدقة و لم يفتح له في التلاوة، كل ما فتح الله عليك فالزم ذلك الباب فقط تجد الخير. الله أحب من العبد أن يعمل الخير فقط "وافعلوا الخير لعلكم تفلحون" ﴿كَذَلِكَ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي﴾ أمر ﴿الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ الله بين كل آية ليكون العبد متفكرا في جميع الأحوال في الدنيا والآخرة فتأخذون بالأصلح لكم فيهما. الله تبارك وتعالى آياته أقسام: آيات باهرات كمعجزات الأنبياء، وآيات خارقات للعوائد كالرعود والبروق ونزول الأمطار هذا كلما تجدد عند العبد يعلم أن هذا آية من آيات الله، وكسوف الشمس والقمر إلى غير ذلك، وآية في كل ذرة لا تجد ذرة في الوجود إلا وهي آية من آيات الله تبارك وتعالى..

[وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد][1]

فالإنسان العاقل لا يرى شيئا إلا ورأى آية وتفكر في الدنيا والآخرة فإن الدنيا عنوان الآخرة والظاهر عنوان الباطن، فإذا رأيت شيئا جميلا يذكرك بالحور العين

---

1 – البيت لابن المعتز وهو ثاني بيتين له ذكرهما ابن كثير ج25/1 وهما:

[فيا عجبا كيف يعصى الإلـــــه أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آيـــــة تدل على أنـــه واحـــد]

وما في الجنة من شيء حسن أو يذكرك أعلى من ذلك جمال الله تبارك وتعالى ووجه رسوله صلى الله عليه وسلم، وإذا رأيت شيئا قبيحا تتذكر منكرا ونكيرا، وإذا سمعت ردا تتذكر الرد عند الله تبارك وتعالى، وإذا رأيت قبولا يذكرك بالقبول عند الله تبارك وتعالى، وإذا رأيت إقبالا يذكرك بإقبال الله عليك، وإذا رأيت إعراضا يذكرك بإعراض الله عنك فتستعيذ بالله من ذلك، كل ما رأيت من الظاهر فهو عنوان ما عند الله تبارك وتعالى من الباطن، فلهذا قال في هذه الآية إنه بين لنا الآيات بجميع وجوهها لنتفكر في الدنيا والآخرة.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ وما يلقونه من الحرج في شأنهم، لما نزلت آية "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنّما يأكلون في بطونِهم نارا وسيصلون سعيرا" شكوْا من أمر اليتامى قالوا ما نفعل بأموال اليتامى أنخلط أموالهم بأموالنا فنتحرج أو نعزل أموالهم وإذا عزلناها ضاعت وكيف نصنع لهم طعاما وكذا تحرجوا في شأن اليتامى قال تعالى «ويسألونك عن اليتامى» ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ في أموالهم بتنميتها ومداخلتكم ﴿خَيْرٌ﴾ من ترك ذلك ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ تخلطوا نفقتكم بنفقتهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم في الدين ومن شأن الأخ أن يخالط أخاه فلكم ذلك. للإنسان أن يجعل مال يتيمه في ماله ويحفظه له حتى إذا بلغ رشده يسلم له ماله ويأخذ منه نفقته وكسوته ويحسبها عليه وما بقي يسلمه له عندما يقوى ويبلغ رشده هذا هو الأصلح في شأن اليتامى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم عند المخالطة، من قصد الإفساد علمه الله ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ ومن قصد الإصلاح أيضا علمه الله فيجازي كلا منهما ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ لضيق عليكم بتحريم المخالطة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه. ورد في فضائل الإنفاق على اليتيم قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من صنع طعاما وأحضر معه

يتيما وجبت له الجنة)[1] وقوله: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة)[2] وأشار بالسبابة والوسطى.

وكيف يفعل المرء إذا كفل اليتيم هل يضربه تأديبا أو لا يضربه لأنه ورد وعيد شديد في ضرب اليتيم، ولكن ليس هذا في الضرب لتربيته وإصلاحه فإنه رب لكمة خير لليتيم من لقمة حلوة أكلها. فمن ضربه تأديبا وطلبا لاسْتقامته فلا حرج في ذلك ولا إثم ومن ضرب اليتيم لضعفه فقط فذلك هو الآثم ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ سبب نزولها كان واحد من الصحابة تزوج بأمة وهو عبد الله بن رواحة وحذيفة بن اليمان كلاهما كان يملك أمة فأعتقها وتزوج بها فعير بذلك لم لا يتزوج حرة كفء له ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ﴾ الكافرات ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ حرام تزويج المسلم للكافر ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ حرة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لجمالها ومالها وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية "والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب" التي نزلت في آخر سورة نزلت، من أراد أن يتزوج فليختر مسلمة مؤمنة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها

---

1 – من ضم يتيما بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغني عنه وجبت له الجنة البتة .. الحديث مسند أحمد: مسند الكوفيين/ حديث مالك بن الحارث (18252)

2 – أخرج الترمذي عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين) وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى. سنن الترمذي: كتاب البر والصلة/ باب ما جاء في رحمة اليتيم وكفالته (1841)، وللبخاري في صحيحه (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئا) صحيح البخاري: كتاب الطلاق/ باب اللعان (5304). وعن أبي هريرة عند مسلم: (كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة) كتاب الزهد والرقائق/ الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (5296).

وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)[1] من أراد أن يتزوج فلينظر إلى ذات الدين ولو كانت دميمة فهي أفضل من جميلة لا دين لها، وإن كانت مملوكة أو معتوقة ديّنة فهي أفضل من نسيبة غنية لا دين لها. كان واحد من الصالحين عنده بنت بارعة فخطبها الرجال من كل النواحي وكان عنده عبد أسود يقال له مبارك، والد عبد الله بن المبارك، فدعاه وقال له أنا أشاورك بنتي بلغت سن التزويج وخطبها الرجال كلا وأنا أحب أن تشير لي برأي فيها، قال له العبد: أنت من العرب، العرب يختارون النسب الرفيع، وأهل زمانك يختارون الأموال، ونبيك يختار الدين فقط. فقال له: أختار ما اختار النبي صلى الله عليه وسلم وما رأيت أحدا أحسن دينا منك عندي زوجتك إياها، هذا والد عبد الله بن المبارك الذي طبق الآفاق بالعلم ﴿وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ﴾ الكفار ﴿حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ لماله وجماله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أهل الشرك ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ بدعائهم إلى العمل الموجب لها فلا تليق مناكحتهم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُواْ﴾ على لسان رسله ﴿إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ العمل الموجب لهما ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بإرادته فتجب إجابته بتزويج أوليائه ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ سبب نزول هذه الآية كانوا إذا حاضت المرأة يعتزلونها، يخرجوها من البيت وبعضهم لا يتجنب المرأة وقت حيضها فسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم

---

1 – رواه الشيخان عن أبي هريرة بلفظ: تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك). صحيح البخاري كتاب النكاح/ باب الأكفاء في الدين (4700) وفي صحيح مسلم كتاب الرضاع/ باب استحباب نكاح ذات الدين (2661) وفي رواية لمسلم عن جابر بن عبد الله قال: (إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها فعليك بذات الدين تربت يداك) (2662).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الحيض أو مكانه ماذا يفعل بالنساء فيه ﴿قُلْ هُوَ﴾ الحيض ﴿أَذًى﴾ قذر أو محله ﴿فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ﴾ أي اتركوا وطأهن ﴿فِي الْمَحِيضِ﴾ وقته أو مكانه ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بالجماع ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ يغتسلن بعد انقطاعه ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بالجماع ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ بتجنبه في الحيض وهو القبل ولا تتعدوه إلى غيره ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ يثيب ويكرم ﴿التَّوَّابِينَ﴾ من الذنوب ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ من الأقذار ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول اليهود كان اليهود يقولون للمسلمين من أتى امرأته في القبل من جهة الدبر يأتي الولد أحول ويأتي أحمق فسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال «نِسَاؤُكُمْ» أزواجكم «حَرْثٌ لَّكُمْ» محل زرعكم فقط لأنه محل زرع الولد ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ﴾ محله وهو القبل ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ كيف شئتم من قيام أو قعود واضطجاع وإقبال وإدبار كل هذا رد لقول اليهود من أتى امرأته في قبلها من جهة دبرها جاء الولد أحول، وكيفية السنة أن تضجع المرأة على ظهرها ويأتيها الرجل من أعلاها كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل[1] ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ العمل الصالح كالتسمية عند الجماع بسم الله الرحمن الرحيم اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا[2]، من قال هذا عند الجماع إن قدر الله ولدا يكون محفوظا من الشيطان ويكتب لوالده بعدد أنفاسه كل نفس

---

1 – انظر حاشية الصاوي على الجلالين ج218/1 (دار الفكر)

2 – (لو أن أحدكم إذا أتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره). رواه الشيخان عن ابن عباس واللفظ للبخاري: كتاب الوضوء/ باب التسمية على كل حال وعند الوقاع (141) ولمسلم في كتاب النكاح/ باب ما يستحب أن يقول عند الجماع (2591).

حسنة والحسنة خير من الدنيا وما فيها فلهذا قال «وقدموا لأنفسكم» العمل الصالح وهو التسمية عند الجماع ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في أمره ونهيه ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ﴾ بالبعث فيجازيكم بأعمالكم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين اتقوا بشرهم بالجنة ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللَّهَ﴾ الحلف بالله ﴿عُرْضَةً﴾ علة مانعة ﴿لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ﴾ أن لا تبروا ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ كان حلف واحد أن لا يفعل وبعد ذلك لما أراد العود إلى ما كان يفعل قال منعني الحلف أني حلفت بالله فنزلت هذه الآية لا تجعلوا الحلف علة تمنعكم من أن تفعلوا البر ﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وهو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد، عند الشافعية: لا والله، بلى والله، وعند المالكية من تيقن بشيء فأقسم عليه فبان خلافه ﴿وَلَكِنْ يُّؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قصدته من الأيمان إذا حنثتم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما كان من اللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن مستحقها ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ يحلفون ألا يجامعوهن ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِن فَاءُو﴾ أرادوا الرجوع إلى الجماع بعد اليمين[1] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «غفور» لهم ما أتوه من ضرر المرأة بالحلف، «رحيم» بهم إذا أرادوا العود يأتون بالكفارة فقط فتحل لهم أزواجهم، من أقسم أنه لا يجامع امرأته مدة الدنيا يوقف أربعة أشهر، بعد أربعة أشهر إما أن يكفّر عن يمينه وإما أن تطلق عليه امرأته هذا في جميع أنواع الحلف. والأشدية التي يقول الفقهاء أنا ما عرفتها، ليس في الكتاب ولا في السنة. ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ﴾ بأن لم يفيئوا فليوقعوه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ

1 – "فإن فاءوا" أي رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع. قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله تعالى. ابن كثير ج1/ 269

سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعزمهم ليس بعد تربص ما ذكر إلا الفيئة أو الطلاق ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ لينتظرن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ عن النكاح ﴿ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ﴾ تمضي من حين الطلاق إذا حاضت وطهرت، وحاضت وطهرت، وحاضت وطهرت، هذه ثلاثة قروء ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد أو الحيض ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أزواجهن ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ بمراجعتهن ولو أبين ﴿فِي ذَلِكَ﴾ في زمن التربص ﴿إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً﴾ بينهما لا ضرار المرأة وهو تحريض على قصده لا شرط لجواز الرجعة ﴿وَلَهُنَّ﴾ على الأزواج ﴿مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾ للمرأة حق على الرجل كما أن الرجل له حق على المرأة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعا من حسن العشرة وترك الضرر ونحو ذلك ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فضيلة في الحق من وجوب طاعتهن لهم لما ساقوه من المهر والإنفاق ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما دبره لخلقه. أمر الله تبارك وتعالى بحسن العشرة مع النساء، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إنه لا خير في النساء ولا صبر عنهن (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب بلب الرجل الحازم من إحداكن)[1] إذاً عاشروهن وشاوروهن لحسن العشرة وخالفوهن لأنّهن ناقصات العقول[2]. كان

---

1 - الحديث: (يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار فقالت امرأة منهن جزلة: ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن. قالت يا رسول الله: وما نقصان العقل والدين؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالي ما تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين) صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات (114).

2 - أورد الإمام الغزالي في الإحياء قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة. وقد قيل شاوروهن وخالفوهن. الإحياء ج102/2.

واحد في زمن بعض الأنبياء طلب من نبي ذلك الزمن أن يدعو الله له فدعا اللَّهَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال الله لنبيه قل لفلان إني أعطيته ثلاث حوائج يتمنى ما شاء، ثلاثة أشياء يجدها كما يتمنى. فقال حتى أشاور زوجتي فأتى وقال لها: كنا نطلب من الله طلبا واليوم جاء الطلب من عند الله إنه أعطاني ثلاث حاجات نطلبها من الله، قالت المرأة: الأولى أن يجعلني أجمل نساء العالم، فدعا فصارت أجمل نساء العالم جمالها ملأ البيت فقامت تتهيأ قال لها: إلى أين؟ قالت: إلى ملك يصلح لي، قال لها: أتوسل إليكِ لا تفعلي هذا وألح عليها، فأصرت على أن تذهب إلى ملك ذلك الزمان. فقال: اللهم الحاجة الثانية أن تمسخها قِرْدة، فرجعت قردة. فُقدت حاجتان صارت تبكي قال: ما الرأي الآن؟ قالت: تسأل الله أن يردني إلى حالتي وأبقى معك، فسأل الله فعادت إلى حالتها فبقيت معه. فُقدت الحوائج كلا لم يجد شيئا لحماقة زوجته[1]. ﴿الطَّلاَقُ﴾ التطليق الذي يراجع بعده ﴿مَرَّتَانِ﴾ من طلق امرأة فله أن يتزوجها مرة ثانية وإن طلقها ثانية فله أن يتزوجها[2] ﴿فَإِمْسَاكٌ﴾

---

1 – جاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس قوله في قوله تعالى " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها" قال هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة له منها ولد، فقالت اجعل لي منها واحدة قال فلك واحدة فما الذي تريدين؟ قالت ادع الله لي أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل. فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة، فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس لنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بِها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث. وتسمى البسوس . تفسير ابن كثير ج2/ 266.

2 – روى هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته: لا أطلقك أبدا ولا آويك أبدا. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك. فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل "الطلاق مرتان". ابن كثير 272/1.

فعليكم إمساكهن بعده، بعد الطلاق الثاني ليس إلا الإمساك فقط ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ من غير ضرر ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ إرسال لهن ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ إن زاد طلقة أخرى أبتّها ﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهور ﴿شَيْئاً﴾ لا يجوز للرجل أن يطلق امرأة ويأخذ شيئا من متاعها الذي أعطى لها قبل ﴿إِلاَّ أَنْ يَّخَافَا﴾ الزوجان ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إلا إذا كان سبب الطلاق أنّهما خافا من أنهما لا يقيمان حدود الله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ إن كان الرجل لا يريد طلاق امرأته والمرأة نشزت وأبت البقاء مع الزوج حتى تحققا أنّهما عجزا عن إقامة حدود الله بالبقاء معا فيجوز الخلع أن تفتدي المرأة نفسها من البعل بالمال سواء الصداق أو أقل أو أكثر هذا هو السبب في الخلع. جاءت إحدى الصحابيات إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكانت صالحة قالت له يا رسول الله أنا زوجي لا أنقم منه دينا ولا شيئا ويقوم بالواجب عليه إلا أني لم أعد أحبه. قال لها: ما السبب في ذلك؟ قالت: لا شيء إلا أني رأيته مقبلا مع أصحابه فنظرت إليه فإذا هو أقصرهم وأقبحهم وجها ولكن ما رأيت فيه شيئا ينكر إلا أني لا أبقى معه. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أصدقك بمال؟ قالت: نعم أصدقني بحديقة نخل، قال: تردين إليه حديقته؟ قالت: نعم وأزيد عليها قال صلى الله عليه وسلم: ردي إليه حديقته فردت الحديقة إلى الزوج وطلقت هذا هو الأصل في الخلع[1] ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَّتَعَدَّ

---

1 – عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج بعد الثنتين ﴿فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ﴾ الطلقة الثالثة ﴿حَتَّى تَنكِحَ﴾ تتزوج ﴿زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ويطأها كما في الحديث الذي رواه الشيخان: يروى أن امرأة من الصحابة جميلةً جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت إن زوجي طلقني ثلاثا وبت طلاقي وتزوجني رجل آخر فوجدته لا يقدر أن يأتيني فإن ما معه مثل هدبة الثوب قال الرسول صلى الله عليه وسلم تريدين العود إلى الزوج الذي أبت طلاقك؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك)[1]. يعني الجماع. فأتت في الغد وقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: وقع ما كنت تقول لي ذاق مني وذقت منه، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: كذّبك قولك الأول إن ما معه مثل هدبة الثوب. فمنعها الرسول صلى الله عليه وسلم من العود إلى الزوج الأول[2]. والزوج الثاني الذي ادعت أنه عاجز عن الجماع قال: يا رسول الله ما أكذبَها إني أنفضها كنفض الأديم فجاء بولدين ولدهما له، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: هذان الولدان أشبه بأبيهما من

أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة. صحيح البخاري: كتاب الطلاق/ باب الخلع وكيف الطلاق فيه (5273)

1 - "عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي النبي صلى الله عليه وسلم فقالت كنت عند رفاعة فطلقني فأبت طلاقي فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير إنما معه مثل هدبة الثوب فقال أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك". البخاري: كتاب الشهادات/ باب شهادة المختبي (2639) وفي صحيح مسلم: كتاب النكاح/ باب لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتى تنكح زوجا غيره (2587).

2 - ذكره ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عند شرحه للحديث رقم (5317) عند قوله: وزاد ابن جريج عن الزهري في هذا الحديث أنها قالت: يا رسول الله إنه كان مسني فقال: كذبت بقولك الأول فلن أصدقك في الآخر، وأنها أتت أبا بكر وعمر فمنعاها.

الغراب بالغراب[1]، وهي كانت تحب العود إلى زوجها الأول فمنعها الرسول صلى الله عليه وسلم فأتت في زمن أبي بكر فمنعها أبو بكر فأتت في زمن عمر فقال عمر: حضرتُ مجيئكِ للرسول صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر ولئن أردت العود إلى زوجك الأول لأرجمنك. ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الزوجة والزوج الأول ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ إلى النكاح ﴿إِن ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ﴾ المذكورات ﴿حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن انقضاء عدتِهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بأن تراجعوهن قبل انقضاء العدة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ من غير ضرار ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ اتركوهن حتى تنقضي عدتُهن. إذا انقضت العدة بانت ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ﴾ بالرجعة ﴿ضِرَارًا﴾ لكن الرجعة للصلح فقط أما الرجعة لقصد الضرار فلا تفعلوها ﴿لِتَعْتَدُواْ﴾ عليهن بالإلجاء إلى الافتداء والتطليق وتطويل الحبس ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها إلى عذاب الله ﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا﴾ مهزوءا بها بمخالفتها ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ ما فيه من الأحكام ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ بأن تشكروها بالعمل به ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ سبب نزول هذه الآية أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها وبعد ذلك عاود مراجعتها ورضيت هي وامتنع أخوها فنزلت[2] ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن انقضاء عدتِهن ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أيها الأولياء لا تمنعوهن ﴿أَنْ يَنكِحْنَ

---

1 – صحيح البخاري: كتاب اللباس/ ثياب الخضر (5825).

2 – صحيح البخاري: كتاب النكاح/ باب من قال لا نكاح إلا بولي (5130).

﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ المطلقين لهن ﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ﴾ الأزواج والنساء ﴿بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعا ﴿ذَلِكَ﴾ النهي ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لأنه المنتفع به ﴿ذَلِكُمْ﴾ ترك العضل ﴿أَزْكَى﴾ خير ﴿لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ لكم ولهن لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه المصلحة ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فاتبعوا أمره. ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ الأمهات ﴿يُرْضِعْنَ﴾ ليرضعن ﴿أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ عامين ﴿كَامِلَيْنِ﴾ صفة مؤكدة ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ ولا زيادة عليه ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ وهو الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ إطعام الوالدات ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ على الإرضاع إذا كن مطلقات ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر طاقته ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ طاقتها ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ بسببه بأن تكره على إرضاعه إذا امتنعت ﴿وَلاَ﴾ يضارّ ﴿مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِۦ﴾ بسببه بأن يكلف فوق طاقته وإضافة الولد إلى كل منهما في الموضعين للاستعطاف ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ وارث الأب وهو الصبي ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الذي على الأب للوالدة من الرزق والكسوة ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ الوالدان ﴿فِصَالاً﴾ فطاما له قبل الحولين صادرا ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ اتفاق ﴿مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بينهما لتظهر مصلحة الصبي فيه ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ خطاب للآباء ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ﴾ مراضع غير الوالدات ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إليهن ﴿مَا ءَاتَيْتُمْ﴾ أردتم إيتاءه لهن من الأجرة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالجميل كطيب النفس ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء منه ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يموتون ﴿مِنكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ ليتربصن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ بعدهم عن النكاح ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ من الليالي وهذا في غير الحوامل فعدتُهن

أن يضعن حملهن بآية الطلاق والأمَة على النصف من ذلك بالسنة ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضت عدة تربصهن ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزين والتعرض للخُطّاب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بباطنه كظاهره ﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ﴾ لوّحتم ﴿بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المتوفى عنهن أزواجهن في العدة كقول الإنسان مثلا إنك لجميلة ومن يجد مثلك ورب راغب فيك[1]، ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أضمرتم ﴿فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من قصد نكاحهن ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بالخطبة ولا تصبرون عنهن فأباح لكم التعريض ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ نكاحا[2] ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً﴾ ما عرف شرعا من التعريض فلكم ذلك ﴿وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ على عقده ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَٰبُ﴾ المكتوب من العدة ﴿أَجَلَهُ﴾ بأن ينتهي ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من العزم وغيره ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ أن يعاقبكم ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن يحذره ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن مستحقها. هذه هي عدة الوفاة أربعة أشهر وعشر ليال نَسخت "متاعا إلى الحول". كانت العدة أولا سنة تامة فنسختها الآية التي سبقتها في النظام من حكمة القرآن، والعلة في ذلك أن الله خلق آدم أربعين سنة وهو طين لازب، وأربعين سنة من حمإ مسنون، وأربعين سنة كالفخار، فهذه أربعون ثلاث مرات فنفخ فيه الروح[3]. هذا أصل خلقة آدم، لما أمر الله الروح أن

---

1 - انظره في روح البيان ج1/ 368.

2 - سأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن قوله تعالى "لا تواعدوهن سرا" قال: السر الجماع، أما سمعت قول امرئ القيس: [ألا زعمتْ بسباسة اليوم أنني كبرتُ وألا يحسن السر أمثالي] الإتقان 2/ 84.

3 - انظر القرطبي ج19/ 119.

يدخل في جسم آدم امتنع الروح حتى قال له الرب ادخل كرها وسوف تخرج كرها فدخل الروح فلما بلغ الأنف عطس آدم قال الحمد لله، هو أول من قال هذه الكلمة فشمتته الملائكة وقالت لهذا خُلقت. فلما مر الروح حتى بلغ ركبتيه أراد القيام فلهذا خاطبه الحق "خلق الإنسان من عجل"[1] فما زال يستعجل أولاد آدم، فلما عمه الروح قام يمشي وصار حيوانا بعدما كان جمادا.

أول من قال سبحان الله الملائكة حملة العرش، وأول من قال الحمد لله آدم عليه السلام، وأول من قال لا إله إلا الله نوح عليه السلام، وأول من قال الله أكبر إبراهيم، هي الباقيات الصالحات وأول من قال لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]. أصل خلقة آدم أربعون سنة ثلاث مرات فلهذا يخلق ابن آدم في بطن أمه أربعين يوما نطفة وأربعين يوما علقة وأربعين يوما مضغة ثم ينفخ فيه الروح[3] أربعون ثلاث مرات أربعة أشهر. والعدة شرعت لصون الأنساب حتى لا تختلط؛ إذا مات الرجل جلست المرأة أربعة أشهر إذا كانت حاملا لابد أن يتبين الحمل لأنه ينفخ فيه الروح والروح إذا وقع ربما يقع خفيفا في بداية الأمر ولكن إن زاد عشرة أيام لابد أن يتحرك جدا فزيد عشرة أيام

---

1 - قصص الأنبياء (العرائس) ص17.

2 - روح البيان ج36/1.

3 - ورد حديث صحيح بذلك عن ابن مسعود رضي الله عنه: قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح...الحديث. صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ذكر الملائكة (3208) صحيح مسلم: كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (4781).

على أربعة أشهر فهذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا إذا كانت حاملا إذا وضعت حملها فقد برئ رحمها. ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي تجامعوهن ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مهرا، الطلاق قبل المسيس لا باس به ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن ما يتمتعن به ﴿عَلَى الْمُوسِعِ﴾ الغني منكم ﴿قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ الضيق الرزق ﴿قَدْرُهُ﴾ يفيد أنه لا ينظر إلى قدر الزوجة بل إلى حالة الزوج فقط ﴿مَتَاعًا﴾ تمتيعا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شرعا ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ والحكمة في المتاع أن الطلاق يكسر خاطر المرأة ومن كسر خاطر مسلم ينبغي له جبره فلهذا شرع المتاع بعد الطلاق ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ إذا كان الصداق حاصلا والطلاق وقع قبل الدخول فنصف الصداق للمرأة ونصفه يبقى للزوج ﴿إِلاَّ﴾ لكن ﴿أَن يَّعْفُونَ﴾ الزوجات إلا إذا عفت الزوجة: لما عقد عليَّ وليس بيننا شيء، فليأخذ ماله. ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أو يعفو الزوج[1] تسمح المرأة أو يسمح الرجل ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وعفو الرجل أفضل لأن الرجل أقوى وأكمل ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ وعلى كل حال فليتفضل أحدكم على الآخر إما الرجل وإما المرأة ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ الخمس بأدائها في أوقاتِها ﴿وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَى﴾ هي العصر أو الصبح أو الظهر أو غيرها أقوال. أوجب الله على هذه الأمة الصلاة والواجب من الصلاة هي خمس صلوات في اليوم والليلة دلت عليه آيات في القرآن منها هذه قال «حافظوا على الصلوات»

1 – قال ابن أبي حاتم ذكر عن أبي لهيعة حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولي عقدة النكاح الزوج). ابن كثير ج1/ 290.

والصلوات جمع وأقل الجمع ثلاثة «والصلاة الوسطى» عطف عليها الصلاة الوسطى، والصلاة الوسطى مختلف فيها فخرج من هذا خمس صلوات ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ قوموا لله في الصلاة قانتين قيل مطيعين وقيل ساكتين، كانوا يتكلمون في الصلاة في أول الإسلام ولما نزلت هذه الآية أمروا بالسكوت في الصلاة[1].

قال الرسول: (إن في الصلاة شغلا)[2]. والصلوات الخمس مكفرات قال الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان بباب أحدكم نهر يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقي ذلك من درنه شيئا؟ قالوا لا يا رسول الله، قال: كذلك الصلوات الخمس[3] (الصلوات الخمس كفارة لما بينهن)[4]. خاطب الحق تبارك وتعالى موسى قال له: أعطي محمدا وأمته صلاة هي أربع ركعات وهي صلاة الظهر في الركعة الأولى أغفر لهم جميع خطاياهم، وفي الثانية تستغفر لهم الملائكة ومن استغفر له الملائكة لا

---

1 - رواه الشيخان من حديث زيد بن أرقم قال: إن كنا لنتكلم في الصلاة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم يكلم أحدنا صاحبه بحاجته حتى نزلت "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين"، فأمرنا بالسكوت) صحيح البخاري: كتاب الجمعة/ باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة (1200) صحيح مسلم: كتاب المساجد/ باب تحريم الكلام في الصلاة (838).

2 - (إن في الصلاة شغلا) حديث صحيح رواه البخاري كتاب المناقب/ باب هجرة الحبشة (3875) ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب تحريم الكلام في الصلاة (837).

3 - عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا ما تقول ذلك يبقي من درنه؟ قالوا: لا يُبقي من درنه شيئا. قال فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا) صحيح البخاري: كتاب مواقيت الصلاة/ باب الصلوات الخمس كفارة (528) صحيح مسلم: كتاب المساجد/ باب المشي إلى الصلاة (1071)

4 - (إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر) صحيح مسلم: كتاب الطهارة/ باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة (344).

أعذبه، وفي الثالثة تفتح لهم أبواب السماء ويستجاب لهم الدعاء، وفي الرابعة أحل عليهم رضواني فلا أسخط عليهم بعد[1]. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ من عدو أو سيل أو سبع ﴿فَرِجَالاً﴾ فصلوا رجالا جمع راجل أي مشاة ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جمع راكب هذه صلاة الخوف يجوز للخائف أن يصلي راكبا أو يصلي ماشيا ويتكلم ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ من الخوف ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ صلوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ قبل تعليمه من فرائضها وحقوقها. الصلاة الوسطى هي أفضل الصلوات الخمس أخفيت لتحافظوا على جميع الصلوات الخمس كما أخفيت ليلة القدر في هذا الشهر المبارك لتحيوا جميع ليالي رمضان، وكما أخفي الشخص الولي من بين الأشخاص لتحترموا جميع المسلمين، وكما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة، وكما أخفي الاسم الأعظم في الأسماء، وكما أخفيت العبادة المقبولة في جميع العبادات ليكون العبد حريصا على كل خير. ورد أنَّها صلاة الصبح هذا قول مالك[2] لثقلها على النفوس وقيل إنّها صلاة العصر[3] وهو أقوى الأقوال لورود الأحاديث الدالة على

---

1 - انظر تفسير روح البيان ج1/373.

2 - ذكره الباجي في المنتقى (شرح موطأ مالك) عند شرح حديث عائشة رضي الله عنها "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين" قالت عائشة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال في الشرح: وذهب مالك والشافعي وأكثر أهل المدينة إلى أن الصلاة الوسطى صلاة الصبح. انظر شرح الحديث رقم (288) من الموطأ كتاب النداء للصلاة/ باب الصلاة الوسطى.

3 - قال ابن كثير وقيل إنها صلاة العصر وقال الترمذي والبغوي رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال القاضي الماوردي: هو قول جمهور التابعين، وقال الحافظ أبو عمرو بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية في تفسيره: هو قول جمهور الناس. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي في كتابه المسمى بكشف الغطا في تبيين الصلاة الوسطى وقد نص فيه أنها العصر وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبي هريرة

ذلك يوم الخندق لما صلى الرسول صلى الله عليه وسلم الظهر انشغلوا في مواجهة الكفار حتى غربت الشمس فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: ملأ الله قبورهم وبيوتهم نارا شغلونا عن الصلاة الوسطى[1]. والفائتة هي صلاة العصر حديث صحيح وهو نصٌّ أن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ يموتون ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ فليوصوا ﴿وَصِيَّةٌ لِّأَزْوَاجِهِم﴾ ويعطوهن ﴿مَتَاعًا﴾ ما يمتعن به من النفقة والكسوة ﴿إِلَى﴾ إتمام ﴿الْحَوْلِ﴾ من موتهم الواجب عليهن تربصه ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ غير مخرجات من مسكنهن هذا هو الأصل. كانت المرأة تعتد حولا كاملا ونسختها الآية المتقدمة ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بأنفسهن ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا أولياء الميت ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ شرعا كالتزين وترك الإحداد وقطع النفقة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه والوصية المذكورة منسوخة بآية الميراث، وتربص الحول بآية أربعة أشهر وعشرا السابقة المتأخرة في النزول، والسكنى ثابتة لها عند الشافعي ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾ يعطَينه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر الإمكان ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ الله كرره ليعم الممسوسة أيضا إذ الآية السابقة في غيرها ﴿كَذَلِكَ﴾ كما يبين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون ﴿أَلَمْ تَرَ﴾

وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمر وابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم. ابن كثير ج1/ 292.

1 – عن علي رضي الله عنه قال: لما كان يوم الأحزاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ملأ الله بيوقم وقبورهم نارا شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب الدعاء على المشركين بالهزيمة (2931) وفي صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ باب التغليظ في تفويت صلاة العصر (993).

استفهام تعجب وتشويق إلى استماع ما بعده، ألم ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أربعة آلاف أو ثمانية آلاف أو عشرة آلاف أو ثلاثون ألفا أو أربعون ألفا أو سبعون ألفا[1] ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ وقع الطاعون في أرضهم فخرجوا فرارا من الموت وهم قوم من بني إسرائيل قوم حزقيل نبي الله ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ﴾ فلما فروا حتى بعدوا عن بلادهم ثمانية أيام قيل لهم موتوا فماتوا جميعا ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بعد ثمانية أيام بدعاء نبيهم حزقيل صار حزقيل يدعو الله ويتضرع له حتى بعثوا كلا فعاشوا دهرا عليهم أثر الموت لا يجدون ثوبا إلا عاد كالكفن، الرائحة القبيحة التي تشمها في اليهود إلى الآن من تلك الموتة ﴿إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ ومنه إحياء هؤلاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفار ﴿لاَ يَشْكُرُونَ﴾ والقصد من ذكر خبر هؤلاء تشجيع المؤمنين على القتال. الله يريد أن يأمرنا بالجهاد والنفس تخاف من الموت فقص هذه القصة. الذين فروا من الموت لما قال لهم الله موتوا ماتوا جميعا فنحن إذاً إذا قدمنا إلى الجهاد أو تأخرنا فذلك سواء عندما يحين وقت الموت، ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم فيجازيكم ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ﴾ بإنفاق ماله في سبيل الله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن ينفقه لله عز وجل عن طيب قلب ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ من عشرة إلى أكثر من سبعمائة[2] كما سيأتي، الله

---

1 – ذكر هذه الأعداد جلال الدين المحلي في تفسير الجلالين ج112/1.

2 – حدثنا عبد الصمد حدثنا سليمان يعني ابن المغيرة عن علي بن زيد عن أبي عثمان قال بلغني عن أبي هريرة أنه قال إن الله عز وجل يعطي عبده المؤمن بالحسنة الواحدة ألف ألف حسنة قال فقضي أني انطلقت حاجا أو معتمرا فلقيته فقلت بلغني عنك حديث أنك تقول سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن الله عز وجل يعطي عبده المؤمن الحسنة ألف ألفِ حسنة قال أبو هريرة لا بل سمعتُ رسول الله صلى الله

تبارك وتعالى من كمال فضله واعتنائه بالمسكين سمى الصدقة لوجه الله تبارك وتعالى قرضا. ولِمَ سماها قرضا؟ لأن الإنسان إذا طلب منك مالا وقال أعطني أو هب لي لا تنتظر منه أن يرد إليك شيئا وإن قال لك أقرضني تنتظر أنه يرد لك ما أخذ، فلهذا يتحقق العبد أن الله يرجع إليه جزاء صدقته لما سماه قرضا، والله من كمال رأفته بالمسكين أنزل نفسه محل المسكين. ورد في الحديث الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (إن الله يوقف الإنسان بين يديه يوم القيامة ويقول يا عبدي مرضت فلم تعدني – هذا سر كبير – يا عبدي استطعمتك فلم تطعمني يا عبدي استسقيتك فلم تسقني. قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: مرض عبدي فلان ولو عدته لوجدت ذلك عندي. قال: كيف أطعمك يا رب وأنت رب العالمين؟ قال: استطعمك عبدي فلان ولو أطعمته لوجدت ذلك عندي. كيف أسقيك يا رب؟ قال: استسقاك عبدي فلان ولو سقيته لوجدت ذلك عندي)[1]. انظر إلى هذا المسكين الحقير الواقف بباب بيتك يطلب منك الصدقة وغدا سيحاسبك، والقرض أكثر ثوابا من الهبة. الرسول صلى الله عليه

عليه وسلم يقول إن الله عز وجل يعطيه ألفي ألف حسنة ثم تلا "يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما" فقال إذا قال أجرا عظيما فمن يَقدُر قدره. مسند أحمد: مسند المكثرين/ (10342).

1 – عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي). صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب فضل عيادة المريض (4661).

وسلم ليلة أسري به وجد مكتوبا على باب الجنة: الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر فقال لجبريل: عجبا الصدقة يعطيها إنسان لوجه الله ولا ترجع إليه والقرض يرجع إليه ويكون أكثر ثوابا؟ قال له: نعم، الإنسان ربما يتصدق عليه وهو ليس بحاجة ولكن القرض لا يطلبه شخص إلا إذا كان محتاجا[1]. من استقرض لا يستقرض إلا لحاجة فلهذا كان جزاء القرض أكثر عند الله من جزاء الصدقة. وهذه الأمة نزلت فيهم "من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها" فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا رب زد أمتي، فنزلت آية الصدقة – تأتي غدا إن شاء الله – "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل" جزء بسبعمائة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا رب زد أمتي فنزلت هذه الآية "من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة" إلى أكثر من سبعمائة قال الرسول صلى الله عليه وسلم: يا رب زد أمتي فنزلت "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" فقال رضيت بالله ربا[2]. فرضي المصطفى صلى الله عليه وسلم. ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ يمسك الرزق عمن يشاء ابتلاء ﴿وَيَبْصُطُ﴾ يوسعه لمن يشاء

---

1 – أخرج ابن ماجه في سننه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا: الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر، فقلت لجبريل: ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة. سنن ابن ماجه: كتاب الأحكام/ باب القرض (2422).

2 – عن نافع عن ابن عمر قال: لما نزلت مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل إلى آخرها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رب زد أمتي فنزلت: "من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة قال: رب زد أمتي فنزلت: "إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب" ابن كثير ج1/ 318.

امتحانا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة بالبعث ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى﴾ إلى قصتهم ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمْ﴾ هو شمويل ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ﴾ معه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ﴾ لعلكم إذا فرض عليكم الجهاد لا تقبلون ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ بسببهم قد فعل بهم ذلك قوم جالوت ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ﴾ وجبنوا ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين عبروا النهر مع طالوت كما سيأتي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فمجازيهم وسأل النبي ربه إرسال ملك فأجابه إلى إرسال طالوت ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ الله جعل طالوت ملكا عليكم ﴿قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ عادة بني آدم، هذا لا يستحق الملك علينا ليس من سبط المملكة ولا من سبط النبوءة كان دباغا أو راعيا ليس من سبط يهوذا ولا من سبط روبيل، سبط يهوذا هم أهل النبوة وسبط روبيل هم أهل المملكة وهذا كان من سبط بنيامين ولا يستحقون المملكة علينا ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ مسكين ليس عنده شيء كيف يقدر على إقامة الملك ﴿قَالَ﴾ لهم نبيئهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ﴾ اختاره للملك ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ سعة ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ فكان أعلم بني إسرائيل يومئذ وأجملهم وأتمهم خلقا لما نزلت فيه هذه الآية صار أعلمهم وأحسنهم جسما ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَّشَاءُ﴾ ومع هذا لا اعتراض على الله تبارك وتعالى يعطي ملكه من يشاء ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهل له ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ طلبوا منه آية على ملكه ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَّأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الصندوق، كان عند الأنبياء صندوق آدم الذي نزل به من السماء فيه تصاوير جميع الأنبياء وكان قد وصل إلى موسى وكانوا إذا جاهدوا نصرهم الله بسبب هذا الصندوق فلما غلبتهم العمالقة

أخذوا الصندوق منهم وكانوا يستعينون به ويغلبون عدوهم قال تعالى ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ طمأنينة لقلوبكم ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى﴾ يعني موسى ﴿وَءَالُ هَارُونَ﴾ يعني هارون قد تركاه لهما وفيه نعلا موسى وعصاه وعمامة هارون وقفيز من المن الذي كان ينزل عليه ورضاض من الألواح التي تحطمت لما ألقاها موسى، بقيتها كانت في الصندوق[1] ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ إذا رأيتم الملائكة تحمل هذا الصندوق حتى تضعه بين يدي طالوت فهذا علامة ملكه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ على ملكه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فحملته الملائكة بين السماء والأرض وهم ينظرون حتى وضعته عند طالوت فأقروا بملكه وتسارعوا إلى الجهاد فاختار من شبابهم سبعين ألفا ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ خرج ﴿طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ من بيت المقدس وكان حرا شديدا وطلبوا منه الماء ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ مختبركم ﴿بِنَهَرٍ﴾ ليظهر المطيع منكم والعاصي وهو بين الأردن وفلسطين[2] ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ من مائه ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ من أتباعي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّيَ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فاكتفى بها ولم يزد عليها فإنه مني ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ﴾ لما وافوا النهر شربوا بكثرة ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ اقتصر على الغرفة، روي أنّها كفتهم من شربهم ودوابّهم وكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر عدد أهل بدر وعدد الرسل[3] ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ﴾ وهم الذين اقتصروا على الغرفة ﴿قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوت

---

1 - قال القرطبي قوله تعالى "وبقية" اختلف في البقية على أقوال فقيل عصا موسى وعصا هارون ورضاض الألواح لأنها انكسرت حين ألقاها موسى، قاله ابن عباس زاد عكرمة: التوراة، وقال أبو صالح: البقية عصا موسى وثيابه وثياب هارون ولوحان من التوراة. القرطبي ج3/ 249.

2 - ذكره جلال الدين السيوطي في تفسير الجلالين. ج1/ 246. ط/ دار الفكر.

3 - تفسير الجلالين والصاوي في حاشيته عليه. ج1/ 247.

﴿وَجُنُودِهِ﴾ بقتالهم وجبنوا و لم يجاوزوه ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَاقُواْ اللَّهِ﴾ بالبعث وهم الذين اكتفوا بالغرفة ﴿كَم﴾ كثيرا ﴿مِن فِئَةٍ﴾ جماعة ﴿قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالعون والنصر ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ظهروا لقتالهم وتصافوا ﴿قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بتقوية قلوبنا على الجهاد ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ﴾ كسروهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ وكان في عسكر طالوت ﴿جَالُوتَ﴾ الجبار ﴿وَآتَاهُ﴾ آتى ﴿اللَّهُ﴾ داودَ ﴿الْمُلْكَ﴾ في بني إسرائيل ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ كان النبوءة والملك لا يجتمعان لأحد في بني إسرائيل حتى اجتمعا لداود عليه السلام صار ملكا نبيا بعد موت شمويل وموت طالوت ورثهما ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ كصنعة لبوس ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ لولا أن الله يدفع البلاء عن بعض بسبب بعض لفسدت الأرض بغلبة المشركين وقتل المسلمين[1] ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يدفع بعضهم ببعض ﴿تِلْكَ﴾ هذه الآيات ﴿آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا﴾ نقصها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

---

1 – عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء. رواه الطبراني في الكبير . الجامع الصغير ج1/ 275 حديث رقم 1794.

الدرس السابع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيـــم

يا همة الشيخ احضري لنـــا بهذا المحضـــر
ولتعطفـــي بنظـــرة تأتي لنـــا بالظفـــر

﴿تِلْكَ﴾ الجماعة ﴿الرُّسُلُ﴾ هي الرسل مبتدأ وخبر، أو تلك الرسل ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فضل الله بعض الأنبياء على بعض بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ كموسى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿دَرَجَاتٍ﴾ على غيره بعموم الدعوة وختم النبوة وتفضيل أمته على سائر الأمم والمعجزات المتكاثرة والخصائص العديدة. ذَكر في هذه الآية أن الأنبياء فضل الله بعضهم على بعض، اتفقوا على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض، وأجمعوا على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والمرسلين وذلك بوجوه عديدة منها أن الله تبارك وتعالى أخبر في القرآن أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسله رحمة للعالمين بقوله: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" لما كان رحمة للعالمين جميعا ثبت أن يكون أفضل العالمين جميعا. لأن كل واحد من العالم مرحوم بسبب محمد صلى الله عليه وسلم فصار محمد أفضل من الجميع. والله تبارك وتعالى قرن طاعته بطاعته، ومبايعته بمبايعته، ورضاه برضاه، وعزته بعزته، قال تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" وقال تعالى: "إن الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم"

وهذه اليد يد محمد صلى الله عليه وسلم، ورضاه برضاه "والله ورسوله أحق أن يرضوه" وعزته بعزته "ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين" وأيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر الله في كتابه أنه رفع ذكره "ورفعنا لك ذكرك" وذلك بأن قرن ذكره بذكر الله عند الأذان وعند الإقامة وعند الخطبة وعند التشهد أي عند النطق بالشهادتين من قال أشهد أن لا إله إلا الله قال وأشهد أن محمدا رسول الله، وهذا لم يكن لغيره من سائر الأنبياء. والله تبارك وتعالى أخبر في كتابه أنه خاتم النبيئين وهذا يدل على أنه أفضل منهم جميعا لأنه غير معقول أن يختم شيء فاضل بشيء مفضول. الصانع إذا أتى لآخر عمله يأتي ببراعة عمله يجعله ختاما فلما كان محمد خاتم النبيئين تبين أنه أفضل منهم جميعا لأن الختم بشيء مفضول غير معقول وغير حكمة، والله أخبر في كتابه أن أمة محمد خير الأمم جميعا "كنتم خير أمة أخرجت للناس" من أين لهم بِهذا؟ من النبي صلى الله عليه وسلم. لما كنا خير أمة بسبب محمد صلى الله عليه وسلم تبين أن محمدا أفضل من الأنبياء الذين أرسلوا إلى الأمم قبلنا؛ وكتابه أفضل من كتبهم، ودينه أفضل من أديانِهم، وشريعته أفضل من شرائعهم، ومع ذلك فهو أكثرهم معجزة. موسى هو أكثر الأنبياء معجزات ذكر الله أنه أعطاه تسع آيات بينات ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطاه الله من البينات ما لم يعط لأحد من الأنبياء قبله، ومع ذلك تحدى اللَّهُ في القرآن بسورة واحدة: "فأتوا بسورة من مثله" وأقصر السور إنا أعطيناك الكوثر، وهي ثلاث آيات، ظهر من هذا أن كل ثلاث آيات في القرآن معجزة والقرآن أكثر من ستة آلاف آية فإذاً تضمن القرآن وحده من المعجزات ما يزيد على ألفي معجزة، علما بأن موسى

ليس عنده إلا تسع آيات فضلا عن المعجزات التي ظهرت لأصحابه، وقد ترك من الصحابة مائة ألف وأربعة عشر ألفا[1] كل واحد شاهد معجزة ما شاهدها غيره. وكان النبي يبعث إلى قومه والمصطفى صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس كافة بل إلى الجن والإنس، والله يقول في كتابه: "وما أرسلناك إلا كافة للناس" ولما كان رسولا إلى جميع الناس كانت مشقته أكبر من مشقة جميع الأنبياء لأنّهم كلهم بعث في قومه فقط. فإذا كانت المشقة أكبر يكون الفضل أكبر، لهذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الأنبياء جميعا، وأيضا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي يوم القيامة[2]. فظهر بِهذا أنه أفضل من آدم ومن جميع أبناء آدم. طلع عليٌ يوما فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هذا سيد العرب، قالت عائشة: سيد العرب وأنت حاضر؟ قال: هو سيد العرب وأنا سيد العالمين[3]. و"العالمين" يدخل فيه جميع الأنبياء بل حتى الملائكة. وأيضا فإن النبي

---

1 – قال الإمام الحافظ العراقي في هامش الصفحة 380 من الجزء الأول من إحياء علوم الدين للغزالي ط دار الجيل: روينا عن أبي زرعة الرازي أنه قال قبض صلى الله عليه وسلم عن مائة ألف وأربعة عشر ألفا من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه.اهـ

2 – (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر) سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب في فضل النبي (3548).

3 – أخرج الحاكم في المستدرك عن سعيد بن جبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب) وفي رواية من حديث عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ادعوا لي سيد العرب) فقلت يا رسول الله ألست سيد العرب؟ قال: (أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب). المستدرك: كتاب معرفة الصحابة/ باب فضائل علي بن أبي طالب (4675).

صلى الله عليه وسلم خرج يوما إلى صحابته، فوجدهم يتحدثون قال قائل: عجبا لإبراهيم اتخذه الله خليلا، وقال آخر: ما هذا بأعجب من موسى كلمه الله تكليما، وقال آخر: ليس هذا بأعجب من عيسى الذي صار روح الله تبارك وتعالى، قال آخر: آدم صفي الله وخلقه الله بيده وأسجد له الملائكة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقال: سمعت ما تقولون، نعم اتخذ الله إبراهيم خليلا كما قلتم، وكلم موسى تكليما كما قلتم وجعل عيسى بن مريم روح الله وكلمته كما قلتم وآدم صفي الله وخليفته في الأرض، ولكن أنا اتخذني الله حبيبا، فكما اتخذ إبراهيم خليلا، اتخذني أنا حبيبا[1]، والذي نفسي بيده لو جاء موسى بن عمران الذي أنزلت عليه التوراة وعيسى بن مريم الذي أنزل عليه الإنجيل ما وسعهم إلا اتباعي[2]. والحبيب فوق الخليل، الله ذكر الخليل في القرآن وذكر الحبيب. من خلال القرآن نفهم فضلية

---

1 - عن ابن عباس قال: جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه، قال فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه تكليما، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله؛ فخرج عليهم فسلم وقال: قد سمعت كلامكم وعجبكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر. سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب في فضل النبي (3549).

2 - جاء في مسند أحمد عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ... والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني. طرف من الحديث رقم (14623) من مسند أحمد/ مسند المكثرين.

الحبيب على الخليل، الخليل إبراهيم والخليل من يُعطَى مطلبه من خليله، الخليل من الخلة لأن الخليل تسد خَلته ويسد خلّتك فاقتضى هذا أن كل خليل طلب منه خليله شيئا يساعده في مطلوبه وهكذا رأينا إبراهيم قال: "والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين" هذا طلبٌ منه، طلبَ من الله أن يغفر له خطيئته يوم الدين فأعطاه الله مطلبه، ومحمد صلى الله عليه وسلم من غير طلب: "إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما". الخليل قال: "واجعل لي لسان صدق في الآخرين" طلب من الله أن يكون ممدوحا في من يأتي بعده، فاستجاب الله منه هذا الدعاء، حتى اليهود يقولون إنّهم على دين إبراهيم والنصارى يقولون إنّهم على دين إبراهيم والمسلمون على دين إبراهيم، هذا يكفي من الثناء، ولكن هذا لا يبلغ: "ألم نشرح لك صدرك ... ورفعنا لك ذكرك" قرن ذكره بذكره. وقال الخليل: "واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام" وقال الله لحبيبه: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت" من غير طلب. والخليل كان مهاجرا إلى الله تبارك وتعالى فقال: "إني ذاهب إلى ربي سيهدين" فكان الذهاب منه، ومحمد صلى الله عليه وسلم أسري به "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا" ذاك ذهب بنفسه وهذا أسري به بقدرة الله تبارك وتعالى من غير تكلف ولا مشقة، فلما كان عطاء محمد صلى الله عليه وسلم وهبيا كذلك أمته، وموسى جاء للميقات بنفسه "ولما جاء موسى لميقاتنا" فكان المجيئ منه مؤنة، وأمة محمد تبعا لمحمد صلى الله عليه وسلم كذلك لما أسرى الله بالنبي صلى الله عليه وسلم كشف لنا نحن آياته من غير تكلف "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" بالمعونة لا بالمؤنة. والنبي صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بِهذه الوجوه وزيادة. لواء الحمد بيده يوم

القيامة، والشفاعة له، والوسيلة له، سيأتي حديث الشفاعة بطوله، جاءوا لآدم ولنوح ولإبراهيم ولموسى ولعيسى كلهم يقول: نفسي نفسي، ولما أتوا لمحمد قال: أنا لها أنا المستحق للشفاعة، وقال: خيرني الله تبارك وتعالى بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين أن يعطيني الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنّها أوسع، قال: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[1] وقال الله: "ولسوف يعطيك ربك فترضى" وقال صلى الله عليه وسلم: أنا أول من يقرع باب الجنة فأدخلها[2]، حرام على جميع الأنبياء والمرسلين أن يدخلوا الجنة قبلي وحرام على أممهم أن يدخلوا قبل أمتي[3]. والذين يدخلون الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون من الصفوف من هذه الأمة والأربعون من سائر الأمم[4] وقال: أنا أول من تنشق عنه الأرض[5] أول من يبعث. كل هذا دلائل

---

1 - سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع/ (2359) وفي سنن أبي داود: كتاب السنة/ باب في الشفاعة (4114).

2 - في الحديث: (أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها) سنن الدارمي: كتاب المقدمة/ باب ما أعطي النبي من الفضل (50). وأخرجه السيوطي في رواية أخرى عن أنس في الجامع الكبير ص326 .

3 - عن عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي). رواه الدارقطني في الإفراد عن عمر وصححه الحاكم في مستدركه. الجامع الكبير للسيوطي ص 501.

4 - (أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم) سنن الترمذي كتاب صفة الجنة/ باب ما جاء في صف أهل الجنة (2469).

5 - (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع) صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب تفضيل نبينا على جميع الخلائق (4223).

قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء[1]. أعلى الأنبياء مقاما إبراهيم وموسى وعيسى؛ موسى عليه الصلاة والسلام جاء للميقات لمناجاة الله تبارك وتعالى ومناجاته عند جبل الطور، والنبي صلى الله عليه وسلم تجاوز سبع سماوات ثم دنا فتدلى حتى كان "قاب قوسين أو أدنى" فنودي في ذلك المقام هذا أعلى من مناجاة موسى عند جبل الطور. وموسى أخبر الله تبارك وتعالى في حقه أنه طلب الرؤية "رب أرني أنظر إليك" فكان الجواب: "لن تراني" ومحمد صلى الله عليه وسلم أخبر القرآن: "ما كذب الفؤاد ما رأى" وموسى خر صعقا "وخر موسى صعقا" أي مغشيا عليه، ومحمد صلى الله عليه وسلم "ما زاغ البصر وما طغى". الله خاطب جميع الأنبياء والمرسلين بأسمائهم يا نوح يا إبراهيم يا موسى يا عيسى يا آدم يا داود كلهم يناديه بتجريد اسمه لأنّهم على جلالة مقاماتِهم كلهم عبد له فقط، وأما محمد صلى الله عليه وسلم فما دعاه باسمه ولو مرة واحدة: يا أيها الرسول، يا أيها النبيء، يا أيها المدثر، نعم ذكر اسمه في القرآن لأنه لو لم يذكر اسمه لا نعرف هذا الخلق العظيم من هو، فذكره وما ذكره إلا وقرن مع ذكره الرسالة، "وما محمد إلا رسول"، "محمد رسول الله"، "ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيئين". هذا الفرق بين نبينا والأنبياء قبله، وحيث نص القرآن أنه فضّل بعض الأنبياء على بعض وشاهدنا هذه الفضائل وهذه الحجج الدامغة على كون محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء، فما يشك في

1 – عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (فضلتُ على الأنبياء بست أعطيتُ جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (812).

أفضلية محمد صلى الله عليه وسلم إلا من لم يؤمن بهذا القرآن فخرج من الدين تماما.

﴿وَءاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جبريل يسير معه حيث سار ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هدى الناس جميعا ﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ بعد الرسل ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ لاختلافهم وتضليل بعضهم بعضا ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ﴾ لمشيئته ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ ثبت على إيمانه ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ كالنصارى بعد المسيح ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ﴾ تأكيد ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من توفيق من شاء وخذلان من شاء ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ زكاته ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ﴾ فداء ﴿فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ﴾ صداقة تنفع ﴿وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ بغير إذنه وذلك اليوم يوم القيامة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بالله أو بما فرض عليهم ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكفار هم الظالمون. قال العلماء الحمد لله لما لم يقل الظالمون هم الكافرون، بل الكافرون هم الظالمون[1]. عادة القرآن إذا ذكر القصص يذكر الأحكام ويذكر التوحيد لأن الصبر على نوع واحد صعب على بني آدم حتى في الأطعمة، يحبون الانتقال من طعام إلى طعام، من لون إلى لون، ذلك ألذ عندهم، فجاء القرآن هكذا يأتي بالقصص ثم يأتي بالأحكام ثم يأتي بالتوحيد. أتى بالتوحيد هذه أعظم آية في القرآن، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: آدم سيد البشر، وأنا سيد العرب، وآية الكرسي سيد الآيات، وسلمان سيد فارس، وبلال

---

1 – قال ابن كثير في تفسيره: "روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال "والكافرون هم الظالمون" ولم يقل والظالمون هم الكافرون." ج1/ 305.

سيد الحبشة، والجمعة سيد الأيام[1] وقال: أفضل القرآن سورة البقرة وأفضل آياتِها آية الكرسي[2] لأن هذه الآية تضمنت من التوحيد ما لم تتضمن آية غيرها في خمسين كلمة كلها في التوحيد بينما الإخلاص في خمس عشرة كلمة فقط. ﴿اللَّهُ﴾ علم للذات العلية، الواجب الوجود المستغني عن كل ما سواه المفتقر إليه كلٌّ ما عداه. الله وهو المعبود بالحق ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا معبود بحق في الوجود إلا هو ﴿الْحَيُّ﴾ الدائم البقاء ﴿الْقَيُّومُ﴾ المبالغ في القيام بتدبير خلقه. ذكر أن الله تبارك وتعالى لا معبود بحق سواه، وهذا هو توحيد العامة.

التوحيد على ثلاث مراتب: له قشر وله لب واللب له لب أيضا، لب اللب هو الزيتون الذي يخرج من اللب. توحيد العامة لا إله إلا الله، لا إله إلا هو، لأنّهم غائبون عن الحق تبارك وتعالى، وتوحيد الخاصة لا إله إلا أنت لأنّهم حاضرون مع الله تبارك وتعالى هذا هو اللب، وتوحيد خاصة الخاصة أن يفنوا عن أنفسهم فيسمعوا التوحيد من الموحد: لا إله إلا أنا، هذا لم يتكلم إنما خرج التوحيد منه، نطق الحق على لسانه كما نطق على لسان الشجرة في حق موسى. موسى أتى

---

1 - في الحديث: (سيد الناس آدم وسيد العرب محمد وسيد الروم صهيب وسيد الفرس سلمان وسيد الحبشة بلال وسيد الجبال طور سيناء وسيد الشجر السدرة وسيد الأشهر المحرم وسيد الأيام الجمعة وسيد الكلام القرآن وسيد القرآن البقرة وسيد البقرة آية الكرسي أما إن فيها خمس كلمات في كل كلمة خمسون بركة). للديلمي عن علي. أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ج2/ 4754.

2 - عن أبي بن كعب قال قال رسول الله يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال قلت الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال فضرب في صدري وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر. صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (1343).

شجرة فقالت إني أنا الله، إن كان الحق ينطق على لسان شجرة فأن ينطق على لسان بني آدم أولى، ومعنى لا إله إلا الله عند العامة لا معبود بحق سوى الله، ومعنى لا إله إلا الله عند المريدين لا مقصود بحق سوى الله لأنّهم قصدوا الحضرة، إذا صدقوا في أنّهم لا يقصدون غير الحضرة فهم لا مقصود عندهم إلا الله، وتوحيد الواصلين معنى لا إله إلا الله عندهم لا موجود بحق سوى الله هم يقولون لا إلا الله، قد علم كل أناس مشربَهم. وهذه الآية فيها ذِكرُ الله سبع عشرة مرة بين ظاهر وضمير: "الله لا إله إلا هو" هذا اسمه هو، "الحي" اسمه، "القيوم"، "لا تأخذه" الضمير عائد إليه، "سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض" الضمير عائد إليه "من ذا الذي يشفع عنده" الضمير عائد إلى الله تبارك وتعالى "إلا بإذنه" "يعلم" هو "ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه" عائد إلى الله تبارك وتعالى "إلا بما شاء" (الله) "وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده" عائد إليه "حفظهما" فاعل المصدر ضمير مستتر عائد إليه "وهو العلي العظيم" هذه سبعة عشر اسما لله في آية واحدة لا يوجد في القرآن إلا في آية الكرسي فلهذا جاءت أعظم الآيات. التفاضل ليس إلا في حق الله تبارك وتعالى، في جانب الله. من أراد أن يفضلنا بغير الله فليأخذ فضله. «الْحَيُّ» الدائم البقاء «الْقَيُّومُ» المبالغ في القيام بتدبير خلقه، هذان الاسمان وصفا الله تبارك وتعالى وصفا لم يقم به غيرهما من الأسماء. و"الله" هو أعظم أسماء الله التسعة والتسعين فتجد كل اسم يضاف إليه وهو لا يضاف إلى اسم تقول "الرحمن" اسم من أسماء الله، "الرحيم" اسم من أسماء الله، "الحي" من أسماء الله، "القيوم" من أسماء الله، وكل كلمة أسقطت منها حرفا ضاع معناها، تبقى بلا معنى إلا هذه الكلمة: إن أسقطت الألف بقي 'لله' "لله ما في السماوات والأرض" وإن أسقطت اللام الأولى بقي 'له' "له ما في السماوات

والأرض" وإن أسقطت اللام الثانية بقي 'هو' "هو الله لا إله إلا هو" ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ كان من حق المبالغة أن يقول لا يأخذه نوم ولا سنة ولكن بداية النوم النعاس، فلا تأخذه سنة من باب أولى نوم. لا ينام ولا ينعس. يحكى أن موسى عليه الصلاة والسلام خطر له يوما هل ينام ربنا؟ فجاءه الملك فأرقه ثلاث ليال متوالية لم يذق النوم وبعد ذلك أتي بقارورتين مملوءتين ماء أمانة عنده يحفظهما فصار ينعس وتضرب القارورة على الأخرى وينعس حتى استغرقه النوم فتكسرت الزجاجتان كلا، لما استيقظ وجد القارورتين كسرتا جميعا[1]، أوحى الله إليه: أنت الذي نمت عجزت عن حفظ قارورتين، أنا الذي أحفظ السماوات والأرض والعرش والكرسي وما تضمنا من الخلق كيف أنام؟. كان واحد من الصالحين اشترى عبدا، والعبد من الأولياء فلما تعشوا لم يبق إلا النوم قال له أفرش لي فراشي حتى أنام، قال له: يا سيدي ألك سيد؟ قال له: نعم، قال: سيدك نام؟ قال: لا سيدي لا ينام، قال: ألا تستحيي أن تنام قبل أن ينام سيدك؟ هذا لا يمكن، فأعتقه[2]. واختلف مريدان يقول أحدهما للآخر: النوم أفضل من اليقظة لأن النائم لا يعصي الله تبارك وتعالى، والآخر يقول له: لا، اليقظة أفضل جدا لأنك ما دمت في اليقظة تكون عارفا بالله وتقدر على ذكر الله والنائم لا يعرف الله ولا يعرف

---

1 – قال عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرني الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله" لا تاخذه سنة ولا نوم" أن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله عز وجل؟ فأوحى الله إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما، قال فجعل ينعس وهما في يده في كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما. ابن كثير ج1/ 309.

2 – ذكر صاحب روح البيان القصة عن مملوكة ج1/401.

شيئا، فتحاكما عند الشيخ قال أحدهما: أنا قلت إن النوم أفضل لأن النائم لا يعصي، قال الآخر: أنا قلت إن اليقظة أفضل لأن اليقظان يكون يعرف الله تبارك وتعالى. فقال الشيخ: أما أنت الذي قلت إن اليقظة أفضل من النوم فحياتك خير من موتك، وسكت عن الآخر[1]، علم ما قيل له موته خير له.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا والملكية تنافي البنوة ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ﴾ لا أحد يشفع عنده ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ له ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الخلق ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا والآخرة ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ لا يعلمون شيئا من معلوماته ﴿إِلاَّ بِمَا شَاء﴾ أن يعلمهم بأخبار الرسل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ قيل أحاط علمه بهما وقيل ملكه، وقيل الكرسي نفسه مشتمل عليهما لعظمته لحديث (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس)[2] ﴿وَلاَ يَئُودُهُ﴾ يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ أي السماوات والأرض ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ فوق خلقه بالقهر ﴿الْعَظِيمُ﴾ أي الكبير. هذه هي آية الكرسي. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من دام على ذكر آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت) وقال (إذا أويت إلى فراشك وقرأت آية الكرسي حفظك الله من الشيطان وحفظ من معك في البيت والبيوت حوله)[1].

---

1 – أوردها البروسوي في روح البيان ج6/ 374.

2 – رواه يونس عن ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابن كثير ج1/ 310.

1 – جاء في الحديث (من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت) الجامع الصغير 632/2 رقم (8926). وجاء في الجامع الكبير (جمع الجوامع): (من قرأ آية الكرسي دبر

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ترك تمر صدقة عند أبي هريرة هو خازنه فلما جاء الليل دخل شخص يسرق منه فأخذه أبو هريرة، فقال له: بالله اتركني ولا أعود. فأتى الرسولَ صلى الله عليه وسلم صباحا فقال له: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟ قال: عاهدني أنه لا يعود. قال: أما إنه سيعود. وفي الليلة القابلة لما نعس أبو هريرة رجع وأراد أن يأخذ من الصدقة، فأخذه أيضا وقال له: أنت أعطيت عهدا أنك لا تعود وعدت، قال: خلني ولا أعود، فخلاه، فلما أصبح قال له المصطفى: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟ قال: عاهدني أنه لا يعود، قال: أما إنه سيعود. وفي الليلة الثالثة عاد أيضا وشرع يحثو يريد أن يسرق، فأخذه أبو هريرة وقال له: أنت خائن كل يوم تعطي عهدا أنك لا ترجع وترجع. قال له: خلني وأنا أعلمك شيئا إذا ذكرته حفظك الله من الشياطين، قال له: ما هو؟ قال: آية الكرسي. فلما أصبح قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟ قال: علمني شيئا قال إني إذا قرأته قبل النوم يحفظني الله من الشيطان وهو آية الكرسي، قال: أما إنه صدقك وهو كذوب[1].

كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت ومن قرأها حين يأخذ مضجعه آمنه الله على داره ودار جاره ودويرات حوله). البيهقي عن علي. الجامع الكبير ج820/1.

1 – رواه البخاري في صحيحه من كتاب الوكالة وأدرجه ضمن عنوان الباب: قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال فخليت عنه فأصبحت فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟" قال قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال "أما إنه قد كذبك وسيعود" فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه

ومن ذكرها في حاجة عدد ثلاثمائة وثلاثة عشر عدد الرسل وعدد أهل بدر قضى الله تلك الحاجة أيا كانت[1]، ومن قرأها خمسين مرة قبل النوم شفاه الله من الجنون؛ ذكروا في فضائلها أشياء كثيرة. ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ لا إكراه على الدخول في الدين ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ظهر بالآيات البينات أن الإيمان رشد والكفر غي، نزلت فيمن كان له من الأنصار أولاد أرادوا أن يكرهوهم على الإسلام ﴿فَمَنْ يَّكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ الشيطان أو الأصنام ﴿وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ تمسك ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ بالعقد المحكم ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقال ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعل ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ناصرهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإيمان، جمع الظلمات لأن طرق الكفر كثيرة وطريق الإيمان

وسلم، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال لا أعود، فرحمته فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟" قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال "أما إنه قد كذبك وسيعود" فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، فقال: "ما هي؟" قلت قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية "الله لا إله إلا هو الحي القيوم" وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح – وكانوا أحرص شيء على الخير – فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما إنه قد صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟" قال لا، قال "ذاك شيطان". صحيح البخاري: كتاب الوكالة/ باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز... (ليس له رقم)

1 – ذكر مضمونه الصاوي في حاشيته على الجلالين ج1/ 252.

واحد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾ الإيمان ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أتى بالقصة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ جادل ﴿إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ حمله بطره وكبره بنعم الله تبارك وتعالى فصار يجادل نبي الله إبراهيم، وهو نمرود بن كنعان ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ لما قال له من ربك الذي تدعونا إليه؟ قال إبراهيم ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ﴾ يخلق الحياة والموت في الأجساد ﴿قَالَ﴾ هو ﴿أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ﴾ بالقتل والعفو، دعا رجلين فقتل واحدا وترك واحدا، قال له: قتلتُ وأحييتُ، فلما رأى إبراهيم ذلك انتقل إلى حجة أوضح ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا﴾ أنت ﴿مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تحير الكافر ودهش لم يعلم جوابا ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا نمرود كان ملكا جبارا ملك الدنيا بأجمعها، والدنيا ما ملكها جميعا إلا أربعة أشخاص اثنان من المؤمنين واثنان من الكافرين. اثنان من المؤمنين: سليمان بن داود ملك الدنيا جميعا وذو القرنين، العربي الذي ذكره الله في آخر الكهف. واثنان من الكافرين: نمرود بن كنعان هذا فرعون إبراهيم، وبختنصر سيأتي خبره في سورة الإسراء[1]. الدنيا اليوم فيها ما يزيد على مائة دولة، فرعون مع طغيانه ما ملك إلا مصر فقط وهذا نمرود ملك الدنيا جميعا وعاش أربعمائة سنة وما أصابه مرض قط، فجاءه إبليس وقال له: أنت لست إنسانا إنّما أنت إله، ادع الناس لعبادتك فقط، فادّعى الربوبية، فلما أرسل الله إبراهيم فدعاهم إلى عبادة الخالق الواحد جادله بهذه المجادلة وكان في زمن قحط. إبراهيم خرج من الشام يطلب المير فلما كفر إبراهيم به حرمه المير فرجع إبراهيم

---

1 - ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ج3/ 284.

إلى أهله بدون مير، فلما دنا من القرية قال إذا أتيت خائبا هذا يفزع عيالي، الأحسن أن أملأ أكياسي من هذا التراب، فأخذ ترابا في ربوة وملأ أكياسه وحمل على دوابه، فلما جاء أخذه التعب فنام، فلما نام قالت ربة البيت أنا آخذ من المير الذي جاء به لأصنع له طعاما قبل أن يستيقظ، ففتحت كيسا فوجدت أحسن بُر فصنعت خبزا، فلما استيقظ إبراهيم وشم رائحة الطعام سألها: من أين لك هذا الطعام؟ قالت: من البر الذي جئت به من خليلك فسمي إبراهيم خليلا، علم أن هذا من الله تبارك وتعالى[1]، وقيل إنه سمي الخليل لأن إبراهيم كان غنيا كان يملك خمسة آلاف رأس من البقر وكان له كلاب ترعى البقر وكل كلب من كلاب مواشيه يطوقه بالذهب الخالص، فقالت الملائكة: هذا الذي فعل إبراهيم إسراف، ولعل كثرة ماله تشغله عن ذكر الله تبارك وتعالى، فقال الله للملائكة: اذهبوا إلى إبراهيم واختبروه. فجاءه ملك وقال له يا إبراهيم هذه الكلاب تعلق على أعناقها الذهب؟ قال: لهوان الدنيا لأن الذهب هين لا يناسبه إلا الكلاب فقط. قال له: هذا البقر الذي تملك كثير، قال: اذكر الله مرة واحدة وأعطيك نصفه، فقال: لا إله إلا الله، فقال: اذكره ثانية وأعطيك الجميع فذكر الله فقال له: لك جميع ما عندي من البقر وإن زدت أعطيتك جميع ما عندي من الممالك، فذكر الله ثالثة فقال له:

---

1 - روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، فخرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلي عني إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه فقال: أنى لكم هذا؟ قالت من الذي جئت به، فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل. تفسير ابن كثير ج1/ 314.

إذا عدت أعطيك نفسي أكون لك خادما مدة حياتي، فذكر الله وأراد الملك أن ينصرف، قال له: لا تذهب عن مالك، قال له: أنا ملك من الملائكة لا حاجة لي في الأموال فرجع فقال: حق لهذا يا رب أن تتخذه خليلا[1]. فقال إبراهيم إن هذا المال الذي أعطاه لله لا يعود إليه، فبنى به السقائف التي في القدس سقائف إبراهيم الموجودة إلى الآن من تلك الأموال.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ هي بيت المقدس راكبا على حمار ومعه سلة تين وقدح عصير وهو عزير ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ سقوفها لما خربها بختنصر، لما دمر بختنصر بيت المقدس وهدم المساجد وقتل الأنبياء والمسلمين جميعا وتسلط عليهم أربعمائة سنة أيضا، مر عزير على بيت المقدس وهي خلاء ﴿قَالَ أَنَّى﴾ كيف ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف يحي الله هذه المدينة بعد موتها استعظاما لقدرة الله تعالى ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ أماته الله هو وألبثه ﴿مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ إحياء ليريه كيفية ذلك. عزير لما سأل كيف يحيي الله الموتى؟ لم يكن سؤاله بكامل الأدب كسؤال إبراهيم الآتي، فلهذا أُري الآية في نفسه، أماته الله مائة عام ثم بعثه، هو وحماره ماتا وصارت عظامهما نخرة ثم بعثه الله ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ لما بعثه الله وجلس سئل كم مكثت هنا؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً﴾ قال يوما واحدا يظن أنه اليوم الذي مات فيه وبعث في آخره قال ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنه نام أول النهار فقبض وأحيي عند الغروب فظن أنه يوم النوم ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أخبره الله أنه مكث هنالك مائة عام ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ فنظر إلى التين فإذا هو بحاله حين قطف من الشجرة رطب جديد ﴿وَشَرَابِكَ﴾ العصير أيضا جديد ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم

---

1 – جاء في مجموع رسائل الإمام الغزالي ذكر هذا الاختبار ص467.

يتغير، عزير والحمار ماتا حتى صارت عظامهما تلوح، والسلة والعصير بقيا بحالهما يوم عصر ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كيف هو فرآه ميتا وعظامه بيض تلوح، فعلنا ذلك لتعلم ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ على البعث ﴿لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أعد نظرا إلى عظام حمارك ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نحييها قراءتنا وقراءة حفص كيف ننشزها أي نحركها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾ فنظر إليها وقد تركبت وكسيت لحما ونفخ فيه الروح وقام ونَهق ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ذلك بالمشاهدة ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ علم مشاهدة ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. هذا عزير، لما عاش عزير حتى بلغ عشرين سنة ولد له مولود ولما بلغ أربعين سنة خرج إلى سفره هذا فأماته الله مائة عام ثم بعثه، بعث وهو ابن أربعين سنة، وقد ترك ولدا له عشرون سنة عاش بعده مائة سنة فرجع هو ابن أربعين سنة وولده ابن مائة وعشرين سنة وماتا في يوم واحد وبه يلغز: شخص مات هو وابنه في يوم واحد وابنه أطول منه عمرا بثمانين سنة ثلثي عمره، الثلثان ثمانون سنة، عزير مات ابن أربعين وولده مات ابن مائة وعشرين سنة، الولد أطول عمرا من الأب بثلثي عمره. فركب عزير الحمار ودخل المدينة ورأى كل معالم البلد قد تغيرت، فجاء وسلم قالوا: من أنت؟ قال أنا عزير، قالوا: لا تذكرنا بمصيبتنا عزير خرج مسافرا وهلك في سفره وما رجع منذ مائة سنة، قال: أنا عزير، قالوا: لا، قال إنه عزير، قالوا له لابد أن تأتينا بدليل أنك عزير، قالوا له: عزير كان يحفظ التوراة وقد ضاعت التوراة على يد بختنصر وكل الذين يحفظون التوراة هلكوا لم يبق عندنا توراة، فصار يملي عليهم التوراة من أولها إلى آخرها فلما أتم قال أحدهم أنا وجدت مكتوبا أن جدي يخبر عن جده أنه أودع نسخة من التوراة تحت النخلة الفلانية، فدعوا من يعرف ذلك المحل فأتوا وحفروا فوجدوا التوراة

وقابلوها بالتوراة التي أملاها عزير فلم يغير ولا شكلة واحدة، فقالوا هذا ابن الله فقط، لهذا هلكوا.

موجب الهداية يكون موجبا لهلاكهم هم. وعزير سؤاله ليس فيه أدب "قال أنى يحيي هذه الله بعد موتِها" فلهذا أري الآية لكن في نفسه ذاق تعبا، وإبراهيم الذي هو كامل الأدب طلب ما طلب عزير لكن بأدب كامل ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ أتى باسم رب يا رب أرني طلب من الله تبارك وتعالى أن يريه الكيفية، ما شك في القدرة ولكن أحب أن يشاهد ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بقدرتي على الإحياء، سأله تبارك وتعالى مع علمه بإيمانه بذلك ليجيب بما سئل فيعلم السامعون غرضه ﴿قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ إبراهيم طلب الرؤية ليطمئن قلبه فلهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)[1] قاله تواضعا أحب المشاهدة ليطمئن قلبه. القلوب أقسام: قلب يطمئن إلى الدنيا فقط "رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بِها" أهل الدنيا اطمئنانُهم بالدنيا فقط لأن ذلك مبلغهم من العلم، وأهل الله اطمئنانُهم بذكر الله "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" وخواص الخواص اطمئنانُهم بالمشاهدة «أرني كيف تحيي الموتى» «أو لم تؤمن» «بلى ولكن ليطمئن قلبي» بالمشاهدة، إبراهيم من أهل المشاهدة ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ خذ أربعة من الطير: الديك والنسر والغراب

---

1 - في الصحيحين عن أبي هريرة (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي) متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله عز وجل ونبئهم عن ضيف إبراهيم (3372)، وفي صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (216).

والطاووس اقتلهن وقطعهن واخلط لحمهن بريشهن واجمع ذلك كله ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ من جبال أرضك ﴿مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ سريعا ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في صنعه. فأخذ طاووسا ونسرا وغرابا وديكا وفعل بهن ما ذكر وأمسك رؤوسهن عنده ودعاهن فتطايرت الأجزاء إلى بعضها حتى تكاملت ثم أقبلت إلى رأسها فقام طائرا. هذا إبراهيم لما طلب أن يرى كيفية البعث دله الله على هذه الطيور الأربعة قتلهن ودقهن بريشهن ولحمهن وقسمهن أربعة أقسام كما ذُكر ثم نادى يا ديك، فخرج ما كان من الديك من كل جزء فتلاءم حتى اجتمع كلا والتحق برأسه ووقف ديكا، الطاووس كذلك، النسر كذلك، الغراب كذلك فعلم إبراهيم بالمشاهدة أن الله قادر على إحياء الموتى، وإبراهيم من العارفين الذين سيرهم دائما في الملكوت، قلوبُهم تطير في الملكوت، فلهذا أراه الله معجزات في الطيور. وهذه الطيور فيها طباع بني آدم، الديك فيه الشهوة دائما شهوة الجماع، والغراب حريص، والنسر يحب الأكل لا يفتر عن الأكل، والطاووس يحب الزينة والمفاخرة[1]، إذا طهر الإنسان نفسه من هذه الطباع سكن ملكوت السماوات والأرض، إذا جاهد نفسه حتى عزلها عن الشهوة وعن كثرة الأكل وعن المفاخرة والتزين وعن الحرص دخل ملكوت السماوات والأرض. الإنسان خلق من العناصر الأربعة من الماء والتراب والهواء والنار، هي العناصر الأربعة، فطبع الماء والتراب خرج منهما الحرص والبخل، والهواء والنار خرج منهما الغضب والشهوة، هذه أربع والحرص تزوج الحسد والبخل تزوج الحقد والغضب تزوج الكبر والشهوة لا زوج لها إنما هي معشوقة كالمرأة المشتركة بين الرجال.

---

1 – ذكر هذه المعاني في روح البيان ج416/1.

فهذه سبع: ظهر الحرص وزوجته الحسد، والبخل وزوجته الحقد، والغضب وزوجته الكبر والشهوة التي لا زوج لها. هذه السبع أبواب جهنم "لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم"، فمن جاهد نفسه وطهرها من الحرص والبخل ومن الحسد ومن الحقد ومن الغضب ومن الكبر ومن الشهوة عتق نفسه من النار، فالحرص أول ما عُصي الله به، آدمُ أكل الشجرة الممنوعة بعدما ملك الجنة وما فيها حرصا منه على البقاء في الجنة فخرج من الجنة. والحسد أول ما عصى به إبليس، حسد آدم فامتنع من السجود له وتحيل له حتى أخرجه من الجنة حسدا، وبالحسد قتل قابيل هابيل. هذه المعاصي الثلاث هي أول المعاصي على وجه الأرض: الحرص والحسد والقتل. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ هذه الآية نزلت في جيش العسرة أعني غزوة تبوك، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: من جهز جيش العسرة فله الجنة[1]. جاءه عثمان بن عفان وقال له عليّ ألف بعير كل بعير بحمله من البر ومائة فرس بسروجها وأحلاسها وأتى بألف دينار صبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، فصار النبي يقلب الذهب ويقول: اللهم إني راض عنه فارض عنه، والله ما ضر عثمان ما فعل

---

1 - جاء في صحيح البخاري: عن أبي عبد الرحمن أن عثمان رضي الله عنه حين حوصر أشرف عليهم وقال: أنشدكم الله ولا أنشد إلا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من حفر رومة فله الجنة فحفرتها؟ ألستم تعلمون أنه قال من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزتهم؟ قال فصدقوه بما قال. صحيح البخاري: كتاب الوصايا/ باب إذا وقف أرضا أو بئرا واشترط لنفسه. (ورد ضمن ترجمة الباب بلا رقم)

بعد اليوم[1] فنزلت ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنُبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ فكذلك نفقاهم تضاعف بسبعمائة ضعف[2] ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَّشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فضله ﴿عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ على المنفَق عليه بقولهم مثلا قد أحسنت إليه وجبرت حاله ﴿وَلاَ أَذًى﴾ بذكرها إلى من لا يحب وقوفه عليها ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام حسن وردٌّ على السائل ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ له في الحاجة أي ستر حاجته ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ بالمن وتعيير له بالسؤال ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقة العباد ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن المانّ ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم﴾ أجورها ﴿بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي﴾ كإبطال الذي ﴿يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ مرائيا لهم ﴿وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهو المنافق ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ حجر أملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ

---

1 – عن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة قال فصبها في حجر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها بيده ويقول (ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم) يرددها مرارا. سنن الترمذي: كتاب المناقب/ باب في مناقب عثمان بن عفان (3634) ولأحمد في مسنده: مسند البصريين/ باب حديث عبد الرحمن بن سمرة (19713). وجاء في الجامع الكبير عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه يدعو لعثمان بن عفان يقول: (اللهم رضيت عنه فارض عنه) الجامع الكبير للسيوطي ج2/ 658. وعن ابن عمر في مسنده قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش العسرة يقول: (ما ضر عثمان ما فعل بعد هذا) الجامع الكبير ج2/ 503.

2 – قال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس: الجهاد والحج يضعف الدرهمُ فيهما إلى سبعمائة ضعف ولهذا قال تعالى "كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة". ابن كثير ج1/ 317.

وَابِلٌ﴾ مطر شديد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ صلبا أملس لا شيء عليه ﴿لاَ يَقْدِرُونَ﴾ أي المنافقون ﴿عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ لا يجدون شيئا من ثواب ما عملوا ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تحقيقا للثواب بخلاف المنافقين ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان ﴿بِرُبْوَةٍ﴾ مرتفع مستو ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ﴾ أعطت ﴿أُكُلَهَا﴾ أي ثمرها ﴿ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ مطر خفيف ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والله بصير بما تعملون ﴿أَيَوَدُّ﴾ أيحب ﴿أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا﴾ ثمر ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ﴾ وقد أصابه ﴿الْكِبَرُ﴾ فضعف من الكبر عن الكسب ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ أولاد صغار ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ ريح شديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ ففقدها أحوج ما كان إليها أيحب أحدكم هذا؟ لا، كذلك الإنسان إذا تصدق بصدقة وراءى فيها، إذا دخل قبره ويصير أحوج ما يكون إلى حسناته يجدها هباء منثورا كلاً شيء ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعتبرون ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ﴾ زكوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ جياد ما كسبتم الطيِّب هنا الجودة لأن «أنفقوا» دل على أنه حلال فبقي أن معنى «من طيبات ما كسبتم» من جيادها. إذا تصدق الإنسان يتصدق من المال الطيب ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ من الحبوب والثمار ﴿وَلاَ تَيَمَّمُواْ﴾ لا تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ﴾ الرديء ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ الخبيث ﴿إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ من شدة كراهيتكم له ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن نفقاتكم ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ يخوفكم به إن تصدقتم

فتمسكوا ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ بالبخل، كل الفحشاء في القرآن بمعنى الزنا إلا هذه بمعنى البخل[1] ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ﴾ على الإنفاق ﴿مَغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ لذنوبكم ﴿وَفَضْلاً﴾ رزقا خلفا منه ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بالمنفق. إذا عزم الإنسان على إخراج الصدقة قال الرسول: لا تخرج الصدقة إلا بعد أن انتزعت من يد سبعين شيطانا[2]. والصدقة إذا خرجت من يد المتصدق تقول كلمات: كنت قليلة فكثرتني، وكنت صغيرة فكبرتني، وكنت فانية فأبقيتني، وكنت محروسة فالآن بقيت لك حارسة وكنت عدوا فأحببتني، كل صدقة تنطق بهذه الكلمات الخمس قبل أن تصل إلى المسكين[3]. كانت قليلة فصارت كثيرة، كانت صغيرة فصارت كبيرة، كانت محروسة فصارت حارسة، كانت فانية فصارت باقية كانت عدوا فصارت حبيبا ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ العلم النافع المؤدي إلى العمل ﴿مَنْ يَّشَاءُ وَمَنْ يُّؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ لمصيره إلى السعادة الأبدية، فالحكمة العلم بالقرآن، العلم النافع، حيث ذُكرت في القرآن يكون معناها مواعظ القرآن وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل للآخرة. علم تضمن هذا وصفه القرآن بأنه خير كثير، بعدما كانت الدنيا وما فيها قليلا والعلم قليل بهذا صار كثيرا، والذي قيل إنه قليل لا نعرف نِهايته أبدا ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ أديتم من زكاة أو صدقة ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ فوفيتم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فيجازيكم عليه

---

[1] – تفسير الخازن ج1/ 198.

[2] – جاء في الجامع الكبير للسيوطي: (ما يخرج رجل شيئا من الصدقة حتى يفك لحيي سبعين شيطانا) ج1/734. كما أخرجه أحمد في مسنده عن بريدة الأسلمي بلفظه. مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث بريدة الأسلمي (21884).

[3] – ورد في روح البيان ج1/ 426 عن علي كرم الله وجهه.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ مانعين ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ﴾ النوافل ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ نعم شيئا إبداؤها ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ تستروها ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ﴾ من إبدائها، الصدقة صدقتان: إن كانت فريضة وكان الشخص مقتدى به، فإظهارها أفضل من إخفائها لما يترتب من الإقتداء به، وإن لم يكن كذلك فإخفاؤها خير[1] ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ نطق سيدنا علي كرم الله وجهه بتسع كلمات ثلاث في مناجاته مع الله تبارك وتعالى وثلاث في الحكمة، وثلاث في الآداب: ثلاث في المناجاة يقول: كفاني فخرا أن كنتَ لي ربا وكفاني عزا أن كنتُ لك عبدا[2]، وأنت كما أحب فاجعلني كما تحب. هذا في مناجاته؛ وثلاث في الحكمة قال علي كرم الله وجهه: قيمة كل إنسان ما يحسن[3]، وما هلك من عرف قدره[4]، ومن عرف ما قصد هان عليه ما طلب. وقال في الآداب: أنفق على كل من تحب فأنت أميره، واستغن عن كل من تحب فأنت نظيره، وتضرع إلى كل من تحب فأنت أسيره[5]. إذا استغنيت عن الإنسان ولو بلغ ما بلغ فأنت نظيره وإن احتجت إليه فأنت أسيره وإن أحسنت إليه فأنت أميره.

---

1 – عن ابن عباس رضي الله عنهما: (صدقة السر في التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمس وعشرين ضعفا). المراغي م1، ج3/ 45.

2 – روح البيان عن علي كرم الله وجهه ج4/ 383.

3 – ورد في نور الأبصار من كلام علي كرم الله وجهه ص81.

4 – أوردها عن علي الشيخ محمد الصبان في كتابه إسعاف الراغبين (حاشية على نور الأبصار) ص163 عازيا للصواعق.

5 – وصايا الرسول ج1/43.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أمسكوا الصدقات عن مساكين الكفار ليسلموا[1]. كانت الصدقات لا تأتيهم إلا من المسلمين، لو أمسك المسلمون صدقاتهم لعلهم يضطرون إلى الإسلام، والله بعدله يقول «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ» هدى الناس إلى الدخول في الإسلام. إنما عليك البلاغ فقط ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَاءُ﴾ هدايته إلى الدخول فيه ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ من مال ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ الصدقة ليست للمسكين إنما هي للمتصدق ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ ثوابه لا غير ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه ﴿وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون منه شيئا ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ الصدقات للفقراء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حبسوا أنفسهم على الجهاد، وهم أهل الصفة[2]، كان رئيسهم أبو هريرة كانوا أربعمائة من المهاجرين أرصدوا أنفسهم لتعلم القرآن والخروج مع السرايا ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً﴾ سفرا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ للتجارة والمعاش لشغلهم بالجهاد ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ لتعففهم عن السؤال ﴿تَعْرِفُهُم﴾ يا مخاطب ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ علامتهم من التواضع وأثر الجهد ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ﴾ شيئا فيلحفون ﴿إِلْحَافاً﴾ لا سؤال لهم أصلا ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فمجاز عليه ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ نزلت في سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، استأجر نفسه فعمل

---

1 - جاء في تفسير الخازن أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن التصدق على المشركين كي تحملهم الحاجة إلى الدخول في الإسلام لحرصه صلى الله عليه وسلم على إسلامهم فنزل "ليس عليك هداهم". الخازن ج1/ 200. ط/ دار المعرفة للطباعة والنشر ـــ بيروت.

2 - تفسير الجلالين ج130/1.

طول النهار فلما أتى الليل أعطوه أربعة دراهم، تصدق بدرهم ليلا وبدرهم نَهارا وبدرهم سرا وبدرهم علانية[1]، فقال الله «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَواْ﴾ يأخذونه، وهو الزيادة في المعاملة بالنقود والمطعومات في القدر أو الأجل ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ من قبورهم ﴿إلاَّ﴾ قياما ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ يصرعه ﴿الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ من الجنون ﴿ذَلِكَ﴾ الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَواْ﴾ حرم الله الربا وقالوا من باع لا بد له من الربا، وهذا من عكس التشبيه ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَواْ﴾ الله رد عليهم هو أحل البيع وحرم الربا. كيف يكون البيع مثل الربا ﴿فَمَن جَاءَهُ﴾ بلغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وعظ ﴿مِن رَّبِّهِ فَانتَهَى﴾ عن أكله ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ قبل النهي ﴿وَأَمْرُهُ﴾ في العفو ﴿إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ إلى أكله مشبها له بالبيع في الحل ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَواْ﴾ نفى المزية أيضا بأن الله ينقص الربا ويذهب ببركته ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ يزيدها وينميها ويضاعف ثوابَها. الربا يمحَق ثم يحرق، والصدقات يزيدها الله ويضاعفها ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بتحليل الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر بأكله بل يعاقبه ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم

---

1 – عن ابن عباس أنها نزلت في علي كرم الله وجهه كانت له أربعة دراهم فأنفق بالليل درهما وبالنهار درهما وسرا درهما وعلانية درهما فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا؟ قال: حملني أن أستوجب على الله الذي وعدني. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن ذلك لك. من تفسير المراغي م1، ج3/ 53. وقد ذكر هذه الرواية ابن حجر العسقلاني في فتح الباري عند شرحه لترجمة البخاري لباب صدقة العلانية من كتاب الزكاة.

مثلها ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ صادقين في إيمانكم، فإنّ من شأن المؤمن امتثال أمر الله، نزلت لما طالب بعض الصحابة بعد النهي بربا كان له قبل[1] ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أمرتم به من ترك الربا ﴿فَأْذَنُواْ﴾ اعلموا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لكم، فيه تهديد شديد لهم، ولما نزلت قالوا لا يد لنا بحربه ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أصول أموالكم ﴿لاَ تَظْلِمُونَ﴾ بزيادة ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ بنقص ﴿وَإِن كَانَ﴾ وقع غريم ﴿ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾ أي تأخيره ﴿إِلَى مَيْسُرَةٍ﴾ إلى وقت الميسرة ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه خير فافعلوه؛ في الحديث (من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله) رواه مسلم[2] ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ تردون فيه إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ عملت من خير وشر ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ تعاملتم ﴿بِدَيْنٍ﴾ كسلم وقرض ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ استيثاقا ودفعا للنزاع ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾ كتاب الدين ﴿بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ بالحق في كتابه لا يزيد في المال والأجل ولا ينقص ﴿وَلاَ يَأْبَ﴾ يمتنع ﴿كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ إذا دعي إليها ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ كما فضله الله بالكتابة فلا يبخل، ﴿فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ﴾ يمل

---

1 - ذكر الخازن في تفسيره أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب وعثمان بن عفان وكانا قد أسلفا في التمر فلما كان وقت الجذاذ قال صاحب التمر لهما إن أنتما أخذتما حقا لكما لم يبق لي ما يكفي عيالي فهل لكما أن تأخذا النصف وتؤخرا النصف وأضعف لكما ففعلا فلما حل الأجل طلبا منه الزيادة فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فنهاهما وأنزل الله هذه الآية. الخازن 204/1.

2 - (من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله) طرف من حديث في صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق/ باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (5328).

الكاتب ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ الدين لأنه المشهود عليه فيقر ليُعلم ما عليه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في إملائه ﴿وَلاَ يَبْخَسْ﴾ ينقص ﴿مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ مبذرا ﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾ عن إملاء لصغر أو كبر ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُّمِلَّ هُوَ﴾ لخرس أو جهل باللغة أو نحو ذلك ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ متولي أمره من والد ووصي وقيِّم ومترجم ﴿بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ﴾ أشهدوا على الدين ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ شاهدين ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ بالِغي المسلمين الأحرار ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا﴾ أي الشاهدان ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ يشهدون ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لدينه وعدالته وتعدد النساء ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تنسى ﴿إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ إلى تحمل الشهادة وأدائها ﴿وَلاَ تَسْأَمُوْاْ﴾ تملوا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ قليلا أو كثيرا ﴿إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ﴾ الكتب ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى﴾ أقرب ﴿أَن لاَّ تَرْتَابُواْ﴾ تشكوا في قدر الحق أو الأجل ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ﴾ تقع ﴿تِجَارَةٌ حَاضِرَةٌ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ تقبضونها ولا أجل فيها ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ عليه فإنه أدفع للاختلاف، وهذا وما قبله أمر ندب، ﴿وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾ صاحب الحق ومن عليه بتحريف أو امتناع من الشهادة ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ما نُهيتم عنه ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ﴾ خروج عن الطاعة ﴿بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في أمره ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ مصالح أموركم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ مسافرين وتداينتم ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَانٌ﴾ جمع رهن ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ تستوثقون بها ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ الدائن أمن المدين على حقه فلم يرتَهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ المدين ﴿أَمَانَتَهُ﴾ دينه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في أدائه ﴿وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ﴾ إذا دعيتم لإقامتها ﴿وَمَنْ

يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ﴾ خُص بالذكر لأنه محل الشهادة، ولأنه إذا أثم تبعه غيره فيعاقب عليه معاقبة الآثمين. (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[1] ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ﴾ تظهروا ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من السوء والعدل ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تسروه ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَّشَاءُ﴾ المغفرة ﴿وَيُعَذِّب مَّنْ يَّشَاءُ﴾ تعذيبه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه محاسبتكم وجزاؤكم؛ لما نزلت جاء أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: إن كان الله يؤاخذنا بما في نفوسنا فإننا نَهلك لا قدرة لنا على هذا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ قال أبو بكر: لا، ولكن لا قدرة لنا على هذا، إن كان يؤاخذنا الله بما في نفوسنا فلا نجاة أبدا، فنزل "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"[2] الآية الآتية. ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ محمد ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ من القرآن

---

1 – متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه (52) وفي صحيح مسلم كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال وترك الشبهات (2996).

2 – عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم "لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير" قال فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا أي رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير". قالوا "سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ... الآية فلما فعلوا ذلك نسخها الله

فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء، وفي الحديث (لما نزلت هذه الآية فقرأها صلى الله عليه وسلم قيل له عقب كل كلمة: قد فعلت)[1] استجيب دعاؤه.

سورة آل عمران

مدنية مائتا آية أو إلا آية

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلٓمٓ ۞﴾ «ٱلٓمٓ» الله أعلم بمراده بذلك، الصواب في تفسيرها الله أعلم بمراده؛ سورة آل عمران نزلت في مجادلة الرسول صلى الله عليه وسلم لوفد نصارى نجران. جاء ستون راكبا من نصارى نجران فيهم الملك وفيهم رئيس الأساقفة وفيهم كبير تجارهم غنيهم، هم السادة الذين يرجعون إلى كلامهم، فأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يجادلونه في شأن عيسى، تارة يقولون ‹عيسى هو الله لأنه يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص ويخلق من الطين كهيئة الطير فهو الله› وتارة يقولون ‹إن عيسى ابن لله لأنه لا أب له، رأيتم ولدا لا أب له؟ لما لم يكن له أب علمنا أن الله هو أبوه› وتارة يقولون ‹ثالث ثلاثة.. أما قرأت قول الله تبارك وتعالى فعلنا وقلنا ولو كان وحده لقال قلت وفعلت›[2] فقال لهم النبي صلى

---

1 – جاء في نهاية الحديث (179) من صحيح مسلم كتاب الإيمان/ باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلّف إلا ما يطاق: ... "ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا" قال: نعم، "ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا" قال: نعم، "ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به" قال: نعم "واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين" قال: نعم. وفي رواية ابن عباس من صحيح مسلم أنه قال: قد فعلت. الحديث (180) من نفس الباب.

2 – راجع سيرة ابن هشام ج2/ 224 ــ225 دار القلم ــ بيروت.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف عليه ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿ءامَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ يقولون ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا﴾ ما أمرنا به سماع قبول ﴿وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ﴾ نسألك غفرانك ﴿رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فلما نزلت الآية قبلها شكا المؤمنون من الوسوسة وشق عليهم المحاسبة بها، فنزل ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أي ما تسعه قدرتُها ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشر ﴿رَبَّنَا﴾ قولوا ربنا ﴿لاَ تُؤَاخِذْنَا﴾ بالعقاب ﴿إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ تركنا الصواب عن عمد كما آخذت به من قبلنا، وقد رفع الله ذلك عن هذه الأمة كما ورد في الحديث[1] فسؤاله اعتراف بنعمة الله ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً﴾ أمرا يثقل علينا حمله ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ بني إسرائيل مِن قتلِ النفس من أراد التوبة يقتل نفسه وإخراج ربع المال، الزكاة كانت ربع أموالهم وقرض موضع النجاسة ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من التكاليف والبلاء ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ امح ذنوبنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ في الرحمة زيادة على المغفرة ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا﴾ سيدنا ومتولي أمورنا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بإقامة الحجة والغلبة في قتالهم

تعالى فأنزل الله عز وجل "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" الآية. صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلّف إلا ما يطاق (179).

1 – يعني قوله صلى الله عليه وسلم: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه الطبراني في الكبير عن ثوبان. الجامع الصغير ج2/ رقم 4461. وفي الجامع الكبير ج1/ 535. وفي سنن ابن ماجه عن أبي ذر بلفظ: (إن الله تجاوز ...الحديث) كتاب الطلاق/ باب طلاق المكره والناسي (2033).

الله عليه وسلم: أنتم تعلمون أن الله تبارك وتعالى حي لا يموت؟ قالوا: نعم. قال: وعيسى يأتيه الموت؟ قالوا: نعم، قال: ألستم تعلمون أن الله تبارك وتعالى قادر أن يصور الناس في الأرحام وعيسى ليس له شيء من ذلك؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعرفون أن الولد لا بد أن يشبه أباه والله هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم حي لا يموت أبدا، وعيسى حملته أمه كما تحمل النساء ووضعته كما تضع النساء وأرضعته كما ترضع النساء وكان يأكل ويشرب ويحْدث؟ قالوا: بلى. قال: تعلمون أن عيسى ادعى النصارى أنّهم قتلوه وعجز عن الدفع عن نفسه، والله تبارك وتعالى حي باق. قالوا: نعم. فأتت سبعون آية من أول هذه السورة في تلك المجادلة تبين تصديق النبي صلى الله عليه وسلم وموافقته للحق[1] ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الله المستحق للعبادة لا معبود بحق سواه، وهو «الحي» الدائم

1 - جاء في تفسير المراغي: روى ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت في نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نحو ستين راكبا وخاصموه في عيسى ابن مريم وقالوا له من أبوه؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى. قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا بلى. قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا. قال: ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا بلى. قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا بلى. قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟. فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا فأنزل الله "الـــم الله لا إله إلا هو الحي القيوم" إلى آخر تلك الآيات. تفسير المراغي م1، ج3/ 93 وذكر في سيرة ابن هشام الجزء الثاني كيف أن الله تبارك وتعالى تولى الرد عليهم في بضع وثمانين آية من هذه السورة. راجع الصفحة 224 وصفحات بعدها.

«القيوم» الذي يقوم بتدبير خلقه دائما، عيسى ليس كذلك ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن ﴿بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كون القرآن نزل على محمد فيه أقوى حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على صدقه فيما قال ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى﴾ هادين من الضلالة ﴿لِلنَّاسِ﴾ لأنّهم إن أقروا بأن الله أنزل التوراة والإنجيل لا يقدرون أن ينفوا أن الله أنزل القرآن على محمد. إما أن يكفروا بجميع الأنبياء وجميع الكتب فيكفروا بالقرآن، أما إذا صدقوا نبيا من الأنبياء أو كتابا من الكتب فلا يقدرون أن يكذبوا محمدا ولا القرآن لأنه ليس لهم حجة. الأنبياء جاءوا بكتب من عند الله تبارك وتعالى، والذي قواهم حتى قبلنا أن هذا أتى من عند الله المعجزات، ومحمد أتى بكتاب من عند الله وأتى بمعجزات باهرات، إذاً كيف يؤمَن بنبي ويُكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وله من المعجزات ما ليس لهم ولم يدع إلا كتابا جاءه من عند الله تبارك وتعالى، فلهذا أخبرهم أنه هو الذي أنزل هذا الكتاب كما أنزل التوراة والإنجيل من قبل ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ بمعنى الكتب الفارقة بين الحق والباطل أو المعجزات في الثلاثة. فإذاً إما أن يُصدق بالجميع أو يُكفر بالجميع أعاذنا الله من ذلك. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره فلا يمنعه شيء من إنجاز وعده ووعيده ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ عقوبة شديدة ممن عصاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كائن ﴿فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ لعلمه بما يقع في العالم من كلي وجزئي ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من ذكورة وأنوثة وبياض وسواد ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في صنعه. يقول الرسول صلى الله عليه

وسلم: (يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة وأربعين يوما علقة وأربعين يوما مضغة ثم ينفخ فيه الروح)[1]. وفي رواية: إذا وقعت النطفة في رحم الأم يسأل الملك: أشقي أم سعيد؟ فيجاب: شقي أو سعيد. غني أو فقير؟ فيجاب غني أو فقير. ما عمله وما أجله؟ هذه الأربعة جف منها القلم. وهذا تعليم للملك ما كان سبق في اللوح وإلا فهذا سبق قبل نزول الولد في رحم أمه ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ الله هو الذي أنزل هذا القرآن على محمد، فيه آيات محكمات واضحات الدلالة هن أصل الكتاب منها تخرجت الأحكام ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ لا تفهم معانيها كأوائل السور. القرآن وصفه الله تبارك وتعالى بأنه محكم كله، "أحكمت آياته" فصار محكما كلا، هذا لأنه بديع في نظامه ومعانيه وفصاحته وبلاغته، ووصف القرآن بأنه متشابه كله "الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابِها مثاني" ذلك لشبه بعضه ببعض، ووصف القرآن بأنه قسمان فيه محكم ومتشابه، فالمحكم ما كان واضح الدلالة والمتشابه ما لم يكن مفهوم المعنى كأوائل السور وصفات الله تبارك وتعالى ونحو ذلك. فالقرآن أربعة

---

1 - أخرجه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال: إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع برزقه وأجله وشقي أو سعيد، فوالله إن أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، قال آدم إلا ذراع). صحيح البخاري واللفظ له: كتاب القدر/ باب في القدر (6594)، صحيح مسلم كتاب القدر/ باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله (4781).

أقسام: قسم واضح وضوحا بينا حتى أن كل من يعلم العربية إذا سمعه يفهم معناه نحو "قل هو الله أحد" كل عربي يعلم ما معنى "هو الله أحد" وهو أكثر القرآن؛ وقسم يتضمن معان غامضة يحتاج إلى التبحر في العربية والنحو والصرف والبلاغة، فلهذا يحتاج لمفسر يفسره؛ وقسم لا يعلمه إلا الراسخون في العلم؛ وقسم لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى وهو المتشابه كذكره اليد لله تبارك وتعالى، قال إن له يدا، وقال إن له يدين "بل يداه مبسوطتان" وكلاهما يمين[1]، هذا لا يفهمه الإنسان، اليدان كل واحدة منهما يمين، وذكر أن له أيد، أيد كثيرة "والسماء بنيناها بأيد"، إذا رجعنا إلى التأويل كما عليه المؤولون وقلنا اليد القدرة التسمية تنفي هذا لأن القدرة لا تثنى لاسيما الجمع، إذاً صفات الله التي وصف بِها نفسه نؤمن بِها على مراد الله تبارك وتعالى هذا هو الصواب. ذَكر أن له وجها وأن له يدا وذكر أن له قدما وذكر أنه ينزل وذكر أنه استوى كل هذه معان صحيحة يعلمها الله ونحن لا نعلمها. سألني قاضي القضاة في الحجاز - هم يقولون بالجهة يقولون إن الله جالس على العرش بِهذه العبارة نعوذ بالله، لا يقولون مستو، يقولون جالس على العرش - تبعني في الحجاز حتى جلس بجنبي وصار يسألني، قال لي: من لم يعتقد أن الله جالس فوق العرش فقد نقص إيمانه أو ليس بمؤمن "الرحمن على العرش استوى" وفي الحديث أين كان ربنا قبل أن يخلق السماوات والأرض غمام فوق غمام والله فوق

---

1 - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (3406).

ذلك[1]. وحديث (إن الله خلق سبع سماوات فاختار السابعة)[2] سرد عليَّ هذا كلا فقلت له: أنا رأيت أن الله ذكر لنفسه عرشا وكرسيا وذكر أنه استوى على عرشه، والعرش غائب عنا، ولكنه ذكر أن له بيتا وها نحن عند بيته الآن، ذكر أن له ناقة، هل رأيناه ركب ناقة قط؟ قال: لا، قلت: "ناقة الله وسقياها" هذه الناقة لمن؟ هذا بيت الله إن دخلنا فيه نجده فيه أم لا؟ قال: لا نجده فيه، قلت: إن كنا إذا دخلنا بيته لا نجده والعادة أن الإنسان يوجد في بيته يمكن أن عرشه أيضا إذا أتيناه لا نجده فوقه. قال: ما نفعل بِهذا الحديث: (ينزل ربنا كل ليلة إذا مضى ثلث الليل الأول ويقول هل من سائل فأعطيه؟، هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟)[3] هذا النزول دليل على أنه فوق. قلت له: نعم ينزل كل ليلة، آمنّا بذلك،

---

1 - عن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال (كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه على الماء) حديث حسن. سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب ومن سورة هود (3034).

2 - (إن الله عز وجل خلق السماوات سبعا واختار العلى منها فأسكنها من شاء من خلقه ثم خلق الخلق فاختار من خلقه بني آدم واختار من بني آدم العرب واختار من مضر قريشا واختار من قريش بني هاشم واختارني من بني هاشم فأنا خيار إلى خيار فمن أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم). عن ابن عمر. الجامع الكبير 1/ 168.

3 - أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة (ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر). صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (1262). وروي هذا الحديث بروايات متعددة ومعناها واحد. انظرها في الجامع الكبير للسيوطي ج1/ ص1016 (من النسخة المصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية).

ولكن هذا القرآن يقول إن الله أنزل علينا ثمانية أنواع من النعم: من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين، هذه ثمانية أخبر الله أنه أنزلها من السماء إلينا، نحن كل يوم نرى ناقة تلد بعيرا ونرى بقرة تلد بقرة ونرى شاة تلد شاة ومعزى تلد معزى، كيف نزلت هذه من السماء ونحن نشاهد أمهاتها تلدها؟ قال: لا نعرف حقيقة كيف نزلت من السماء؟ قلت: إذا كنا لا نفهم نزول الحيوانات كيف نفهم نزول المولى جل وعلا؟ سكت.

المتشابه المذهب الصحيح فيه مذهب الشافعي: آمنا بما قال الله على مراد الله وآمنا بكلام رسول الله على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ لجهلهم بوقوعهم في الشبهات ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ تفسيره ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ تفسيره ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وحده ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أو ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، لا يعلمه إلا الله والراسخون، أو لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به علامة للعلم أيضا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، والبحث فيه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة إذ هو معالم الحلال والحرام، والعلم هو الأنيس عند الوحشة والجليس في الوحدة والمتحدث في الخلوة وبه يرفع الله أناسا حتى يجعلهم قادة وأئمة يقتدى بأفعالهم وأقوالهم[1] ويكونون شفعاء عند الله يوم القيامة[1]. كل من المحكم والمتشابه يقولون

---

1 – حديث: (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والضراء والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة ويرفع الله به

ولكن هذا القرآن يقول إن الله أنزل علينا ثمانية أنواع من النعم: من الإبل اثنين ومن البقر اثنين ومن الضأن اثنين ومن المعز اثنين، هذه ثمانية أخبر الله أنه أنزلها من السماء إلينا، نحن كل يوم نرى ناقة تلد بعيرا ونرى بقرة تلد بقرة ونرى شاة تلد شاة ومعزى تلد معزى، كيف نزلت هذه من السماء ونحن نشاهد أمهاتها تلدها؟ قال: لا نعرف حقيقة كيف نزلت من السماء؟ قلت: إذا كنا لا نفهم نزول الحيوانات كيف نفهم نزول المولى جل وعلا؟ سكت.

المتشابه المذهب الصحيح فيه مذهب الشافعي: آمنا بما قال الله على مراد الله وآمنا بكلام رسول الله على مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ لجهلهم بوقوعهم في الشبهات ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ تفسيره ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ تفسيره ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ وحده ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ أو ما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، لا يعلمه إلا الله والراسخون، أو لا يعلمه إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به علامة للعلم أيضا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، والبحث فيه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة إذ هو معالم الحلال والحرام، والعلم هو الأنيس عند الوحشة والجليس في الوحدة والمتحدث في الخلوة وبه يرفع الله أناسا حتى يجعلهم قادة وأئمة يقتدى بأفعالهم وأقوالهم[1] ويكونون شفعاء عند الله يوم القيامة[1]. كل من المحكم والمتشابه يقولون

---

1 – حديث: (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والضراء والوزير عند الأخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة ويرفع الله به

آمنا به بالمتشابه ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ﴿إِلاَّ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أصحاب العقول ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ تملها عن الحق بابتغاء تأويله الذي لا يليق بنا ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أرشدتنا ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿رَحْمَةً﴾ تسديدا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ تجمعهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ في يوم ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ هو يوم القيامة فتجازيهم بأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ موعده بالبعث فيه، فيه التفات عن الخطاب ويحتمل أن يكون من كلامه تعالى والغرض من الدعاء بذلك بيان أن همهم أمر الآخرة ولذلك سألوا الثبات على الهداية لينالوا ثوابها. روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات" إلى آخرها وقال: فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم[2]. وروى الطبراني في الكبير عن أبي موسى الأشعري أنه سمع

أقواما فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم... الخ الحديث) رواه معاذ بن جبل. وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم ج2/ 380 ــ 381. وورد مختصرا في الجامع الكبير للسيوطي ج1/ 475 (من النسخة المصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية).

1 ـ عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء) سنن ابن ماجه كتاب الزهد/ باب ذكر الشفاعة (4304).

2 ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب" قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب منه آيات محكمات (4547) وفي صحيح مسلم: كتاب العلم/ باب النهي عن اتباع متشابه القرآن (4817).

النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال وذكر منها: أن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله وليس يعلم تأويله إلا الله "والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب"[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ﴾ تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ وقود النار ما توقد به، دأبهم أي عادتُهم ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ كعادة آل فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كعاد وثمود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أهلكهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ونزل لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم اليهود بالإسلام مرجعه من بدر فقالوا له: لا يغرنك أن قاتلت نفرا من قريش أغمارا لا يعرفون القتال، إذا تعرضت لنا تعلم أننا نحن الرجال ونحن الأبطال[2] فنزلت ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اليهود ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بالقتل والأسر وضرب الجزية وقد وقع ذلك، هذه معجزة ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ فتدخلونَها ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الفراش، هم ذكروا في مخاطبتهم للنبي صلى الله عليه وسلم أن قتاله مع قريش وهم أغمار لا يعلمون الحرب لا يدعو إلى الفخر، فذكر الله تبارك وتعالى تلك الغزوة وهي وقعة

---

1 - نص الحديث ورد في الجلالين وحاشية الصاوي ج1/ 296 وفي تفسير ابن كثير ج1/ 347.

2 - عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا. فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك من قوله: "قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبيس المهاد". سنن أبي داود: كتاب الخراج والإمارة والفيء/ باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة (2607).

بدر ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ عبرة ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ فرقتين ﴿الْتَقَتَا﴾ يوم بدر للقتال ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طاعته وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا معهم فرسانِ[1] وستة أدرع وثمانية سيوف أكثرهم رجالة، هذا جيش النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ تَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي المسلمين أكثر من الكفار وكانوا نحو ألف، قريش ألف أو تسعمائة[2] والله ذكر أنه في بداية الأمر يقللهم في أعينكم ويقللكم في أعينهم كما يأتي في سورة الأنفال - هذا في البداية - وفي النهاية جعل الكفار ينظرون إلى المسلمين كأنّهم ألفان ليزدادوا خوفا منهم، ألا تكفي هذه عبرة؟ جماعة من الشجعان، ألف، كلهم مدرب على الحرب عنده سيف وعنده فرس وعنده نفقة كافية، وثلاثمائة ليس عندهم من السلاح إلا ثمانية سيوف وليس عندهم من المراكب إلا فرسان فرس الزبير وفرس المقداد فقط، فالتقوا فخافوهم أي ذوو الألف حتى رأوهم مثليهم ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ وهذه مشاهدة، خلق الله ذلك فشاهدوهم عيانا وهم كأنّهم ألفان ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَنْ يَّشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ هذه غزوة بدر وقعت في شوال في العام الثاني من الهجرة، بعد عام من الهجرة، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم على قريش (اللهم اجعلها عليهم سنين كسني أخي يوسف)[3]، فوقع القحط حتى جاعوا حتى أكلوا

---

1 - جاء في مسند علي رضي الله عنه من الجامع الكبير (النسخة المصورة من مخطوطة دار الكتب المصرية) ج2/ 89: عن ابن عباس أن عليا بن أبي طالب قال له: ما كان معنا يوم بدر إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد.

2 - أخرجه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة/ مسند علي بن أبي طالب (904).

3 - صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب فلا يربو عند الله من أعطى عطية يبتغي أفضل منه (4774) وفي صحيح مسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب الدخان (5006)

القردة وأكلوا الكلاب فجمعوا أموالهم وخزائنهم وأرسلوا مِلكهم الأصغر أبا سفيان ذهب إلى الشام واشترى لهم ميرا كبيرا، فلما رجع رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أن الله أعطاه إحدى الطائفتين: أبو جهل معه الجيش، وأبو سفيان معه العير، وعده الله إحدى الطائفتين كما سيأتي في سورة الأنفال فاجتمعوا، فأما العير ففروا ونجوا بأنفسهم ووصلوا إلى الحجاز، وأما النفير فخرجوا بألف مدججين في السلاح، وأتوا إلى بدر هذا كانت فيه آية أي عبرة. لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنّهم سيغلبون وأخبر بمصارع القوم فلان يصرع هنا وفلان يصرع هنا وفلان يُصرع هنا إلى آخرهم ووقع الأمر كما قال، فالتقوا وغلبهم المسلمون وأسروا منهم سبعين سيدا من ساداتِهم فيهم العباس بن عبد المطلب، هذه عبرة لمن يعتبر، سيأتي زيادة إيضاح في سورة الأنفال.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ ما تشتهيه النفس وتدعو إليه، زينها الله ابتلاء أو الشيطان. ذكر في هذه الآية سبعة أشياء يحبها الإنسان، سبعة أشياء فيها شهوات الإنسان، اجتمع فيها الحب، وتعلم أن الإنسان يحب شيئا ولا يحب أن يحبه، كمسلم يحب محرَّما، إذا أحبه لا يحب أن يحبه، ويحب شيئا يحب أن يحبه وليس فيه شهوته، ويحب شيئا يحب أن يحبه وفيه شهوته، هذا أقوى، اجتمعت كلا في الآية حب الشهوات، ذكر أنّها شهوات زينت لهم وأحبوها ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ الرجل إذا بلغ أول ما يتعلق به هو أن يجد زوجة توافقه ﴿وَالْبَنِينَ﴾ إذا وجد زوجة يحب أن يرزقه الله أولادا ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ وإذا وجد النساء والبنين يحب أن يجد من الذهب والفضة شيئا كثيرا. والذهب تزهدك فيه كلمته من الذهاب، فإذاً كل ما تملك من الذهب لا بد أن يذهب، والفضة من الفض الذي هو التفرق كل ما تملك من الفضة لا بد أن يتفرق، النساء والبنين والذهب والفضة

﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ الأفراس سميت خيلا لخيلائها ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿وَالْحَرْثِ﴾ الزراعة ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ كل هذه الأشياء متاع يتمتع به في الدنيا ثم يفنى ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ هو حسن المرجع الذي هو الجنة عند الله تبارك وتعالى، فينبغي الرغبة فيه دون غيره. قال علي كرم الله وجهه: إن شهوات الإنسان في النساء والطعام والشراب واللباس والمراكب، قال فأفضل الطعام العسل وهو غائط ذباب فقط، وأفضل الشراب الماء يستوي فيه الناس والدواب والحيوان والوحوش، والنساء مبال في مبال فقط، والمراكب أفضلها الخيل، عليها تقتل الرجال، وأحسن الملابس الحرير غائط دودة فقط[1]. كل هذا لا ينبغي الاعتناء به إنما الاعتناء بما عند الله تبارك وتعالى وذلك لا ينال إلا بطاعته بامتثال أمره واجتناب نهيه. اللهم صل على سيدنا محمد.

---

1 – قال علي كرم الله وجهه لعمار بن ياسر لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة وأكثر شرابها الماء وهو يستوي فيه جميع الحيوان وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة وأفضل مشمومها المسك وهو دم فأرة وأفضل المركوب الفرس وعليها تقتل الرجال وأما المنكوح فهو النساء وهن مبال في مبال. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ج174/1.

الدرس الثامن

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾ هل أخبركم ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾ المذكور من الشهوات ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿فِيهَا﴾ إذا دخلوها ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من الحيض وغيره مما يستقذر ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ رضى كثير ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ عالم ﴿بِالْعِبَادِ﴾ فيجازي كلا منهم بعمله. أخبرنا بما زين للناس من شهوات الدنيا ودعا العباد أن يرغبوا في ما هو خير من ذلك وهو العمل للآخرة. من عمل للآخرة دخل الجنة ووجد ما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قط. وكل ذلك أكبر منه رضى الله تبارك وتعالى الذي لا سخط بعده. "ورضوان من الله أكبر". الإنسان إذا دخل الجنة ورأى ما فيها من النعم يقول الله تبارك وتعالى: هل أزيدكم؟ يقولون: نعم، وهل بعد هذا من مزيد؟ يقول: رضواني أحله عليكم فلا

أسخط عليكم بعده أبدا[1]. فأهل الجنة كل ما وجدوه في الجنة من النعم أعظمها عندهم كونُهم رضوا عن الله ورضي الله عنهم "ارجعي إلى ربك راضية مرضية" وهذا أفضل من الدنيا وما فيها. والجنة جنتان جنة حسية وجنة معنوية فالجنة المعنوية هي المعرفة بالله تبارك وتعالى ومن دخلها لا يشتاق إلى الجنة المستقبلة. الناس منهم من يعمل خوفا من النار، ومنهم من يعمل رغبة في الجنة، ومنهم من يعمل لوجه الله تبارك وتعالى لاستحقاقه العبودية من العبد وأولئك هم الأحرار ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامَنَّا﴾ صدقنا بك وبرسولك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ هؤلاء العباد يناجون ربَّهم: ربنا إننا آمنا، حصل منا الإيمان فاغفر لنا ذنوبنا هذا دليل أن من آمن بالله فقد استحق المغفرة. ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أمدح الصابرين، والصبر على ثلاث مراتب: صبر على البلاء، من صبر على البلاء رفعت له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، وصبر على الطاعة فمن صبر على الطاعة رفعت له ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، وصبر عن المعصية، من صبر عن المعصية رفعت له تسعمائة درجة ما بين

---

1 - أخرج البخاري في صحيحه من كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار (6549) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا :يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا) وفي صحيح مسلم من كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا (5057).

الدرجتين كما بين السماء والأرض[1]. الصبر الصغير هو الصبر على البلاء والمتوسط الصبر على الطاعة والصبر الكبير هو الصبر عن المعصية. الصبر على الطاعة كثير من المسلمين يمتثلون الأوامر ولا يكون هذا إلا بالصبر. والصبر عن المعصية هو الدرجة القصوى لا ينالها إلا الأبرار من عباد الله تبارك وتعالى. كثير من المسلمين يمتثلون الأوامر أما اجتناب النواهي فما وجده إلا الأبرار وهو الدرجة العليا من الصبر، والصبر نصف الإيمان. ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ في الإيمان الذين صدقوا في قولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله وصدقوا في عملهم، الصدق في القول أن يكون عملك موافقا لقولك. والصدق في العمل أن يكون المرء ثابتا على فعل الخير مواظبا عليه عازما عليه دائما لا يرده عنه شيء ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ المطيعين لله ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ المتصدقين ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ الله بأن يقولوا اللهم اغفر لنا ﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ أواخر الليل خصت بالذكر لأنّها وقت الغفلة ولذة النوم[2]. ذكر الأوصاف: الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار بالواو، فدل هذا أن من اتصف بصفة واحدة من هذه الصفات فهو من الصالحين الصابرين. مقام الصبر من رُزقه فهو من

---

1 - (الصبر ثلاثة فصبر على المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية: فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرضين إلى منتهى الأرضين ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرضين إلى منتهى العرش مرتين. الجامع الصغير ج2/ رقم 5137.

2 - قد ورد تخصيص هذا الوقت في الحديث: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب الجمعة/ باب الدعاء في الصلاة آخر الليل (1145) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (1261).

الصالحين. والصدق مقام «والقانتين والمنفقين» لو قال الصابرين الصادقين القانتين المنفقين المستغفرين لَاحْتجنا إلى الجمع بين الصفات قبل أن نكون من الصالحين، ولكن لما عطف بالواو اقتضى هذا أن كل صفة من هذه الصفات توجب أن يكون العبد من الصالحين. أولياء الشريعة كل من اتصف بصفة من الصفات التي مدحها القرآن فهو من الأولياء هذه الولاية الصغرى. والكبرى العارفون، من عرف الله المعرفة العيانية. «المستغفرين بالأسحار» أواخر الليل لحديث النزول: يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الله يمهل حتى يمضي شطر الليل وفي رواية حتى يبقى ثلث الليل - روايتان - فينزل إلى السماء الدنيا ويقول: هل من داع فأستجيب له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟[1] هذا حديث النزول والله تبارك وتعالى ليس له جهة ولا مكان ولا زمان. هذا النزول عبارة عن إقبال الرب برحمته إلى عباده، نزول الله تبارك وتعالى حيث ذكر في الحديث معناه إقباله على العبد. إذا أقبل عليك فقد نزل إليك. ففي حديث عرفات إن الله ينزل بعرفات ويقول يخاطب الحجاج جئتم شعثا غبرا أفيضوا مغفورا لكم، قبلت منكم الحسنات وقبلت المحسنين منكم ووهبت المسيئين للمحسنين أفيضوا مغفورا لكم وتبعاتكم من خزائني لا من حسناتكم[2]. وهذا دليل على أن ساعة الإجابة في كل ليلة وهي في آخر الليل،

---

1 - تقدم ذكره في الصفحة السابقة؛ صحيح البخاري: كتاب الجمعة/ باب الدعاء في الصلاة آخر الليل (1145) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها/ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل (1261).

2 - الحديث: (إن الله عز وجل تطول على أهل عرفات فباهى بهم الملائكة فقال انظروا يا ملائكتي إلى عبادي شعثا غبرا أقبلوا يضربون إلي من كل فج عميق أشهدكم أني قد أجبت دعوهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئهم لمحسنهم وأعطيت محسنهم جميع ما سألني غير التبعات التي بينهم حتى إذا أفاض القوم من

فلهذا يرغب أن يكون العبد عمله في الليل يؤخره إلى الجزء الأخير منه. يقول الصوفية: كن نجما فإن لم تستطع فكن قمرا فإن لم تستطع فكن شمسا. كن نجما: كن متعبدا الليل كله كما أن النجم يبيت الليل كله ساريا، فإن لم تستطع فكن قمرا أي تتعبد في قسم من الليل. القمر يسري في جزء من الليل ويغيب في جزء آخر فإن لم تقدر فكن شمسا تعبد في النهار. كل محب يحب الخلوة بمحبوبه. وبيداء الليل صلوات الخلوات. كان ابن عمر يقول لغلامه هل أسحرت؟ هل دخلت في السحَر؟ إذا قال لا، يقوم يصلي وإذا قال نعم جلس يستغفر الله يؤول هذه الآية. ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ نزلت لما قالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم آتنا بأكبر شهادة في القرآن قال ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ بيَّن لخلقه بالدلائل والآيات ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ﴾ لا معبود في الوجود بحق سواه ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ وشهد بذلك الملائكة ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ﴾ شهدوا بالإقرار ﴿وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ﴾ شهدوا أيضا بالإقرار. أولوا العلم من الأنبياء والمؤمنين، بالاعتقاد واللفظ ﴿قَائِمًا﴾ بتدبير مصنوعاته حال كونه قائما بتدبير مصنوعاته ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كرره للتأكيد ﴿الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه ﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ المرضي ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ تبارك وتعالى هو ﴿الْإِسْلاَمُ﴾ الشرع المبعوث به الرسل المبني على التوحيد. فالإسلام هو دين الله المرتضى لكافة خلقه من أول الدهر إلى آخر الدهر، وإن اختلفوا في بعض أنواع العبادات فقد اتفقوا على الإيمان بالله وحده، تعظيم الله تبارك وتعالى والشفقة على

عرفات أتوا جمعا فوقفوا قال انظروا يا ملائكتي إلى عبادي عاودوني في المسألة أشهدكم أني قد أجبت دعوتهم وشفعت رغبتهم ووهبت مسيئهم لمحسنهم وأعطيت محسنهم جميع ما سأل وتحملت عنهم التبعات التي بينهم). الخطيب في المتفق والمفترق عن أنس. الجامع الكبير ج1/ 164.

خلقه. «إن الدين عند الله الإسلام»: روى وائل عن عبد الله بن مسعود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ: «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام» وأنا أستودع هذه الشهادة عندك فهي لي وديعة عندك يا رب، ينادى يوم القيامة فيقول الرب : إن لعبدي عندي عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوه الجنة، فيدخل الجنة[1]. قال غالب بن قحطان: كنت مسافرا ونزلت عند الأعمش فلما جاء وقت السحر سمعته يردد هذه الآية ويقول: وهي وديعة لي عندك يا رب. فقلت بلغه شيء في هذه الآية وكنت عزمت على السفر حتى أن متاعي ذهب مع القافلة فلما صلى الصبح قلت له سمعتك تكرر هذه الآية فهل بلغك شيء فيها؟ قال: لا أخبرك حتى تقيم عندي سنة كاملة، قال: اكتب هذا اليوم الفلاني من السنة وأنا ببابك، حتى تمت السنة، فلما تمت السنة أخبره حديث وائل هذا عن ابن مسعود أن من قرأ هذه الآية وجعلها وديعة عند الله تبارك وتعالى جاء يوم القيامة والله يناديه على رؤوس الأشهاد: إن لك عندي عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد فادخل الجنة[2]. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى في الدين بأن وحد بعض وكفر بعض ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بالتوحيد ﴿بَغْيًا﴾ حسدا من الكافرين ﴿بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَّكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ المجازاة له ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾

---

1 - (من قرأ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم إلى عند الله الإسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة جيء به يوم القيامة فقيل عبدي هذا عهد إلي عهدا وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنة) رواه أبو الشيخ عن ابن مسعود. الجامع الكبير ج1/ ص 820.

2 - تفسير ابن كثير ج1/ 354

خاصمك الكفار يا محمد في الدين ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ انقدت له أنا ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ مشركي العرب ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ أسلموا ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ﴾ من الضلال ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإسلام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ﴾ التبليغ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيجازيهم بأعمالهم وهذا قبل الأمر بالقتال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ظلما ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وهم اليهود، روي أنّهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا فنهاهم مائة وسبعون من عُبّادهم فقتلوهم من يومهم[1] ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أعلمهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم، وذِكر البشارة هنا تَهكم بِهم ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بطلت، ما عملوا من خير كصدقة وصلة رحم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلا اعتداد بها لعدم شرطها ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين من العذاب ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ سبب نزول هذه الآية أنه زنى شخصان من اليهود وهم من أشرافهم وكان في التوراة حكم الرجم ولكن هم حرفوا وبدلوا إذا زنى شريف جلدوه وإذا زنى حقير رجموه، فلما زنى هذان الشخصان وهما من أشرافهم قالوا نمشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم لنجد عنده رخصة فلما أخبروه الخبر قال: كتاب الله الرجم، قالوا: لا، جرت يا أبا القاسم علينا، لا يجب علينا الرجم. قال: يجب الرجم، الرجم في كتاب الله وفي التوراة، آتوا بالتوراة، قالوا: التوراة ليس فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فصار عبد الله بن صوريا يقرأ حتى بلغ آية الرجم وضع إصبعه على كلمة الرجم وقرأ ما بعدها، وعبد الله بن سلام حاضر وهو يحفظ التوراة فرفع يده وقرأ آية الرجم

---

1 – انظر تفسير الجلالين وحاشية الصاوي عليه. ج1/ 306

فرجمهما النبي صلى الله عليه وسلم[1] فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ حظا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ التوراة ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبول حكمه ﴿ذَلِكَ﴾ التولي ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ذلك بأنّهم مغرورون بأكاذيبهم أنّهم لن يدخلوا النار أو إن دخلوها يقيمون أياما معدودات لأنّهم أبناء الله وأحباؤه مدة عبادة آبائهم العجل ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ افتروا أشياء. رؤساؤهم اختلقوا لهم أكاذيب واعتقدوا تلك الأكاذيب فضلوا بها حتى نسوا كتاب الله تبارك وتعالى. وهذا - وإن نزل في اليهود - فيتناول كثيرا من المسلمين. لابد للمسلم من رجاء وخوف، والرجاء ما قارنه عمل وإلا فغرور. الإنسان يعمل ويحسن عمله ويرجو الله تبارك وتعالى لرحمته ويخاف لسوء أعماله فيكون على طريق مستقيم ما دام الخوف والرجاء يتنازعان قلبه، وإذا حان أجله يغلّب جانب الرجاء لحديث: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء[2] ومن ادعى أنه يرجو الله

---

1 - عن عبد الله بن عمر قال: شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتي بيهوديين زنيا فأرسل إلى قارئهم فجاءه بالتوراة فسأله أتجدون الرجم في كتابكم؟ فقال لا، ولكن يجبهان ويحممان. فقال إذ قيل له اقرأ فوضع يده على آية الرجم فجعل يقرأ ما حولها فقال عبد الله بن سلام أخر كفك فأخر كفه فإذا هو بآية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما فلقد رأيتهما يرجمان وإنه يقيها الحجارة. رواه عبد الرزاق. مسند ابن عمر من الجامع الكبير ج2/ 495.

2 - (قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء) عن واثلة سنن الدارمي: كتاب الرقاق/ باب في حسن الظن بالله (2615) وفي مسند أحمد من مسند المكيين/ باب حديث واثلة بن الأسقع (15442). حديث صحيح.

- وقال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيرا فله وإن ظن شرا فله. أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة. حديث صحيح. الجامع الصغير ج2/ 6051.

تبارك وتعالى وهو يترك أعمال الخير فهو مغرور وهذا ليس رجاء إنما هو أمنية «وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» كانوا يقولون نحن من ذرية إبراهيم وإبراهيم خليل الله ونحن من ذرية عزير وعُزير ابن الله نحن أبناء الله وأحباؤه إذاً لا يمكن أننا نكون من أهل النار أبدا. الإنسان لا يعذب أبناءه ولا يعذب أحباءه وهذا غرور منهم وافتراء، كما أن زعماء اليهود افتروا أكاذيب تعلق بِها عامة اليهود حتى ضلوا، فكذلك كثير من رؤساء المسلمين افتروا أكاذيب غروا بِها جماعة من المسلمين حتى ضلوا الطريق. يروى أن عبدا دخل النار ومكث فيها مدة فسُمع صوت: يا حنان يا منان يا ذا الجلال والإكرام، قالت الملائكة: هذه الكلمة في النار يا رب؟ قال: أخرجوا صاحبها، فأخرجوه وأوقفوه بين يدي الله تبارك وتعالى وقد اسود واحترق حتى صار فحما فحاسبه الحق ثانية فاستحق النار فقال: ردوه إلى النار، فرجعوا به إلى النار وهو يلتفت يمينا وشمالا، قال الرب للملائكة: ردوه، فردوه. قال: لِم تلتفت إلي؟ قال: يا رب عصيتك وأنا لم ينقطع رجائي منك وحاسبتني واستوجبت النار ولم ينقطع رجائي، وأدخلتني النار ولم ينقطع رجائي، وأوقفتني بين يديك ولم ينقطع رجائي، وأمرتَ بردي إلى النار إلى الآن لم ينقطع رجائي منك يا رب، فقال: أدخلوه الجنة فأدخلوه الجنة[1].

---

1 - في الحديث: (إن عبدا في جهنم ينادي ألف سنة يا حنان يا منان قال فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فأتني بعبدي هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره فيقول أن ايت به فإنه في مكان كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه فيقول له يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك؟ فيقول يا رب شر مكان وشر مقيل، فيقول ردوا عبدي فيقول يا رب ما كنت أرجو إذ أخرجتني منها أن تعيدني فيها. فيقول دعوا عبدي) رواه أحمد عن أنس في مسنده/ مسند المكثرين (12931) وفي الجامع الكبير ج1/ 246.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ في يوم ﴿لاَ رَيْبَ﴾ لا شك ﴿فِيهِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من أهل الكتاب وغيرهم جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عملت من خير وشر ﴿وَهُمْ﴾ أي الناس ﴿لاَ يُظْلَمُونَ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة، لا ظلم يوم القيامة، "من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره". ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ هذه الآية نزلت في يوم الخندق لما اجتمع المشركون من كل جهة وأتوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهم عشرة آلاف مقاتل[1] حلقوا بالمدينة من كل جانب فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف من أصحابه وقال لسلمان: أشر لنا برأي، ما الرأي في هذا؟ قال له سلمان: الرأي أن نحفر خندقا حول المدينة حتى لا يقدروا على دخول البلدة، إذا بقوا وراء الخندق لا يقدرون لنا على شيء وإن دخلوا الخندق قتلناهم عن آخرهم. فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم: كل عشرة رجال يحفرون أربعين ذراعا حتى يبلغ عمق عشرة أذرع، فالمهاجرون بجانب والأنصار بجانب وأهل البيت بجانب، فتنازعوا في سلمان هذا الذي جاء بهذا الرأي، فقال المهاجرون: سلمان منا، لأنه ليس من أهل المدينة، ليس من الأنصار، وقال الأنصار: سلمان منا لأنه دخل الإسلام في المدينة فهو واحد من أهل المدينة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (سلمان منا أهل البيت)[1] ألحقه بأهل البيت وهو من الفرس، بالإيمان لحق ليس

---

1 - جاء ذلك في الرحيق المختوم ص277 وفي سيرة ابن هشام ج3/ 230 وفي حاشية صحيح مسلم (المسمى الجامع الصحيح) ج187/5.

1 - حديث صحيح أورده الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك كلاهما عن عمرو بن عوف. الجامع الصغير ج2/ 4696.

بالعرب فقط بل بأهل البيت، فصاروا يحفرون وسلمان مع أهل البيت حتى بلغوا كدية كالفيل لا يؤثر فيها المعاول فأرسل سلمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ واصل ثلاثة أيام بغير طعام ليلا ونَهارا حتى أنه نزل في الخندق وهو يربط الحجارة على بطنه[1]، قال العلماء لأجل شدة الجوع، تقوية، وقال الصوفية إنه يخاف أن تغلب روحانيته على جسمانيته فيغيب عنا. على كل حال دخل الخندق وأخذ المعول بعدما توضأ وصب وضوءه على الحجارة، فضرب فانكسر ثلث الجبل وضاء نور عظيم حتى كأن مصباحا كبيرا أوقد في بيت مظلم فقال: الله أكبر وضرب ثانية وثالثة فصار هباء منثورا، فقال سلمان: رأينا عجبا: كلما ضربت بالمعول رأينا نورا عظيما كأن مصباحا أوقد في بيت مظلم. فقال: رأيتم ما رأى سلمان؟ قالوا: نعم. قال: لما ضربت المرة الأولى نظرت إلى قرى الحيرة فبشرت بأن أصحابي سيملكونَها، وثانية رأيت بلاد الروم رأيت القصور الحمر في أرض الروم وبشرت بأن أمتي ستملك ذلك، وثالثة نظرت إلى صنعاء اليمن وكل هذه ستملكها أمتي[2]. قال المنافقون: يمنيكم ويعدكم الأكاذيب هذا الذي يفرَق أي يخاف من أعدائه حتى يحفر الخندق لا نقدر أن نتبرز أي نخرج إلى حاجة الإنسان، يعدكم بأنكم ستملكون بلاد فارس والروم ومدائن

---

1 – جاء في صحيح البخاري من حديث جابر رضي الله عنه قال إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة فجاءوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا هذه كدية عرضت في الخندق فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا... الحديث. صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الخندق وهي الأحزاب (4101).

2 – سيرة ابن هشام ج3/ 230.

كسرى هذه لا سبيل إلى ملكها[1] فنزلت ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿اللَّهُمَّ﴾ يا الله ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي﴾ تعطي ﴿الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ من خلقك ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ منهم ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ بإتيانه الملك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ بنزعه منه ﴿بِيَدِكَ﴾ بقدرتك ﴿الْخَيْرُ﴾ والشر ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ﴾ تدخل الليل ﴿فِي النَّهَارِ﴾ الليل اثنتا عشرة ساعة والنهار كذلك وفي بعض الأوقات يأخذ الله تبارك وتعالى ثلاث ساعات من الليل ويجعلها في النهار فيصير النهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات وتارة يرجع حتى يقع الاعتدال، ويأخذ ثلاث ساعات من النهار فيكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات. الذي يقدر أن يفعل هذا قادر على أن يملّك أمة محمد مدائن كسرى وصنعاء اليمن. ﴿وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالإنسان والطير من النطفة والبيضة ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ كالنطفة والبيضة ﴿مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رزقا واسعا. الله تبارك وتعالى هو مالك الملك يعطي لمن يشاء كيف يشاء. وقد وقع ما بشر به النبي صلى الله عليه وسلم فدوخوا الدولتين الكبيرتين. أما الأولى التي هي دولة فارس - وكانت أكبر دولة في العالم - حطموها حتى صارت عدما، حكم فيها المسلمون إلى يومنا هذا، والدولة الثانية سلبها المسلمون من جميع مستعمراتها فبقيت دولة صغيرة وتسلط المسلمون عليهم حتى دخلت دولة المسلمين في أوربا. الله مالك الملك يعطي الملك من يشاء إذا رضي عن الخلق، إذا أطاعوه ملّك فيهم الصالحين أرباب الرحمة والشفقة، وإذا عصوه ملّك أراذل الناس

---

1 - هو أحد قولين ذكرهما ابن جزي في التسهيل لعلوم التنزيل ج103/1 ط2 دار الكتاب العربي.

وشرارهم كما يشير إليه حديث: (كما تكونون يولى عليكم)[1] قال موسى عليه الصلاة والسلام: يا رب أنت في السماء ونحن في الأرض كيف نعرف رضاك عنا وسخطك علينا؟ قال: إذا وليت فيكم خياركم فاعلموا أني عنكم راض، وإذا وليت شراركم ذلك دليل على سخطي. وكان الحجاج بن يوسف ملكا جائرا سفاكا قتل مائة وسبعين ألفا من المسلمين، وخاطبه العلماء في زمنه قالوا له: اتق الله واعدل كمثل عمر بن الخطاب لأنك أدركت خلافة عمر، كيف لا تكون كمثل عمر؟ قال لهم: تبذروا أتعمّر لكم أي كونوا كأبي ذر في الزهد والعبادة أكن كعمر بن الخطاب. يؤول قول الرسول صلى الله عليه وسلم (كما تكونون يولى عليكم) ونظام الملك عليه قوام الأشياء، إذا عدل المِلك نزلت البركة في الزرع والضرع والتجارة فيكثر المال، وإذا كثر المال قوي الرجال وإذا قوي الرجال قويت الدولة وقوي المِلك. وإذا جار المِلك رفعت البركة من الزرع والضرع وكسدت التجارة وافتقر الناس. وإذا افتقر الناس ضعف الرجال وإذا ضعف الرجال ضعفت الدولة وضعف الملك. كله متعلق بعدل الملك وجوره. وملك واحد من ملوك الدنيا غضبه يوجب خراب الدنيا كلا، فكيف بغضب ملك الملوك الذي هو الله تبارك وتعالى؟ أجارنا الله منه. لما ولي عمر بن عبد العزيز وعظه عالم وقال له: إذا أردت أن تفعل الخير فولّ أهل الخير، فقال: كفى بِها موعظة، إذا وليت أهل الخير يعملون الخير. كان ملك من الملوك خرج إلى الفلاة يتصيد فانقطع عن جماعته وضل في الفلاة فأدركه العطش فجاء إلى رجل عنده بستان فقال له: أعطني من بستانك فأعطاه ثمرة فشقها فشرب فوجد ماء حلوا كثيرا في الثمرة فأعجب بالبستان

1 ـ أخرجه الإمام السيوطي في الجامع الصغير تحت رقم 6406.

وأضمر بقلبه أنه يأخذ البستان قهرا. قال: ناولني ثمرة أخرى، فناوله أخرى فشقها فوجدها يابسة ليس فيها قطرة ماء حامضة فقال: سبحان الله ما هذا؟ قال الرجل: لعل الملك يراجع نيته: هل نويتَ شيئا؟ فتذكر أنه نوى أنه يأخذ البستان قهرا فتبدلت حالة البستان في الحين فلما نوى التوبة رجعت ورجعت الثمار بحالها[1]. الخير كله في الاستقامة والشر كله في الاعوجاج. «تخرج الحي من الميت» فيه تأويل تخرج الحي المسلم من الميت من الكافر[2]. يلد كافر مسلما. تخرج الحي العالم من الميت من الجاهل، تجد جاهلا يلد ولدا فيكون عالما والعكس. أو تخرج الحي القلب الحي من الميت من النفس الميتة، إذا ماتت النفس حيي القلب. «وتخرج الميت من الحي» وإذا حييت النفس مات القلب. هذه أربع آيات قال الرسول صلى الله عليه وسلم: فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتان من سورة آل عمران: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام" و "قل اللهم مالك الملك - إلى - بغير حساب" أربع آيات

---

1 - جاء في نزهة المجالس للصفوري: خرج الأمير شروان للصيد فأدركه العطش فرأى في البرية بستانا وعنده صبي فطلب منه ماء فقال ليس عندنا ماء قال ادفع لي رمانة فدفعها إليه فاستحسنها فنوى أخذ البستان ثم قال ادفع لي أخرى فدفع له أخرى فوجدها حامضة فقال: أما هي من الشجرة الأولى؟ قال: نعم، قال: كيف تغير طعمها؟ قال: لعل نية الأمير تغيرت، فرجع عن ذلك في نفسه ثم قال ادفع لي أخرى فدفع له أخرى فوجدها أحسن من الأولى فقال كيف صلحت؟ قال: بصلاح نية الأمير. نزهة المجالس

2 - قال الحسن معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن وروي نحوه عن سلمان الفارسي وروى معمر عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على نسائه فإذا بامرأة حسنة الهيئة قال: من هذه؟ قلن إحدى خالاتك. قال: ومن هي؟ قلن: هي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث قال النبي صلى الله عليه وسلم سبحان الذي يخرج الحي من الميت. وكانت امرأة صالحة وأبوها كافر. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج4/ 56.

كن معلقات ما بينهن وبين الله حجاب فلما أمر بإنزالها إلى الأرض شكت هذه الآي الأربع: يا رب لا تنزلنا إلى من يعصيك لا قدرة لنا بمجاورة من يعصيك، قال الله تبارك وتعالى: "وعزتي وجلالي وعلو مكاني لا يقرؤكن إنسان دبر كل صلاة إلا وجبت له الجنة، وإلا نظرت إليه سبعين مرة كل نظرة أقضي له فيها سبعين حاجة أدناها المغفرة فرضين ونزلن[1]. هن أربع آيات: فاتحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهم مالك الملك، من لازم قراءتهن فله ما ذكر ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم ويصادقوهم ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا تترك المؤمنين وتصادق الكفار ﴿وَمَنْ يَّفْعَلْ ذَلِكَ﴾ يوالهم ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ فليس من دين الله في شيء ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ إلا أن تخافوا منهم مخافة. إذا كان للكافر سطوة وخفت منه فلك رخصة أن تواليه ظاهرا لا باطنا والعزيمة هي معاداة أعداء الله وموالاة أولياء الله. أما الموالاة باللسان دون القلب ففيها رخصة أما بالقلب فلا سبيل إليها. والعزيمة هي عدم الموالاة ولو باللسان. (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف

1 - قال علي رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: لما أراد الله تعالى أن ينزل فاتحة الكتاب وآية الكرسي وشهد الله وقل اللهم مالك الملك إلى قوله بغير حساب تعلقن بالعرش وليس بينهن وبين الله حجاب وقلن يا رب تهبط بنا دار الذنوب وإلى من يعصيك؟ فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا يقرؤكن عبد عقب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس على ما كان منه وإلا نظرت إليه بعيني المكنونة في كل يوم سبعين نظرة وإلا قضيت له في كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة وإلا أعذته من كل عدو ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت. القرطبي ج4/ 52. وأورده السيوطي في مسند علي من الجامع الكبير ج99/2 برواية أخرى.

الإيمان)[1]. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾ يخوفكم ﴿اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أن يغضب عليكم إن واليتموهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ والمصير إلى الله، المرجع إليه فيجازيكم. عجبا يحذرنا الله تبارك وتعالى ولا نخاف منه والإنسان ضعيف في نفسه، هو لا يصبر على لطمة شرطي ولا حر الشمس ولا قرصة نمل كيف يقدر على غضب الرب وعقابه والنار وما فيها من الحيات والعقارب[2]؟ لا يستطيع. الإنسان يحجبه عن المعصية، إذا تفكر، ثلاثة أشياء: يتفكر في غضب الله تبارك وتعالى وشدة عقابه، ويتفكر في ضعفه هو، الإنسان إذا تفكر في هذه الأشياء لا جرم يترك مخالفة الله تبارك وتعالى. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم من موالاتهم ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ تظهروه ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿وَ﴾ هو ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه تعذيب من والى الكفار. اذكر ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ما عملته ﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ﴾ ــهُ ﴿مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ غاية في نهاية البعد فلا يصل إليها ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كررها للتأكيد ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ والله تبارك وتعالى شديد الرأفة بعباده. «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا» هو الإنسان إذا انقضت أيام عمره يأتيه الملك فيقبض روحه ويحمل إلى القبر ويدفن يجد شخصا كريه المنظر قبيح الرائحة يقول له: أبعد عني لا أحب أن أراك. يقول أنا عملك

---

1 - صحيح مسلم كتاب الإيمان/ باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (70).

2 - عن عبد الله بن الحارث الزبيدي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفا وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة) مسند الإمام أحمد: من مسند الشاميين/ حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي (17052).

السيئ طالما ركبتني واليوم سوف أركبك. وإذا كان عبدا لله صالحا إذا دخل قبره يجد شيئا حسنا يقول له ادن مني ما أحسن وجهك وما أطيب رائحتك يقول: أنا عملك الصالح طالما ركبتك فاليوم تركبني[1]، هو قوله تعالى «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا» في قبره «وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا» ونزل لما قالوا ما نعبد الأصنام إلا حبا لله ليقربونا إليه، واليهود ووفد نجران خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: أسلموا، قالوا نحن أسلمنا، أسلمنا قبلك، ديننا قبل دينك وكتابنا قبل كتابك. قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: لا، يمنعكم من الإسلام كونكم تقولون إن عيسى ابنٌ لِلّهِ والله ليس له ولد. قالوا له: على أي دين أنت؟ قال: دين إبراهيم. قالوا: إبراهيم كان يهوديا، كذَبهم الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ بمعنى أنه يثيبكم ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن اتبعني ما سلف منه قبل ذلك ﴿رَحِيمٌ﴾ به. هذا دليل على أن من أحب الله يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم. علامة محبة الله هي طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم. الله قرن طاعته بطاعة رسوله: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" وجعل علامة محبته هي طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا واضح من أحب شخصا يحب جميع أحبابه والمتعلقين به، من يحبب حبيبا أحب ملابسيه من الأنام. مجنون ليلى لما اشتدت محبته في ليلى رأى كلبا في البيداء فكساه ثوبا فلما خوطب في ذلك قال: إن عيني رأته

---

1 - أورد الصاوي في حاشيته على الجلالين أن الميت يلقى عمله الصالح أو السيئ لكن عند خروجه من القبر للحشر ج148/1.

مرة في حي ليلى[1]. إذاً من أحب الله، حبيب الله هو رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» من أحب الله فليتبع الرسول صلى الله عليه وسلم. من ادعى محبة الله وهو يترك طريقة النبي صلى الله عليه وسلم فهو مدع كاذب.

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[2]

إتباع النبي صلى الله عليه وسلم في سائر الأقوال والأفعال هو أعلى وسيلة يتخذها العبد للوصول إلى حضرة الله تبارك وتعالى. في القرآن سبعة نفر اتبعوا سبعة أشياء منهم من أطاع نفسه "فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين" فهمنا من هذا أن اتباع النفس لا يتولد منه إلا الخسران والندامة. "واتبع هواه فمثله

---

1 - ذكر الإمام الغزالي في مجموع رسائله ص474 أن مجنون ليلى رئي على كتفه كلب يطعمه ويسقيه وقيل له في ذلك فقال رأيته يحرس باب ليلى ثم أنشأ:

رأى المجنون في الفلوات كلبا فضم إليه بالإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه وقالوا لم منحت الكلب نيلا
فقال ذروا ملامكمُ فعيني رأته مرة في باب ليلى

وهذا يعضده ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: ألا تصلي على فلان وقد مات؟ فقال: لا أصلي على من لم يصل، فقال عمر أنا رأيته يصلي ركعتي العيد، فقال عليه السلام: كيف أصلي على من لم يصل إلا نافلة. فجاءه جبريل عليه السلام أمين الحضرة وقال له يا محمد أليس رأوه في بابنا مرة؟ إذا رددته من بابي فبباب من يقف؟ يا محمد إني قد غفرت له فصلت عليه ملائكتي، إن الله لغني عن العالمين.

2 - من أبيات ثلاثة وردت في ديوان الشافعي الذي جمعه يوسف الشيخ محمد البقاعي ص82:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك مضيع.

وقد أورد البيتين الأولين المراغي في تفسيره وعزاهما للوراق. مج1/ج3/ 140.

كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث" هذا بلعام لما اتبع هواه أخلد إلى الأرض واتبع هواه مسخه الله فصار كالكلب. والذين اتبعوا رؤساء الضلالة: "إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب" هذا الإتباع ما خرج منه إلا حسرات. ومنهم من اتبع فرعون "واتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبيس الورد المورود" اتباع فرعون ليس له نتيجة إلا دخول النار فقط. ومنهم من اتبع الشهوات "فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا". ومنهم من اتبع إبليس، واعده الله أنه هو ومن اتبعه "لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين"."وإن جهنم لموعدهم أجمعين". إبليس ومن اتبعه مصيرهم إلى جهنم. ليس في الإتباع فائدة إلا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم». من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم يجد محبة الله والله إذا أحب عبده كان هو: (لا يزال عبدي يتقرب إلي بنوافل الخير حتى أحبه[1] فإذا أحببته كنته) ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به من التوحيد ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن الطاعة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ لا يحبهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى﴾ اختار ﴿ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إبراهيم ﴿وَءَالَ عِمْرَانَ﴾ يعني عمران ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عالمي زمانهم. كل هؤلاء اصطفاه الله، اصطفى آدم

---

1 – عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب التواضع (6502).

وجعله خليفة في الأرض وأرسل نوحا هو أول أنبياء الشريعة، وإبراهيم خليل الله، وعمران، هؤلاء جعلهم الله من الأنبياء ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ وهؤلاء الأنبياء جعلهم الله ذرية بعضها من ولد بعض ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إن نوحا من ذرية آدم وإبراهيم من ذرية نوح وإبراهيم ولد إسماعيل وإسحاق، إسحاق والد يعقوب الذي هو إسرائيل، فأنبياء بني إسرائيل كلا من إسحاق، وأنبياء العرب الذين هم فيهم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل، فكان الأنبياء كلهم ذرية بعضها من بعض وذلك حكمة الله تبارك وتعالى، الولد سر أبيه[1] ولذلك تجد غالبا الأنبياء أبناء الأنبياء، الأولياء أبناء الأولياء، العلماء أبناء العلماء، الملوك أبناء الملوك، الكفار أبناء الكفار، الفساق أبناء الفساق، هذا هو الأصل ولا يتخلف إلا لعارض، ربما يأتي عارض بمشيئة الله تبارك وتعالى فيغير هذا الأسلوب. ذلك لأن الوالد إذا كان صالحا ونيته صالحة، فتزوج حلالا، وأكل طيبا، وأتى أهله فرزق ولدا يكون مؤمنا ووليا لحسن عمله، وطيب مأكله، وحسن نيته، وحسن عقيدته، إلا لعارض يعرض ويفسد الولد.

والوالد إذا كان كافرا عقيدته سيئة مظلمة ونيته سيئة، وأكل حراما، ونكح حراما، إذا خرج الولد خرج كافرا أو فاسقا إلا لعارض يعرض ويطهر هذا الولد، فلهذا ورد حديث (الولد سر أبيه) ويظهر هذا في عيسى عليه الصلاة والسلام، ليس له أب ولكن الذي نفخ في أمه فحملت هو جبريل عليه الصلاة والسلام، لذلك تجد أحوال الملائكة غالبة في عيسى «ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» ﴿إِذْ

---

1 – حديث أورده البروسوي في روح البيان ج26/1.

قَالَتْ﴾ اذكر إذ قالت ﴿إِمْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ حنة بنت فاقودا[1] لما أسنت واشتاقت للولد فدعت الله وأحست بالحمل، حنة هذه أم مريم كانت عاقرا وكانت تغبط النساء على أولادهن وتتمنى أن تجد ولدا. ويوما نظرت إلى خَدَمة مسجد القدس فتمنت أن لو كان لها ولد لجعلته هدية يكون من هؤلاء الخدام في المسجد. فرزقها الله حملا، فلما أحست بالحمل قالت: يا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ أن أجعل ﴿لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عتيقا خالصا من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيَ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ﴾ للدعاء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالنيات، وهلك عمران وهي حامل ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ ولدتها جارية وكانت ترجو أن يكون غلاما، إذ لم يكن يحرر إلا الغلمان ﴿قَالَتْ﴾ معتذرة يا ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾ وضعت الحمل أنثى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ جملة اعتراض ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الذي طلبت ﴿كَالأُنثَى﴾ التي وهبت لي. الله تبارك وتعالى أعلم بما وضعت «وليس الذكر كالأنثى» يحتمل معنيين: وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبتَ لي، فالأنثى أنقص من الذكر لضعفها وعورتها وما يعتريها من الحيض ونحو ذلك أو وليس الذكر كالأنثى التي وهبت لي، وهبت لي بنتا ولكن ليس الذكر كالأنثى، فاقت البنين ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ مريم في لغتهم العابدة ﴿وَإِنِّيَ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أولادها ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ المطرود، في الحديث: ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخا إلا مريم وابنها. رواه الشيخان[2] ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ قبل مريم من أمها

---

1 - أو فاقوذا كما في ابن كثير (ج1/360) وفي الخازن (ج1/229)، وفاقود بالمهملة في القرطبي (ج4/65) والصاوي (ج1/150).

2 - رواية البخاري (ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ لم يقل بتقبل حسن لأن التقبل فيه كلفة ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أنشأها بخلق حسن «أنبتها نباتا حسنا» يحتمل معنيين: إما حساً كانت تنبت في اليوم ما ينبت الولد في العام[1] أو أنشأها على أحسن خلق فكان الإنبات معنويا، فحملتها فأتت إلى سدنة بيت المقدس فقالت دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنّها بنت إمامهم فقال زكريا أنا أحق بِها لأن خالتها عندي عيشاء بنت فاقودا، وحنة بنت فاقودا، وعيشاء زوجة زكرياء فقالوا: لا حتى نقترع، فانطلقوا وهم تسعة وعشرون إلى نَهر الأردن وألقوا أقلامهم على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بِها، فثبت قلم زكرياء فأخذها ﴿وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّاءُ﴾ وبنى لها غرفة في المسجد بسلم لا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بأكلها وشربِها ودهنها، فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف[2]، هذه كرامات الأولياء لأنّها ليست من الأنبياء فمن أنكر كرامات الأولياء فقد كذب بمائتي آية وما يزيد على خمسمائة حديث فإن مريم هذه كانت توجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، فتربت في محراب المسجد ما رآها رجل قط إلا زكرياء، محرَمها الذي يدخل عليها بطهورها وشربِها وأكلها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّاءُ الْمِحْرَابَ﴾ الغرفة ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ فاكهة الشتاء في

الرجيم (4548) . ورواية مسلم (كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها) عن أبي هريرة كتاب الفضائل/ باب فضائل عيسى (4364).

1 – جاء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: "قال وأنبتها نباتا حسنا يعني سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد". مجلد 2/ ج4، ص69. وفي تفسير الخازن كذلك ج230/1.

2 – القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ج4/ 71.

الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء؟ ﴿قَالَتْ﴾ وهي صغيرة ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يأتيني به من الجنة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رزقا واسعا بلا تبعة هذا من كرامات الأولياء ومن أنكر كرامات الأولياء ـــ قالوا إن هذا إرهاص من معجزات عيسى الولد. وكرامات الأولياء ثبتت في الكتاب والسنة وشوهدت، لذلك لا يمكن أن ينفيها إلا جاحد. فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. وقع مثل هذه الكرامة لفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، كان عندها قطعة لحم صغيرة وقطعة من الخبز فرأت ما بالنبي صلى الله عليه وسلم من الجوع فآثرت النبي صلى الله عليه وسلم على نفسها، فأتت ووضعته بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فلما رفع النبي الغطاء امتلأت القصعة من اللحم الطيب والخبز والدهن فدعاها الرسول صلى الله عليه وسلم فنظرت قال: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، قال: الحمد الله الذي جعلك مثل مريم ابنة عمران سيدة نساء عالمها. فأكل أهل البيت كلا وبقي فأطعموا أهل الصفة وبقي، فقال يرسل إلى كل بيت في المدينة، فلم ينفد[1]. وأغرب منه يوم من الأيام اشتاق الحسن إلى شيء من الطعام

---

1 – عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئا فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع قالت لا والله بأبي أنت وأمي فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت والله لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ومن عندي وكانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إليها فقالت بأبي أنت وأمي قد أتى الله بشيء فخبأته لك قال هلمي يا بنية، قالت: فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هي مملوءة خبزا ولحما فلما نظرت إليها بهتُّ وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه حمد الله وقال من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فحمد الله وقال الحمد لله الذي جعلك يا بنية

فباعوا قميص فاطمة بستة دراهم فصنعوا طعاما. لما لم يبق إلا الأكل وقف مسكين فطلب منه الصدقة فدفعوه له فخرج علي فلقي رجلا يبيع جملا فقال له بع لي الجمل قال أبيعه لك بستة دراهم إلى أجل، فأخذ علي الجمل بستة دراهم إلى أجل فلقي آخر فقال له: بع لي الجمل، قال له: كم تعطيني؟ قال له: ستة وستين درهما، فدفع له ستة وستين درهما فأخذ الستة دراهم يريد أن يقضي الدين الذي أخذ فطلب البائع الأول فلم يجده فأتى بستة وستين درهما. فقال له الرسول: علمت البائع؟ البائع الأول رضوان خازن الجنة، هو الذي أسلفك الجمل والذي اشتراه منك بستة وستين درهما ذاك ميكائيل، والسائل الأول الذي اختبركم بأخذ طعامكم هو جبريل، جبريل هو المسكين والبائع الأول رضوان خازن الجنة، والمشتري ميكائيل بحيث وجد ستة وستين درهما بدل ستة دراهم[1].

فلما نظر زكرياء في حال مريم علم أن القادر على الإتيان بهذا في هذا الوقت قادر على أن يهب الولد في الكبر ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّاءُ رَبَّهُ﴾ لما دخل المحراب في الليل للصلاة في جوف الليل ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ ولدا صالحا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ أي جبريل ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ في المسجد ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ الكلمة

شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا وسئلت عنه قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي ثم أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكل علي وفاطمة وحسن وحسين وجميع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته حتى شبعوا جميعا. قالت وبقيت الجفنة كما هي قالت فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا. ابن كثير ج1/ 361. وفي قصص الأنبياء (المسمى بالعرائس) ص209.

1 – انظر تفسير روح البيان ج419/1.

هي عيسى عليه الصلاة والسلام أبناء خالة ﴿وَسَيِّدًا﴾ متبوعا ﴿وَحَصُورًا﴾ ممنوعا من النساء لا عجزا ولكن منع نفسه ﴿وَنَبِيئًا مِّنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ ولد ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي بلغت نهاية السن مائة وعشرين سنة[1] ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ بلغت ثمانية وتسعين سنة ﴿قَالَ﴾ الأمر ﴿كَذَلِكَ﴾ مِن خلق الله غلاما منكما ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ لا يعجزه شيء عبر بالفعل هنا وفي قضية عيسى بالخلق لأن قضية عيسى أشد خرقا للعادة هذا فعل وذلك خلق ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ ءَايَةً﴾ علامة على حمل امرأتي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ تمتنع من كلامهم بذكر الله ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ هذا أصل خلوة ثلاثة أيام التي يقوم بها الصالحون ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ إشارة ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ صل ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ اختارك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من مسيس الرجال ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ أهل زمانك يعني عالم زمانها قال الرسول صلى الله عليه وسلم: كمل من الرجال كثير و لم يكمل من النساء إلا قليل مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم[2] وخديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم[3] فيهن يقول الشاعر:

---

1 - هي رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه. ذكره الخازن في تفسيره ج1/ 233.

2 - عن أبي موسى (كمل من الرجال كثير و لم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) متفق عليه صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قوله تعالى وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة (3411) وفي صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل خديجة أم المؤمنين (4459)

3 - هذه الزيادة ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه لحديث أبي موسى السابق (كمل من الرجال.. الحديث) فقال: وورد في هذا الحديث من الزيادة بعد قوله ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد

فلو كان النساء كما ذكرنا   لفضلت النساء على الرجال[1]

قال النبي صلى الله عليه وسلم في عائشة: أنت سيدة نساء العالمين، قالت كيف أكون سيدة النساء ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: مريم سيدة نساء عالمها، وآسية سيدة نساء عالمها وخديجة بنت خويلد سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة النساء كما أني سيد الرجال) هي أفضلهم[2]. ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أطيعيه ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ صلّي مع المصلين ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ﴾ في الماء يقترعون ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ في كفالتها و﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ﴾ جبريل ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ هو عيسى ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا﴾ ذا جاه ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة ﴿وَالآخِرَةِ﴾ بالشفاعة والدرجات العلى ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله تبارك وتعالى. همة الإنسان قاهرة لجميع الأكوان إذا تفكرتَ في حالة حنة بنت فاقودا تعلقتْ بولد يكون من خَدَمة المسجد فطلبتْ ولدا فجاء ولدها بنتا ولكن

وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم" أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والثعلبي في تفسيره. وأخرج أحمد في مسنده عن ابن عباس قال خط رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض أربعة خطوط قال أتدرون ما هذا فقالوا الله ورسوله أعلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ومريم ابنة عمران) مسند بني هاشم/ بداية مسند عبد الله بن العباس (2536)

1 – بيت من قصيدة للمتنبي مطلعها: نعد المشرفية والعوالي   وتقتلنا المنون بلا قتال
قالها في رثاء والدة سيف الدولة. ديوان المتنبي م2/ ج3/ 149 دار الكتاب العربي – بيروت

2 – لحديث أبي موسى السابق: (كمل من الرجال... الحديث)

بنتا زاحمت الرجال في المقامات حتى صارت من الرجال حتى وصفها القرآن "وكانت من القانتين" لم يقل من القانتات. بنت كأنّها رجل لأن أمها حين طلبها متعلقة برجال كُمَّل فرزقها الله بنتا لحقت بمقامات الرجال. وزكرياء لما نظر في خوارق العادات عند مريم تعلق هو أيضا بولد وطلب ولدا، رزقه الله ولدا ذكرا هو يحيى ولكن ذكر لم يتزوج ولم يأت امرأة، ظهر به حال مريم الذي تعلقت به همة أبيه حتى صار حصورا ليس عن عجز ولكن امتنع من النساء. ومريم جاءت بولد هو عيسى بمخالطة جبريل فصار الولد متصفا بصفات الملائكة حتى لحق بالملإ الأعلى وسكن في السماوات فصار يطير مع الملائكة فلهذا الولد يؤثر فيه ما يباشره آباؤه عند نشأته ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ طفلا قبل وقت الكلام لما ولد تكلم كما سيأتي في سورة مريم ﴿وَكَهْلاً﴾ بعد أربعين سنة ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بتزويج ﴿قَالَ﴾ الأمر ﴿كَذَلِكِ﴾ من خلق ولد منك بلا أب ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ فهو يكون ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ حفظ التوراة وهو في بطن أمه ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ في الصبا فنفخ جبريل في جيب درعها فحملت وكان من أمرها ما ذكر في سورة مريم. لما حملت بعيسى صارت إذا خلت عن الناس صار عيسى يتحدث معها وهو في بطنها وإذا أتى الناس اشتغل بذكر الله وترك الحديث مع أمه. فأتت به قومها تحمله كما سيأتي. وكان يوسف النجار قريبا لمريم رآها حاملا فتعجب، كلما أراد أن يتهمها بالحمل نظر في صلاحها فرآها بعيدة من التهمة وكلما أراد أن يبرئها نظر أنّها حملت ولا زوج لها حتى يوما خاطبها: يا مريم أنا في قلبي شيء أدافعه عن نفسي حتى عجزت عن دفعه، لابد أن أسألك سؤالا: أينبت زرع بلا بذر؟ قالت نعم، أينبت شجر بلا

غرس؟ قالت نعم، أيوجد ولد بلا أب؟ قالت: نعم، ألم تر أن الله تبارك وتعالى أنبت الزرع قبل البذر؟ فالبذر جاء من الزرع الذي أنبته الله بلا بذر والشجر أنبته الله قبل أن يُغرس شجر، فالغرس جاء من الشجر الذي نبت قبل الغرس. والولد ألا تعلم أن آدم خلقه الله بلا أب ولا أم؟ فالأولاد من آدم وآدم ليس له أب ولا أم. فشفي ما في قلبه تماما تيقن أن الله رزقها ولدا بلا أب[1] ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ علامة صدق ﴿مِن رَّبِّكُمْ إِنِّيَ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ مثل صورته ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ﴾ أشفي ﴿الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ كرر هذا لئلا يتوهم فيه الألوهية. كان يحيي الموتى فقالوا يوما هو يحيي الموتى الذين ماتوا جديدا، أما من مات قديما فلا يقدر أن يحييه، لا نؤمن بأنك تبعث الموتى إلا إذا بعثت لنا سام بن نوح الذي مات منذ أربعة آلاف سنة،

---

1 – ذِكْر المحاورة ورد في قصص الأنبياء (العرائس): قال وهب: ..وكان أول من أنكر حملها ابن عمها وصاحبها يوسف النجار فلما رأى الذي بها استعظمه ولم يدر ماذا يصنع من أمرها وكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تغب عنه ساعة وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل فلما اشتد ذلك عليه كلمها. فكان أول كلامه إياها أن قال لها: إنه قد وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على أن أكتمه فغلبني ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري فقالت له قل قولا جميلا. قال لها: أخبريني يا مريم هل نبت زرع بغير بذر؟ قالت نعم. — فهل نبتت شجرة بغير غيث؟ قالت: نعم. قال فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت ألم تعلم أن الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر إنما يكون من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجر من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق الله كل واحد منهما على حدة، أوَ تقول إن الله لا يقدر أن ينبت الشجر حتى استعان بماء ولولا ذاك لم يقدر على إنباته؟ قال يوسف لها: لا أقول هذا ولكني أقول إن الله تعالى يقدر على ما يشاء يقول للشيء كن فيكون. فقالت له مريم: ألم تعلم أن الله تعالى خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ قال: نعم. فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من أمر الله وأنه لا يسعه أن يسألها عنه. قصص الأنبياء ص 214.

فقال دلوني على قبره، فدلوه على قبره فدعاه يا سام، فخرج وقد شاب نصف رأسه، قالوا له أنت شبت وأنت مت في زمن قبل الشيب؟ الشيب ما طرأ إلا في زمن إبراهيم وسام مات قبل إبراهيم بألف سنة، قال: لما دعاني عيسى خوطبت من جهة الحق أجب روح الله، فظننت أن القيامة قد قامت فلهذا فزعت حتى شبت، قال له عيسى: ارجع إلى محلك فقال: بشرط ألا أذوق مرارة الموت ثانية، قال كيف مرارة الموت؟ قال: منذ مت، مت منذ أربعة آلاف سنة؟ قال: نعم، قال: إلى الآن أجد مرارة الموت في حلقي[1] ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ تخبئون ﴿فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيها فأحل لهم من السمك والطير ما لا صيصة له ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرره تأكيدا وليبني عليه ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِي﴾ فيما آمركم به ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا﴾ الذي آمركم به ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ علم ﴿عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ وأرادوا قتله ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِيَ﴾ أعواني ذاهبا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لأنصر دينه ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أعوان دينه وهم أشياع عيسى ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ﴾ يا عيسى ﴿بِأَنَّا

---

1 – جاء في قصص الأنبياء للثعلبي أن عيسى كان يصف للحواريين سفينة نوح فقالوا له لو بعثت لنا من شهد السفينة فينعت لنا ذلك فقام وأتى تلا وضرب بيده وأخذ قبضة من تراب وقال هذا قبر سام بن نوح إن شئتم أحييته لكم؟ قالوا: نعم فدعا الله باسمه الأعظم وضرب التل بعصاه وقال احيَ بإذن الله فخرج سام بن نوح من قبره وقد شاب نصف رأسه فقال أقد قامت القيامة؟ قال: لا ولكني دعوتك باسم الله الأعظم – ولم يكونوا يشيبون في ذلك الزمان – وكان سام قد عاش خمسمائة سنة وهو شاب ثم أخبرهم بخبر السفينة فقال له عيسى متْ، فقال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت فدعا اللّهَ عيسى عليه السلام ففعل ذلك. قصص الأنبياء ص221.

مُسْلِمُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ من الإنجيل ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ عيسى ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَكَرُواْ﴾ كفار بني إسرائيل بعيسى ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم بأن ألقى شبه عيسى على من قصد قتله ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ من الدنيا من غير موت ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ مبعدك ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ وهم المسلمون لأنّهم وافقوه لا النصارى الذين جعلوه إلها ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بك ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ ثم مرجعكم إلي ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالنار ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَنُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ المحكم، القرآن ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾ شأنه ﴿عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ شأن آدم أغرب ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن﴾ بشرا ﴿فَيَكُونُ﴾ فكان بشرا ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ في أمر عيسى ﴿فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ جادلك من النصارى ﴿فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأمره ﴿فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ فنجمعهم ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ نتضرع في الدعاء ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ بأن نقول اللهم العن الكاذب في شأن عيسى، فقبلوا ذلك فدعا الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة واحتضن الحسين وقاد الحسن بيده وعلي يمشي خلفهم فقال: اخرجوا بأبنائكم ونسائكم، فقال لهم قسيسهم علمتم أنه هو النبي حقا الذي ذكر في التوراة إذا باهلتموه لا يبقى نصراني على وجه الأرض إلا وهلك فرجعوا، قالوا تركنا المباهلة قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم أسلموا، قالوا: لا، قال: إذًا أقاتلكم، قالوا: نصالحك على المال فصالحوه على ألفي

حلة كل عام وثلاثين درعا يعطونه نصفا في صفر ونصفا في رجب[1]. ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيجازيهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ مستو أمرها ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هي ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن التوحيد ﴿فَقُولُواْ﴾ أنتم ﴿اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ موحدون. ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ نزلت لما قال اليهود إن إبراهيم يهودي وقال النصارى إن إبراهيم نصراني، ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ تخاصمون ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ بزعمكم أنه على دينكم ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾ بزمن طويل، اليهودية نشأت من التوراة والتوراة نزلت بعد إبراهيم والإنجيل نزل على عيسى بعد إبراهيم والنصرانية نشأت من الإنجيل ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ هذا، من هنا خرج التاريخ من كتاب الله، احتج عليهم بالتاريخ ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ من أمر موسى وعيسى ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ شأنه ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قال تبرئة لإبراهيم ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ﴾ أحقهم ﴿بِإِبْرَاهِيمَ

---

1 – حديث المباهلة وما صالحوا الرسول صلى الله عليه وسلم عليه من الجزية ورد في الرحيق المختوم ص 414 وورد حديث المباهلة في سيرة ابن هشام ج2/ 233.

لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه ﴿وَهَذَا النَّبِيءُ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم[1] ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المسلمون لأنّهم على دينه ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن إثم إضلالهم عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ﴾ القرآن ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تقدم في سورة البقرة. ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ اليهود ﴿ءامِنُواْ بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ القرآن ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أوله ﴿وَاكْفُرُواْ﴾ به ﴿ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ﴾ المؤمنين ﴿يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم ﴿وَلاَ تُؤْمِنُواْ﴾ لا تصدقوا أن يؤتى أحد مثلما أوتيتم، هذا كلامهم ﴿إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ وما عداه ضلال ﴿أَنْ يُّؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ لا تقبلوا حتى يحتجوا عليكم عند الله تبارك وتعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَّشَاءُ﴾ فمن أين لكم أنه لا يؤتى أحد مثلما أوتيتم ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كثير الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهله ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَنْ يَّشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ مال كثير ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لأمانته كعبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا ومائتي أوقية ذهبا فأداها إليه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لخيانته ﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ وهو كعب بن الأشرف أودعه رجل دينارا فجحده وما

---

1 - أخرج الترمذي عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لكل نبي ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم ثم قرأ "إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيء والذين آمنوا والله ولي المومنين" سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن/ باب من سورة آل عمران (2921).

رده إليه[1] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ العرب ﴿سَبِيلٌ﴾ إثم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بنسبة ذلك إليه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ الذي عاهد الله عليه ﴿وَاتَّقَى﴾ اتقى الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أمانته ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ حلفهم كاذبين ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من أمر الدنيا ﴿أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ﴾ لا نصيب ﴿لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ غضبا عليهم ﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ أي يرحمهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ طائفة ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الذي أنزله الله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون. ونزل لما قال نصارى نجران إن عيسى أمرهم أن يتخذوه ربا ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ أي الفهم للشريعة ﴿وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ﴾ يقول ﴿كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ﴾ علماء عاملين ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعرفون ﴿الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تتدارسونه بينكم ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا﴾ كما اتخذت الصابئة الملائكة واليهود عزيرا والنصارى عيسى ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لا ينبغي ذلك ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ﴾ عهدهم ﴿لَمَا ءاتَيْنَاكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتاب والحكمة وهو محمد صلى الله عليه وسلم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ إن أدركتموه ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بذلك ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ قبلتم

1 – ذكرهما في تفسير الجلالين ج342/1 دار الفكر.

﴿عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ عهدي ﴿قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ﴾ على أنفسكم وأتباعكم ﴿وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأنا من الشاهدين معكم ﴿فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الميثاق ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ أفتبغون غير دين الله وأسلم له ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ بالسيف ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وترجعون إليه ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿ءامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيئُونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالتصديق والتكذيب ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْهُ وَهْوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ لا يهدي الله ﴿قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ﴾ وشهادتُهم ﴿أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الحجج الظاهرة ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي اللعنة أو النار المدلول بها عليها ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ عملهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. ونزل في اليهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بعيسى ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بموسى ﴿ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بمحمد ﴿لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إذا غرغروا وماتوا كفارا ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُّقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ مقدار ما يملؤها ﴿وَلَوِ افْتَدَى بِهِۦ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين. اللهم صل على سيدنا محمد.

الدرس التاسع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنـــا بهذا المحضـــر
ولتعطفـــي بنظـــرة تأتي لنـــا بالظفـــر

﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ﴾ ثوابه وهو الجنة ﴿حَتَّى تُنفِقُواْ﴾ تصدقوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ لا تجدون الجنة إلا بإنفاق بعض ما تحبون من أموالكم. ليس الإنفاق فحسب بل إنفاق ما تحب. مولانا يخاطبنا بقوله «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» بسبب نزول هذه الآية تصدق أبو طلحة بجنته بيرحاء، أرض فيها نخيل وفيها بئر أعذب ماء من مياه المدينة، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدخل بيرحاء ويستعذب ماء فيها. قال للرسول صلى الله عليه وسلم: ربنا يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»، أحب أموالي إلي بيرحاء وهي في سبيل الله ضعها حيث أراك الله. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: بخٍ بخٍ ذلك مال رابح أو مال رايح وأرى أن تضعها في الأقربين، فقسمها بين أقاربه[1]. فأتى زيد بن حارثة وقال أحب أموالي إلي جواد

---

1 – عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلا وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما أنزلت "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله إن الله يقول "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" وإن أحب أموالي إلي بير حاء

عندي وهاهو جعلته في سبيل الله، فدفعه لأسامة ابنه[1]. بنزول هذه الآية تفاخر الصحابة ودفعوا أموالا طائلة، وكان عبد الله بن عمر يحب اللوز بالسكر وكان يشتريه دائما ويفرقه في الناس ويقول: إن عبد الله بن عمر يحب اللوز بالسكر ومولانا يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون». كان عمر بن عبد العزيز يهوى جارية لزوجته وطلبها منها مرارا فأبت، فلما ولي الخلافة هيأتْها المرأة وحلتها بأنواع الحلي والحلل ودخلت بِها إليه وقالت هي هدية مني إليك تخدمك، فسألها: من أين ملكتها؟ فقالت: إنَّها جاءت بِها من بيت أبيها، ففتش كيف ملكها أبوها، فقيل مات عامل وعليه ديون فأخذ أمواله فهي من تلك الأموال، فأحضر ورثة العامل فأرضاهم وتوجه إليها وقال: أنت حرة في سبيل الله، أنت حرة لوجه الله. فقيل له: بعدما تعبت فيها وبرأتها من كل شبهة؟ قال: مولانا يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[2]. وكان فُضيل مريضا فاشتهى لحم دجاج وجاهد نفسه أربعين ليلة يزجرها عن شهوة لحم الدجاج، بعد أربعين ليلة غلبته النفس على

وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رايح ذلك مال رايح قد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. قال أبو طلحة أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" (4555)، صحيح مسلم كتاب الزكاة/ باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد (1664). (وفيه قال ذلك مال رابح).

1 – عن محمد بن المنكدر قال لما نزلت هذه الآية "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه بفرس له يقال لها شبلة لم يكن له مال أحب إليه منها فقال: هي صدقة. فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل عليها ابنه أسامة رضي الله عنه فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في وجه زيد فقال: إن الله قد قبلها منك. حياة الصحابة ج2/ ص229.

2 – روح البيان ج63/2.

عندي وهاهو جعلته في سبيل الله، فدفعه لأسامة ابنه[1]. بنزول هذه الآية تفاخر الصحابة ودفعوا أموالا طائلة، وكان عبد الله بن عمر يحب اللوز بالسكر وكان يشتريه دائما ويفرقه في الناس ويقول: إن عبد الله بن عمر يحب اللوز بالسكر ومولانا يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون». كان عمر بن عبد العزيز يهوى جارية لزوجته وطلبها منها مرارا فأبت، فلما ولي الخلافة هيأتْها المرأة وحلتها بأنواع الحلي والحلل ودخلت بِها إليه وقالت هي هدية مني إليك تخدمك، فسألها: من أين ملكتها؟ فقالت: إنَّها جاءت بِها من بيت أبيها، ففتش كيف ملكها أبوها، فقيل مات عامل وعليه ديون فأخذ أمواله فهي من تلك الأموال، فأحضر ورثة العامل فأرضاهم وتوجه إليها وقال: أنت حرة في سبيل الله، أنت حرة لوجه الله. فقيل له: بعدما تعبت فيها وبرأتَها من كل شبهة؟ قال: مولانا يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[2]. وكان فُضيل مريضا فاشتهى لحم دجاج وجاهد نفسه أربعين ليلة يزجرها عن شهوة لحم الدجاج، بعد أربعين ليلة غلبته النفس على

وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بخ ذلك مال رايح ذلك مال رايح قد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. قال أبو طلحة أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" (4555)، صحيح مسلم كتاب الزكاة/ باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد (1664). (وفيه قال ذلك مال رابح).

1 – عن محمد بن المنكدر قال لما نزلت هذه الآية "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه بفرس له يقال لها شبلة لم يكن له مال أحب إليه منها فقال: هي صدقة. فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل عليها ابنه أسامة رضي الله عنه فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في وجه زيد فقال: إن الله قد قبلها منك. حياة الصحابة ج2/ ص229.

2 – روح البيان ج63/2.

شهوة الدجاج فأخبر ربة البيت: إني أكابد نفسي وأمنعها من شهوة لحم الدجاج وغلبتني فاليوم لابد لي من لحم الدجاج. قالت: سبحان الله، لِمَ تمنعها من شيء أحله الله وهو متيسر عليك؟ ذهبت إلى السوق واشترت دجاجا بدرهم ودانقين وطبخت الدجاج بأنواع الطباق فأحضرته بين يديه فوقف سائل وقال: تصدقوا على المسكين، فقال: ادفعيه له، فقالت: هذا شيء تحبه وأنا صنعته لك أفعل شيئا للمسكين أفضل له وتأكل شهوتك. قال: ما تفعلين للمسكين؟ قالت: أعطيه ثمن الدجاج، ذلك أنفع له وتأكل أنت الدجاج، فقال: نِعم ما رأيت آتيني بالثمن، فأتته بالثمن، فجمع الثمن والدجاج ودفعهما للمسكين وقال: مولانا يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون»[1]. في الحقيقة إن كان الله يخبرنا أننا لا ننال البر إلا بإنفاق بعض ما نحب فكيف ننال البَرّ؟ إلا بعد إنفاق جميع ما نملك. البِر نناله بجزء مما لَنا، والبَرُّ الذي هو الله لا نجده إلا بإنفاق كل ما عندنا، فلابد أن يسلم العبد أمواله وأولاده ونفسه لله تبارك وتعالى، فإذا فعل ذلك كان لله ومن كان لله كان الله له. لابد من متابعة ملة إبراهيم، إبراهيم سلّم أمواله للضيفان وولده للقربان ونفسه للنيران[2] فاتخذه الله خليلا وقال "وما كان من المشركين". العبد لابد أن يتوجه إلى الله تبارك وتعالى بكليته فينال محبة الله وينال ولاية الله، لابد من محبة الله أولا ولابد من محبة أولياء الله، فمحبة أولياء الله ليست من الشرك كما يقول بعض أهل قلة الفهم، إنما هي من محبة الله. أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن العبد يوقف بين يدي الله يوم القيامة فيقول له الرب تبارك وتعالى: ماذا عملت لي؟ أما

---

1 – أوردها في روح البيان وأن صاحبها الربيع ج2/63.

2 – روح البيان ج1/ 313.

زهدك في الدنيا فاخترت الراحة لنفسك، وأما طاعتك لي فاخترت العز لنفسك، هل واليت فيّ وليا قط أو عاديت فيّ عدوا؟[1] إن كان والى وليا لله أو عادى عدوا لله فذلك هو العمل الذي يحببه إلى الله تبارك وتعالى، ومن حاول الوصول إلى الله تبارك وتعالى وادعى المقامات بغير محبة أولياء الله فهو كاذب ولو أتى بعبادة الثقلين فإنما يضرب حديدا باردا. لابد من موالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله فيسلك بذلك سبيل إبراهيم كما سيذكر في الآية ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازي عليه ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ نزلت لما أتى اليهود وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم إنك تزعم أنك على ملة إبراهيم وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: أنشدكم بالله هل تعلمون أن يعقوب مرض مرضا شديدا فنذر إن شفاه الله من مرضه ليتركن أحب الطعام إليه وهو لحوم الإبل وأحب الشراب إليه وهو ألبان الإبل؟ قالوا: نعم، فقال: فهذا تحريم لحوم الإبل والألبان إنما جاء من يعقوب وأنتم تقولون إنه من دين إبراهيم، والقصة في ذلك أن يعقوب عليه الصلاة والسلام نذر لله إن رزقه الله عشرة من الأولاد ودخل بيت المقدس سالما ليذبحن واحدا منهم تقربا إلى الله تبارك وتعالى فرزقه الله عشرة أولاد فلما كبروا ذهب إلى بيت المقدس حتى قرب من بيت المقدس رمية حجر فتلقاه ملك على صورة رجل فقال له يا يعقوب أنت قوي وأنا أحب مصارعتك، فتصارعا ولم يصرع أحد منهما الآخر،

---

1 - (أوحي الله تعالى إلى نبي من الأنبياء أن قل لفلان العابد: أما زهدك في الدنيا فتعجلت به راحة نفسك وأما انقطاعك إلي فتعززت بي فماذا عملت في ما لي عليك؟ قال يا رب وماذا لك علي؟ قال: هل عاديت في عدوا أو هل واليت في وليا؟) الجامع الصغير ج1 / رقم الحديث 2780.

فغمزه الملك برجله في فخذه فأصابه مرض عرق النسا فدخل بيت المقدس وهو مريض مرض عرق النسا، فتألم من هذا المرض وصار يصيح في الليل فنذر أنه إن برئ من هذا المرض يترك لحوم الإبل وألبانَها. هذا هو سبب النذر فصار بنو إسرائيل تبعا ليعقوب في هذا[1] وأرادوا أن يجعلوه على دين إبراهيم فكذبَهم الله تبارك وتعالى بقوله ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ﴾ حلالا ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ الذي هو يعقوب ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ وهو الإبل ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ وهذا قبل نزول التوراة ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ ليتبين صدق قولكم ﴿إِن كُنتُمْ

---

1 – جاء في مسند أحمد بسنده عن ابن عباس قال: حضرتْ عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، فكان فيما سألوه أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه قبل أن تنزل التوراة؟ قال: فأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب عليه السلام مرض مرضا شديدا فطال سقمه فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه فكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم. مسند بني هاشم / بداية مسند عبد الله بن العباس (2342).

وأضاف الخازن في تفسيره بعد ذكر الحديث ما نصه: وكان سبب ذلك أنه اشتكى عرق النسا وكان أصل وجعه فيما روي عن الضحاك أن يعقوب كان نذر لئن وهبه الله اثني عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح أحدهم وفي رواية آخرهم فتلقاه ملك من الملائكة (على صورة رجل) فقال يا يعقوب إنك رجل قوي فهل لك في الصراع، فعالجه فلم يصرع أحدهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النسا، ثم قال: أما إني لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك قد نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت آخر ولدك فجعل الله لك في هذه الغمزة من ذلك مخرجا.. فهاج به عرق النسا ولقي منه شدة فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله رغاء أي صياح فحلف يعقوب لئن شفاه الله أن لا يأكل عرقا ولا طعاما فيه عرق فحرمه على نفسه فكان بنوه بعد ذلك يتبعون العروق ويخرجونها من اللحم ولا يأكلونها. تفسير الخازن ج1/ 257.

صَادِقِينَ﴾ فبهتوا ﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ظهور الحجة بأن التحريم إنما كان من جهة يعقوب لا على عهد إبراهيم ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ في هذا كجميع ما أخبر به ﴿فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التي أنا عليها ﴿حَنِيفًا﴾ مائلا عن كل دين إلى الإسلام ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أخبر الله تبارك وتعالى أن هذا التحريم من قبل يعقوب عليه الصلاة والسلام وهذه عبادة الإنسان يمنع نفسه من شهوته الحلال تقربا إلى الله تبارك وتعالى كما فعل إسرائيل، فكذلك كل الطعام كان حلا لعبد الله إذا سلك إلى حضرة الله تبارك وتعالى إلا ما حرم السالك على نفسه مجاهدة لنفسه من قبل أن تنزل التوراة قبل أن يأتي الفتح الأكبر «فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ» بدعوى الوصول إلى الله تبارك وتعالى بدون السلوك «فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» الذين وضعوا الأشياء في غير محلها. «قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» الإنسان هو العالم الأكبر، الله تبارك وتعالى خلق الأشياء فجعلها أقساما قسم نوراني وعيشهم ذكر الله وعبادة الله موافق لجنسهم هم نورانيون وقوتُهم من جنسهم نوراني أيضا، وقسم خلقهم الله جسمانيين كالحيوانات عيشهم موافق لجنسهم جسماني وليس عندهم عبادة، والإنسان خلقه الله فجمع فيه بين الجسمانية والنورانية فهو عيشه جسماني موافق لجسمه الطعام والشراب وعيش روحه ذكر الله تبارك وتعالى لأنه روحاني فإذا جاهد الإنسان نفسه حتى طهرها من جميع الشهوات لحق بالروحانيين فصار من جنس الملك وهو خير منه، فيوجد من البشر من هو خير من الملائكة، وإذا اشتغل بشهوات نفسه حتى أمات روحانيته باتباع حيوانيته فيصير كأنه من جنس الحيوان "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل" كما قال في الآية "فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات". فالظالم لنفسه من اتبع الشهوات حتى أمات

الروحانية بالحيوانية، ذلك هو الذي قال فيه "إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل" وقال فيهم: "أولئك هم شر البريئة". ومنهم مقتصد بأن اشتغل بالشهوات الحيوانية تارة وتارة بعبادة الله تبارك وتعالى "خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم". وقسم سابق بالخيرات طهروا الروح من شهوات النفس حتى أماتوا النفس بالكلية ففنوا في الله وبقوا "أولئك هم خير البريئة" والسالك بمجاهدته للنفس ومنعها عن شهواتِها تابع ملة إبراهيم. صدق الله فيما أخبر أن من أنفق جميع ما عنده نال مواصلة الله تبارك وتعالى، من كان لله كان الله له. فاتبعوا إذاً ملة إبراهيم الذي أسلم أمواله للضيفان وولده للقربان ونفسه للنيران "حنيفا وما كان من المشركين" إبراهيم انفرد لله وحده وجعل كل ما سوى الله عدوا له "فإنّهم عدو لِيَ إلا رب العالمين". بِهذا الطريق يجد الإنسان مواصلة الله تبارك وتعالى "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين". أما من ادعى الوصول إلى الله تبارك وتعالى بدون هذا الطريق فهو كاذب كما دلت عليه هذه الآية. «وما كان من المشركين» كلما ذَكر إبراهيم برأه من الشرك.

ونزل لما قالت اليهود: قبلتنا قبل قبلتكم يعنون بيت المقدس قال الله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ متعبَّدا ﴿لِلنَّاسِ﴾ في الأرض ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ هو البيت الذي ببكة - بكة لغة في مكة - أو بكة البقعة التي عليها الكعبة خصوصا[1]، أو مكة القرية وبكة هي

---

1 - ذكر حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: مكة من الفج إلى التنعيم وبكة من البيت إلى البطحاء. وقال شعبة عن المغيرة عن إبراهيم: بكة البيت والمسجد كذا قال الزهري، وقال عكرمة في رواية وميمون بن مهران البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة. وقال أبو مالك وأبو صالح وإبراهيم النخعي وعطية العوفي ومقاتل: بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة. راجع ابن كثير ج1/ 384.

ما تحت البيت وهذا أولى لأن البيت كان قبل القرية، فإذاً ما عليه البيت هو بكة ومكة هي القرية وما حولها "هو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة"، سميت بكة لأنّها تبك أعناق الجبابرة[1]. هو أول بيت وضع متعبدا للناس بناه الملائكة قبل خلق آدم بألفي عام[2]، ووضع الأقصى قال جلال[3] وبينهما أربعون سنة وهذا سبق قلم منه، إنما الملائكة بنوا الكعبة قبل خلق آدم بألفي سنة، ولما خلق الله آدم صار يحج هذا البيت وبعد ذلك أمره الله ببنائه ثانيا فبناه آدم وبقي أربعين سنة يحج هذا البيت، وبعد أربعين سنة أمره الله ببناء بيت المقدس فكان بينهما أربعون سنة أي بين بناء آدم للكعبة وبنائه لبيت المقدس[4]، وأما ما قال المفسر من أن الملائكة بنوه وبين بناء الملائكة وبناء القدس أربعون سنة فهذا سبق قلم منه، بل بينهما ألفان وأربعون سنة[5]. وفي الحديث (أول ما ظهر على وجه الماء عند خلق

---

1 - قال ابن كثير في تفسيره: بكة من أسماء مكة على المشهور قيل سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها ج384/1. وهو قول عبد الله بن الزبير كما جاء في الخازن ج258/1.

2 - ذكر الخازن مثله في تفسيره ج259/1.

3 - يعني جلال الدين السيوطي

4 - أخرج الشيخان عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قال قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء/ باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا (3366)، وفي صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة/ (809).

5 - حاشية الصاوي على الجلالين ج1/ 354.

السماوات والأرض زبدة بيضاء فدحيت الأرض من تحتها وهي هذه الكعبة)[1]. بيت الله في مقابلته البيت المعمور الذي في السماء ﴿مُبَارَكًا﴾ بيتا ذا بركة، بركته أمن الوحوش حوله وعدم تعرض من استجار به لأي سوء، إذا لقي إنسان قاتل أبيه عنده لا يتعرض له ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ منها ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت فأثر قدماه فيه وبقي إلى الآن مع تطاول الزمان وتداول الأيدي عليه، ومنها تضعيف الحسنات فيه، وأن الطير لا يعلوه[2] ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ من دخل مقام إبراهيم كان آمنا لا يُتعرض إليه بقتل أو ظلم وغير ذلك، هذا من بركة هذا البيت، ومن بركته كثرة الثواب لمن يحجه (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[3]. من حج مرة فقد أدى فرضه ومن حج ثانية فقد داين ربه ومن حج ثالثة فقد حرم شعره وجسده من النار[4]. وهذا البيت حجه جميع الأنبياء إلا أربعة منهم، من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم ما فيهم نبي إلا وحج إلا أربعة منهم: هود وصالح ولوط وإدريس، ما سواهم من الأنبياء والمرسلين كلهم حجوا هذا البيت، لو كان بيتا عاديا فقط وتردد عليه الأنبياء والصالحون من أول الدهر إلى يومنا هذا لكفاه بركة

---

1 – ذكره السيوطي في تفسيره لهذه الآية. حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ج354/1.

2 – ذكرها النسفي في حاشيته على تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) ج259/1.

3 – عن أبي هريرة (من حج لله ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب الحج/ باب فضل الحج المبرور (1521)، صحيح مسلم: كتاب الحج/ باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (2404).

4 – في الشفا للقاضي عياض ج93/2. وذكره الصفوري في كتابه نزهة المجالس ومنتخب النفائس ص225.

لاسيما وهو بيت الله تبارك وتعالى، بناه الملائكة فأتوا بالحجر الأسود أبيض من اللبن من ياقوت الجنة[1]، وجعلوه في الركن، وقال الحق جل وعلا إنه يمين الله في أرضه من مسه فكأنما صافح الرب تبارك وتعالى[2]، ولما بناه آدم وبناه شئث ولده، بناه إبراهيم رابعة، عند بناء إبراهيم أوتي بِهذا المقام وهو حجر قدر ثلاثة أذرع كان يقف عليه إبراهيم لبناء الكعبة، المهندس جبريل عليه الصلاة والسلام والباني إبراهيم خليل الله والتلميذ الذي يعينه إسماعيل وميكائيل هو الذي يساعد إسماعيل وكلما اشتغل إبراهيم بالبناء حتى طال البناء على الحجر الذي يقف عليه يتطاول الحجر المقام حتى يبلغ إبراهيم الكعبة، بناه على هذا الشكل الذي تجدون ثلاثون ذراعا والذي يقف عليه ثلاثة أذرع فقط، وأثر أقدام إبراهيم على المقام إلى الآن، آثار قدم إبراهيم موجودة كأنه وطئه الآن. كان الناس يتبركون به وغطاه السعوديون مخافة أن يراه الناس جهلا منهم وهذا المقام أيضا من ياقوت الجنة، لا تجد أمة في الدنيا عندهم شيء تُحقق أنه من الجنة إلا أمة محمد صلى الله عليه

1 - أخرجه الترمذي في سننه ولفظه (نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بني آدم) سنن الترمذي: كتاب الحج /باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام (803). وروى ابن خزيمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من ياقوت الجنة وإنما سودته خطايا المشركين يبعث يوم القيامة مثل أحد يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا). حديث صحيح. الجامع الصغير ج1/ رقم الحديث 3803. وفي الجامع الكبير ج1/ 405.

2 - أخرج الخطيب في التاريخ وابن عساكر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده) الجامع الصغير ج1/ رقم الحديث 3804.

وسلم، مقام إبراهيم والحجر الأسود من ياقوت الجنة[1] ليس في الدنيا شيء من الجنة إلا هذان. فلما بناه إبراهيم هذا البناء وأتم بناءه أمره الله أن ينادي الناس لحج هذا البيت، فقال كيف أناديهم وهم معدومون في أصلاب آبائهم؟ قال الله تبارك وتعالى: عليك الدعاء والإسماع علي أنا، فوقف على جبل أبي قبيس وقال: أيها الناس إن ربكم قد بنى بيتا ودعاكم إلى حجه فحجوا، استجاب الحجاج كلا من سائر أنحاء العالم وهم في العدم، من استجاب في ذلك اليوم لا بد أن يحج ومن لم يستجب لا يحج ولو توفرت عنده الأسباب، من استجاب مرة واحدة حج مرة، ومن استجاب مرتين حج مرتين، ومرارا كذلك[2]. فتجد الحاج إذا حج يحن إلى العودة إلى تلك الأماكن بدعوة إبراهيم "فاجعل أفئدة من الناس تَهوي إليهم". تردد واحد من الصالحين للحج حتى حج ستين مرة فجلس يوما وهو يفكر في حجاته هل تقبلت منه أم لا فسمع صوتا يقول: يا فلان هل تدعو إلى بيتك إلا من تحب؟ فقوي رجاؤه أن الله استجاب له[3]. نحن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا نفعل شيئا ليس له معنى ولا نفهم عنه شيئا. الحج بمنزلة ملك استدعى إنسانا إلى ضيافته، عادة الكبراء إذا دعوا إلى ملاقاة الملوك يتنظفون ويلبسون لباسا جديدا تعظيما للملك فتجد المحرِم يخلع ثياب عادته من لباسه العادي ويتجرد ويغتسل ويلبس رداء

---

1 – في الحديث (إن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما ولو لم يطمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب) ورد هذا الحديث في سنن الترمذي: كتاب الحج/ باب ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام (804). قال في تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: قوله الركن: أي الحجر الأسود. وأخرجه أحمد بلفظ "إن الحجر والمقام..." مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (6713).

2 – ذكره الصفوري في نزهة المجالس ومنتخب النفائس ص225.

3 – روح البيان ج2/ 68.

وإزارا ونعلين فقط. الملك إذا دعا ضيفا وجاءه يأتي إلى بيته الخاص ويصافحه. فتأتي إلى بيت الله الحرام، والحجر الأسود هو يمين الله تبارك وتعالى، والخروج إلى الصفا والمروة وإلى منى وإلى المزدلفة وإلى عرفات، عادة الملوك إذا استدعوا كبيرا وأضافوه يخرجون معه للتنزه إلى محلاتِهم وإلى بساتينهم وإلى ممالكهم هذا هو الخروج إلى منًى، إلى عرفات والعود عند تمام الحج هو يوم المأدبة، هو يوم النحر. الله يقول "تجبى إليه ثمرات كل شيء" حتى البشر، لهذا قال ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ﴾ أوجب الله على الناس حج هذا البيت ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ طريقا فسره الرسول صلى الله عليه وسلم بالزاد والراحلة[1]، رواه الحاكم[2].

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالله أو بما فرضه من الحج ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الإنس والجن والملائكة وعن عباداتِهم. هذا الكفر ورد تَهديدا لمن قدر على الحج وتركه (من لم يصده عن هذا البيت مرض ولا فقر ولا سلطان جائر فمات ولم يحج فليمت يهوديا أو نصرانيا) حديث[3]. ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ﴾

---

1 – عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال من الحاج يا رسول الله؟ قال: الشَّعِثُ التَّفِلُ فقام رجل آخر فقال أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: العج والثج فقام رجل آخر فقال ما السبيل يا رسول الله؟ قال: الزاد والراحلة. سنن الترمذي: كتاب تفسير القرءان/ باب من سورة آل عمران (2924).

2 - أخرجه في المستدرك من حديث قتادة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله "من استطاع إليه سبيلا" فقيل: ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة. المستدرك: كتاب المناسك/ باب السبيل الزاد والراحلة (1648 – 1649).

3 – جاء في سنن الدارمي عن أبي أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لم يمنعه عن الحج حاجة ظاهرة أو سلطان جائر أو مرض حابس فمات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا) سنن الدارمي: كتاب المناسك/ باب من مات ولم يحج (1719). وفي رواية أخرى للترمذي: (من ملك زادا أو

القرآن ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تصرفون ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بتكذيبكم النبي صلى الله عليه وسلم وكتم نعته ﴿تَبْغُونَهَا﴾ تطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾ معوجة أي مائلة عن الحق ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ عالمون بأن الدين المرضي هو الإسلام ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب وإنما يؤخركم إلى وقتكم ليجازيكم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ سبب نزول هذه الآية أن الأوس والخزرج كانتا قبيلتين متعاديتين مدة مائة وعشرين سنة[1] هم في حرب دائما، ولما جاء الإسلام ولقوا الرسول صلى الله عليه وسلم، أول من لقيه ستة منهم فبايعوه، وفي العام القابل أكدوا بيعة الستة ببعث اثني عشر منهم فبايعوه، وفي العام الثالث أرسلوا ثلاثة وسبعين نفرا وعشر نسوة فأكدوا البيعة عند العقبة[2]. بعد هذا هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأسلموا جميعا، ليس في المدينة من لم يدخل في الإسلام من الأوس والخزرج فسماهم الرسول صلى الله عليه وسلم أنصارا. كل

راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام و لم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو نصرانيا وذلك أن الله يقول في كتابه "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) سنن الترمذي: كتاب الحج/ باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج (740).

1 – ذكره الخازن في تفسير قوله تعالى "واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا" قال: كان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم فوقعت بينهما عداوة قتيل ثم تطاولت تلك العداوة والحروب بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام. لباب التأويل في معاني التنزيل ج1/ ص264.

2 – راجع إسلام الأنصار في سيرة ابن هشام ج2/ الصفحات: 71، 75، 84.

مدينة فتحت بالسيف إلا مدينة الرسول فتحت بالقرآن فقط، فأهلها صاروا يقال لهم الأنصار لا تعرف أوسيا ولا خزرجيا، وكان يهودي في مجاورتهم أدرك جاهليتهم وعداوتَهم وحربَهم، وكان يبغض المسلمين ويحسدهم ويطعن فيهم كثيرا، فلما مر بملإ من الأنصار جلوس وهم إخوان متحابون أغضبه ذلك فذهب إلى غلام له قال له: مررت بملإ من الخزرج وملإ من الأوس هم إخوان متحابون أحب أن تقف بين يديهم وقل تذكروا يوم بعاث – هو يوم حرب وقع بينهم – في ذلك اليوم قتل فلان وفلان من الأوس وقتل فلان وفلان من الخزرج، وأنشدَ ما كانوا يتناشدون من الأشعار عند محاربتهم حتى تخاصم رجلان منهم أوسي وخزرجي فقالوا لو عاد ذلك اليوم لفعلنا بكم كما فعلنا في الماضي، فقالوا نعود إليه الآن، فتنادوا بالسلاح، قال الخزرج: يا للخزرج، وقال الأوس: يا للأوس، فحملوا السلاح وأرادوا أن يتقاتلوا بينهم، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم مع المهاجرين وقال لهم: أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانكم الله الله؛ فألقوا السيوف وكلهم عانق أخاه – وهذا كان من الشيطان – فعادوا أحسن مما كانوا قبل، فنزلت فيهم هذه الآية[1]، هي تتناول الإخوان في الله إلى آخر الدهر «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ» اليهود ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ توبيخ ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَّعْتَصِم﴾ يتمسك ﴿بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ بأن يطاع فلا يُعصى ويشكر فلا يُكفر ويذكر فلا

---

1 – ذكره الخازن في تفسيره لباب التأويل في معاني التنزيل عند بيان سبب نزول هذه الآية. ج1/ ص262.

يُنسى[1]، فقالوا يا رسول الله ومن يقوى على هذا؟ فنسخ بقوله تعالى "فاتقوا الله ما استطعتم" قيل لا نسْخ[2]، بل من اتقى الله ما استطاع فقد اتقى الله حق تقاته ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ موحدون ﴿وَاعْتَصِمُواْ﴾ تمسكوا ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿جَمِيعًا﴾ حبل الله الجماعة ﴿وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ لا تتفرقوا بعد الإسلام ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ إنعامه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر الأوس والخزرج ﴿إِذْ كُنتُمْ﴾ قبل الإسلام ﴿أَعْدَاءً فَأَلَّفَ﴾ جمع ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بالإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ صرتم ﴿بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ في الدين والولاية ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ﴾ على طرف حفرة ﴿مِنَ النَّارِ﴾ ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلا أن تموتوا كفارا ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بالإيمان ﴿كَذَلِكَ﴾ كما يبين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أرشدنا الحق في هذه الآية إلى أن سبيل نجاحنا هو تقوى الله تبارك وتعالى، والتقوى على مراتب تقوى العامة: الإيمان – ضد الكفر – الإيمان بالله وامتثال الأمر واجتناب النهي. وتقوى الخواص: أن يذكر الله ولا ينساه ويشكره ولا يكفره ويطيعه ولا

---

1 – جاء في تفسير ابن كثير عن عبد الله بن مسعود "اتقوا الله حق تقاته" قال أن يطاع فلا يُعصى وأن يُذكر فلا يُنسى وأن يشكر فلا يُكفر. إسناد صحيح موقوف. وقد رواه ابن مردويه من حديث يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سفيان الثوري عن زبيد عن مرة عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اتقوا الله حق تقاته" أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا يُنسى. ابن كثير ج388/1.

2 – اختلف في هذا القدر من الآية هل هو منسوخ أم لا. فأما القول بالنسخ فقد قال به ابن عباس في أحد قولين له وسعيد ابن جبير وقتادة وابن زيد والسدي. وأما القول بأنها محكمة غير منسوخة فهو قول ابن عباس أيضا وبه قال طاووس فكان قوله تعالى "اتقوا الله ما استطعتم" مفسرا لحق تقاته لا ناسخا ولا مخصصا فمن اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقواه. تفسير الخازن ج1/ 263.

يعصيه. وتقوى خاصة الخاصة: أن لا يخطر ما سوى الله ببال العبد أبدا وإليه يشير الشاعر ابن الفارض بقوله:

فلو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوا حكمتُ بردّتي[1]

ذلك غاية التقوى أن لا يلتفت الإنسان إلى ما سوى الله تبارك وتعالى، وذلك لابد فيه من ذكر الله تبارك وتعالى باللسان، وذكرُ الله باللسان هو أدنى الذكر، ولكن لابد من الذكر باللسان حتى يذكر بالقلب، والذكر بالقلب هو التفكر، فإذا تفكر العبد إما أن يتفكر في نفسه فيرى خسة نفسه وقبح عملها فلابد أن يفر منها إلى الله تبارك وتعالى، وإذا تفكر في الله وما عنده لابد أن يرغب فيه فيفر عن النفس ويذهب إلى الله تبارك وتعالى. على كل حال الفرار إلى الله تبارك وتعالى، وإذا فر إلى الله تبارك وتعالى وتمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم وتأدب بآداب أولياء الله تبارك وتعالى وصاحبهم لابد أن يصل إلى المقصود. "واعتصموا بحبل الله جميعا" أي حبل الله الجماعة، يد الله مع الجماعة، فمن فارق الجماعة برئ من الدين[2]، يد

---

1 - البيت لابن الفارض من تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك والتي مطلعها:

سقتني حميـــا الحب راحة مقلتي وكأسي محيا من عن الحسن جلت

إلى أن يقول فيها:

ولي نفس حرٍّ لو بذلت لهـــا على تسليـــك ما فوق المنى ما تسلت
ولو أبعدت بالصد والهجر والقلى وقطع الرجـــا عن خلتي ما تخلت
وعن مذهبي في الحب مالي مذهب وإن ملت يوما عنـــه فارقت ملتي
ولـــو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوا حكمت بردتي

ديوان ابن الفارض ط1/ المكتبة الشعبية.

2 - عن ابن عباس: (من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية) صحيح البخاري: كتاب الأحكام/ باب السمع والطاعة للإمام (7143). وأخرج

الله مع الجماعة[1]، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالجماعة فإن الشيطان يفر من الجماعة، وهو إلى الإثنين أقرب منه إلى الثلاثة ومن الواحد أقرب من الإثنين)[2] وهذا التفرق إنما هو التفرق في العقائد والعداوة والبغضاء، أما التفرق في الفروع من دون معاداة فلا يدخل في هذا، وإليه يشير حديث (اختلاف أمتي رحمة)[3] فقد اختلفت الصحابة أشد الخلاف فيما بينهم في الفروع ولكن ليس بينهم عداوة، فهذا محمود. أما التفرق في العقائد فهو الذي يوجب العداوة. والرسول صلى الله عليه وسلم خط خطا مستقيما وخط خطوطا حوله، وقال هذا صراطي الذي أدعو إليه مستقيما وهذه هي السبل التي نَهاكم الله عنها "ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله"[4] وقال صلى الله عليه وسلم: (افترقت اليهود على إحدى

مسلم عن أبي هريرة (من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية) صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين (3436).

1 - (يد الله مع الجماعة) عن ابن عباس. سنن الترمذي: كتاب الفتن/ باب ما جاء في لزوم الجماعة (2092).

2 - (... عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة) طرف من حديث رواه ابن عمر عن عمر رضي الله عنه أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الفتن/ باب ما جاء في لزوم الجماعة (2091).

3 - (اختلاف أمتي رحمة) الجامع الصغير ج1/ رقم 288.

4 - عن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا "وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله". سنن الدارمي: كتاب المقدمة/ باب في كراهية أخذ الرأي (204) وفي مسند أحمد: مسند المكثرين من الصحابة/ مسند عبد الله بن مسعود (4205)، وفي سنن ابن ماجه: كتاب المقدمة/ باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (11).

وسبعين فرقة كلها في النار، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قالوا: وما تلك الواحدة؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي) أي السنة والجماعة[1].

ذكّر الله تبارك وتعالى المؤمنين، ذكرهم أي وعظهم بأشياء: "اعتصموا بحبل الله" أمر بالتمسك بالكتاب والسنة والجماعة وعدم التفرق، وأن نذكر نعم الله تبارك وتعالى، إنعامه علينا، كل هذه الأشياء توجب الفرار إلى الله تبارك وتعالى.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ولتكن منكم جماعة يدعون الناس إلى الخير ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ﴾ الداعون الآمرون الناهون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ هم الفائزون. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لقربهم من الله تبارك وتعالى، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين يحببون الناس إلى الله ويحببون الله إلى الناس. قالوا: يحببون الله إلى الناس فهمناه، فكيف يحببون الناس إلى الله؟ قال: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فإذا امتثلوا أمر الله واجتنبوا نواهيه أحبهم

---

1 – (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة واحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار قيل يا رسول الله من هم؟ قال الجماعة). رواه ابن ماجه في سننه: كتاب الفتن/ باب افتراق الأمم (3982). وفي رواية أخرى ضمن حديث أورده السيوطي في الجامع الصغير ج2 رقم الحديث 7532: (... وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة ما أنا عليه وأصحابي).

الله[1]. هذا فرض كفاية. يجب على الأمة أن يكون منهم قسم يدعون الناس إلى الله يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، أتى بـــ"من" تبعيضا لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل الناس، لابد فيه من شروط: لابد من علم أولاً فمن لم يعلم إذا أمر أو نَهى ربما نَهى عن معروف وأمر بمنكر. هذا سبب الابتداع، ولابد أن يكون له جاه حتى يقبل كلامه. أما إذا كان إذا نَهى عن منكر ارتكب أشد منه فلا يجب عليه الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر، وإذا توفرت فيه الشروط يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر "وأولئك هم المفلحون". كان صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا كأنه هو الجهاد الأكبر، قال الرسول: سيأتي زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، شر من تظله السماء يومئذ علماؤهم وقراؤهم، علماؤهم بالطمع وقراؤهم بالرياء، قال: أنتم في زمان القلوب عامرة وسيأتي زمان تكون القلوب خرابا والمساجد عامرة بالأبدان[2]. الملوك يتكبرون والأغنياء يبخلون والعلماء يطمعون والعبّاد يراءون والتجار يستعملون الربا. وقال الرسول صلى الله

---

1 – في الحديث: (ألا أخبركم بأقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله على منابر من نور يعرفون الذين يحببون عباد الله إلى الله ويحببون الله إلى عباده ويمشون في الأرض نصحا، قيل كيف يحببون عباد الله إلى الله؟ قال يأمرونهم بما يحب الله وينهونهم عما يكرهه الله فإذا أطاعوهم أحبهم الله) رواه البيهقي في شعب الإيمان. الجامع الكبير ج1/ 347.

2 – روي بلفظ: "سيأتي على الناس زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه ولا من الإسلام إلا اسمه يتسمون به وهم أبعد الناس منه، مساجدهم عامرة خراب من الهدى، فقهاء ذلك الزمان شر فقهاء تحت ظل السماء منهم خرجت الفتنة وإليهم تعود" رواه الحاكم في تاريخه عن ابن عمر والديلمي عن معاذ. السيوطي في الجامع الكبير ج549/1

عليه وسلم: أول من يحاسب يوم القيامة ثلاثة يؤتى بِهم حامل لكتاب الله تبارك وتعالى، ومنفق ومجاهد في سبيل الله قد استشهد، يقول للقارئ: حملت كتابي ماذا فعلت لي؟ قال: كنت أتلوه آناء الليل وأطراف النهار، يقول: ما قصدتني بذلك، قصدتَ أن يقال فلان قارئ فقط وقد قيل، ذلك جزاؤك ليس لك عندي شيء. ويقول للغني: ماذا فعلتَ لي رزقتك كثيرا من الأموال؟ يقول: كنتُ أعطي يمينا وشمالا أتصدق لوجهك. قال: لا، لم تقصدني بذلك، إنما أحببت أن يقال فلان جواد وقد قيل. ويؤتى بالمجاهد فيقول له: ماذا فعلت لي؟ يقول: أخذت سيفي وضربت يمينا وشمالا حتى استشهدت. يقول: لم تقصد بذلك وجهي، قصدت أن يقال فلان بطل فلان شجاع وقد قيل. هؤلاء أول من تسعر عليهم النار[1]. لابد من إخلاص العمل لله تبارك وتعالى ولابد من صحبة الصالحين ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ﴾ عن دينهم ﴿وَاخْتَلَفُواْ﴾ فيه ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾

---

1 - ورد هذا الحديث في صحيح مسلم كتاب الإمارة/ باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (3527) عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبتَ ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار".

أي يوم القيامة. المؤمنون بياض إيمانهم في قلوبهم ينتقل إلى وجوههم فيكونون جميعا بيض الوجوه والكفار سواد عقيدتِهم ينتقل إلى وجوههم فيكونون سودا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وهم الكافرون فيلقون في النار ويقال لهم توبيخا ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يوم أخذ الميثاق، كلكم قال بلى ﴿فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وهم المؤمنون - جعلنا الله وإياكم منهم - ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ في جنته ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ﴾ هذه الآيات ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ بأن يأخذهم بغير جرم ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ تصير الأمور كلا إلى الله تبارك وتعالى ﴿كُنتُمْ﴾ يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم في علم الله تعالى ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ أظهرت ﴿لِلنَّاسِ﴾ أمة محمد هي خير أمة أخرجت للناس، لأي شيء ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ بِهذه الصفات نالوا الخيرية فأحبوا الله وحببوا الناس إلى الله وحببوا الله إلى الناس، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم كل من اتبعه من أي عنصر نشأ حتى اليهود إذا دخلوا في الإسلام دخلوا في هذه الخيرية. كان عبد الله بن سلام من صلحاء الصحابة، وكان أصلا من اليهود، فهذه الخيرية ليست بالعروبة فقط، كما تظن العرب، بل بِهذه الخصال الثلاث "تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" بدليل أن أبا لهب أخا عبد الله والدِ الرسول صلى الله عليه وسلم ليس من هذه الأمة، ما دخل في هذه الخيرية، وسلمان - قرأنا بالأمس - (سلمان منا أهل البيت)[1] إذاً هذه الخيرية تنال بالمتابعة فقط. رزقنا الله

---

1 - (سلمان منا أهل البيت) رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن عمرو بن عوف حديث

وإياكم اتباعه صلى الله عليه وسلم. ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ﴾ الإيمان ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ حتى أهل الكتاب اليهود هم شر خلق الله تبارك وتعالى لو آمنوا بالله لكان خيرا لهم لأنّهم يدخلون في هذه الخيرية التي لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكافرون ﴿لَنْ يَّضُرُّوكُمْ﴾ أي اليهود يا معشر المسلمين بشيء ﴿إِلاَّ أَذًى﴾ باللسان من سب ووعيد ﴿وَإِن يُّقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ عليكم بل لكم النصر عليهم ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ﴾ حيث وجدوا فلا عز لهم ولا اعتصام ﴿إِلاَّ﴾ كائنين ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ لا تجد يهوديا إلا ومستجير بدولة من الدول، أما استقلالا فلا يجدون الاستقلال أبدا، وهم مع ذلك لا ترى غنيا إلا وتظنه فقيرا من شدة الذل والمسكنة ﴿وَبَاءُو﴾ رجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِئَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ﴾ تأكيد ﴿بِمَا عَصَوْاْ﴾ أمر الله ﴿وَكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون الحلال إلى الحرام ﴿لَيْسُواْ سَوَاءً﴾ ليس أهل الكتاب بمستوين ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ جماعة مستقيمة ثابتة على الحق كعبد الله بن سلام ﴿يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الَّيْلِ﴾ في ساعاته ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يصلون ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون يبادرون في الخيرات. والمسارعة في الخيرات والمبادرة والمسابقة كل هذه دعانا القرآن إليها قال "سارعوا" وقال "سابقوا" وقال الرسول صلى الله

صحيح. الحديث رقم 4696 من الجامع الصغير ج2/ 52. والجامع الكبير ج1/ ص546.

عليه وسلم (بادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا)[1] وقال تعالى "فاستبقوا الخيرات" فسره الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك)[2] سأل رجل واحدا من الصالحين قال له: ما تقول في الصوم في السفر؟ قال: أمرنا الله تبارك وتعالى بالمبادرة والمسارعة، والصوم في السفر من هذه المبادرة والمسارعة، قال فأجابني والله جوابا ليس من أجوبة الفقهاء. «يسارعون في الخيرات» الأمر يحتاج إلى المبادرة ويحتاج إلى المسارعة. الزمن يمضي دائما ونفسك أجزاء. الإنسان عدت أنفاسه وأيامه وإذا انقضت هذه لابد من الموت، وكل نفَس خرج خرج من مجموع أنفاسك وكل وقت يمضي جزءٌ من حياتك، وكل يوم وكل أسبوع وكل شهر وكل سنة شيء ينتقص دائما ولا يزداد، لابد إذاً من الفناء، لابد من الاجتهاد، فالبحر عميق لابد من سفينة، والطريق بعيد لابد من زاد، والرقيب بصير لابد من إخلاص ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ

1 - هذا جزء من خطبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، عن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا واعلموا أن الله قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا في يومي هذا في شهري هذا من عامي هذا إلى يوم القيامة...الحديث). سنن ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها/ باب في فرض الجمعة (1071). وفي الجامع الكبير ج1/ 951.

2 - (اغتنم خمسا قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك) رواه البيهقي في الشعب عن ابن عباس ورواه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس وأحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن عمرو بن ميمون مرسلا حديث حسن. الحديث رقم 1210 من الجامع الصغير ج183/1. وفي الجامع الكبير ج1/ ص125.

فَلَن تُكْفَرُوهُ﴾ لن تعدموا ثوابه، بل تجازون عليه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فيجازيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ﴾ تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ من عذابه ﴿شَيْئًا﴾ خصت هنا بالذكر لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارة بماله وتارة يستعين بأولاده ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ الكفار ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم أو صدقة ونحوها ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ حر أو برد شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ زرع قوم ﴿ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فلم ينتفعوا به فكذلك نفقاتُهم ذاهبة لا ينتفعون بها. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ شرط العمل المقبول أن يكون العامل مؤمنا بالله قاصدا وجه الله تبارك وتعالى، أما الكفار إذا عملوا شيئا من القربات كالصدقات وصلة الرحم مثالها كما قال في الآية "كمثل ريح" فقط، لأن الشرط مفقود، وفاقد الشرط لا يأتي بالمشروط. والشرك شِركانِ: الشرك الجلي والخفي، كما أن الكفار لا تقبل أعمالهم، المراءون أيضا لا يقبل الله على قلوبهم، إن الله غني عن المشترك، العمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يدخله[1] ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾ أصفياء، هم أصدقاؤكم الذين تطلعونَهم على أسراركم ﴿مِن دُونِكُمْ﴾ من غيركم من اليهود والنصارى والمنافقين، لا تصادقوا اليهود ولا النصارى ولا المنافقين ولا تطلعوهم على

1 – جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقائق/ باب من أشرك في عمله غير الله (5300).

أسراركم فإنّهم أعداء لكم[1] ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ لا يقصرون لكم في الفساد ﴿وَدُّواْ﴾ تمنوا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ لا يحبون إلا عنتكم مشقتكم دائما وشدة الضرر فيكم ﴿قَدْ بَدَتْ﴾ ظهرت ﴿الْبَغْضَاء﴾ العداوة لكم ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ كلما تكلموا تفهمون من كلامهم عداوتهم لكم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من العداوة ﴿أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ على عداوتهم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فلا توالوهم ﴿هَاأَنتُمْ أُوْلاَءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ أنتم تحبونهم، المنافقين واليهود لقرابتهم منكم وصداقتهم التي يثيرون كذبا ﴿وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ وهم لا يحبونكم لمخالفتهم لكم في الدين "ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا" "ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم" هذه العداوة لا دواء لها أبدا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ بالكتب كلها وهم لا يؤمنون بكتابكم ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ من شدة الغضب لما يرون من ائتلافكم هذا غاية في الغضب ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ ابقوا عليه إلى الموت فلن تروا ما يسركم أبدا في أهل الإيمان ﴿إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب ومنه ما يضمر هؤلاء ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ نعمة كنصر وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ يحزنهم ذلك، لا يحبون لكم الخير أبدا ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كهزيمة وجدب ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ فلا توالوهم هذا أدل دليل على معاداتهم لكم ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ ولكن إن صبرتم ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ تتقوا الله ﴿لاَ يَضِرُّكُمْ﴾ لا يضرّكم ﴿كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾

---

1 – عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله) صحيح البخاري: كتاب الأحكام/ باب بطانة الإمام وأهل مشورته (7198).

بتقوى الله والصبر لا يضركم عداوتُهم أبدا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ إن الله «محيط» عالم «بما يعملون» بجميع أعمالهم. ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ هذه الآية نزلت في غزوة أحد[1]. النبي صلى الله عليه وسلم التقى مع الكفار يوم بدر فقاتلهم وهزمهم الله، فقتل منهم سبعين سيدا وأسر منهم سبعين سيدا[2] ورجع إلى المدينة، قتل أبو جهل وهو زعيمهم وقتل عتبة، وشيبة والوليد، هم الذين خرجوا للبراز يوم بدر يقولون: البرازَ، فخرج لهم شبان من الأنصار فقالوا: أكفاء أكفاء ولكننا نريد أبناء عمنا، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: أين علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، أين حمزة بن عبد المطلب، أين عبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث[3] بن عبد المطلب، توجهوا إلى هؤلاء إنما يدعونكم. فتَقاتلوا، أما علي فقتل صاحبه هو أول من قتل في سبيل الله، وحمزة قتل صاحبه وأبو عبيدة كسرت ساقه وجاء علي وحمزة وأجهزا على عدوه وحملاه هو إلى النبي صلى الله عليه وسلم، هذان الخصمان اختصموا في ربّهم فلهذا يقول علي: أنا أول

---

1 - أجمع جمهور المفسرين على أن هذه الآية متعلقة بيوم أحُد. انظر الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين ج1/ 176. وابن هشام في سيرته ج3/ ص112. قاله الخازن وقال هو قول عبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عباس والزهري وقتادة والسدي والربيع وابن إسحاق. تفسير الخازن ج1/ ص276.

2 - جاء في صحيح مسلم من حديث ابن عباس قوله: (...فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (3309). وقال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة عن أبي عمرو أن قتلى بدر من المشركين كانوا سبعين رجلا والأسرى كذلك وهو قول ابن عباس وسعيد بن المسيب. سيرة ابن هشام ج2/ ص372.

3 - عبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث كما في صحيح البخاري انظر الهامش التالي.

من يدعى يوم القيامة إلى الخصومة[1]. فلما رجعوا أقسم أبو سفيان أنه لا يغتسل من الجنابة ولا يأكل لحم الإبل ولا يشرب خمرا ولا يدهن لمته حتى يأخذ ثأر هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم. وصاروا يجمعون الجيوش حتى أتى بثلاثة آلاف، ألفان منهم اكتراهم من ماله[2]. أهل الباطل يقدرون على الإنفاق في الباطل أكثر مما يقدر عليه أهل الحق أو أكثرهم. فأتوا إلى جبل أحد قبل علم النبي صلى الله عليه وسلم، فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك جمع أصحابه وشاورهم، قال لهم هؤلاء الأعداء خرجوا من مكة وهاهم عند جبل أحد ماذا تشيرون علي؟ قال عبد الله بن أبي وهو منافق: لا نخرج إليهم نبقى في الديار، إن بقوا هناك بقوا شر بقاء وإن هجموا علينا في البيوت قاتلناهم في داخل القرية والنساء والصبيان يعينوننا ولكن ليس من عادتنا الخروج إلى القتال. تقدم شاب من الأنصار وقال: يا رسول الله نحن على الحق وهم على الباطل، وهم خرجوا من مكة إلى أحد ونحن نبقى في البيوت ننتظرهم كالنساء هذا لا يليق بنا، بل نخرج إليهم ولم يكن هذا هو الرأي عند الرسول صلى الله عليه وسلم. فدخل النبي صلى الله عليه وسلم بيته فلبس لأمته

---

1 - عن قيس بن عباد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة وقال قيس بن عباد وفيهم أنزلت "هذان خصمان اختصموا في ربهم" قال هم الذين تبارزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. صحيح البخاري كتاب المغازي/ باب قتل أبي جهل (3965).

2 - جاء في تفسير المراغي قول سعيد بن جبير إن أبا سفيان استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش (واحدها حباشة: جماعة ليسوا من قبيلة واحدة) يقاتل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية (الأوقية اثنان وأربعون مثقالا من الذهب). تفسير المراغي مج3/ ج9/ ص205.

وأخذ سلاحه وخرج فغضب عبد الله بن أبي وكان له ثلاثمائة من المنافقين أصحابه لا يمتثلون إلا أمره فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم في ألف إلا خمسين[1] والمشركون ثلاثة آلاف، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم بالشعب يوم السبت سابع شوال سنة ثلاث من الهجرة وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وسَوى صفوفهم وأجلس جيشا من الرماة وأمّر عليهم عبد الله بن جبير بسفح الجبل وقال انضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا غُلبنا أو نُصرنا فاستقام الأمر، فأنزل الله سكينته على رسوله، فجاءت الصبا فألقت الرعب في قلوب الكفار فصاروا يقتلونَهم وفي هذه المرة حتى النساء جئن، جاءت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وقالت إنهم إذا فر الرجال تطلقهم نساؤهم وإذا سقطت راية قريش اليوم لابد أن تحملها النساء فحمل الراية رجل من بني عبد الدار فقتل فأخذها واحد فقتل حتى قتل خمسة عشر على راية قريش فوقعت الراية ما أخذها أحد، أخذتْها امرأة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم يا لقريش إذا كانت رايتهم بيد النساء[2] فنصروا فوقعت الغلبة للمسلمين في أسرع من ساعات. فلما رأى الرماة الذين مع عبد الله بن جبير أن القتال قد تم والنصر وقع للمسلمين أسرعوا إلى الغنيمة قال لهم عبد الله بن جبير: أسمعتم ما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: لا نبرح غَلبوا أو غُلبوا، قالوا له: تم الأمر لم يبق إلا الغنيمة فقط، خالفوا أمر الرسول فألقى الله الشجاعة في

---

1 - وهو أحد قولي السيوطي في الجلالين. انظر حاشية الصاوي ج1/ ص369.

2 - تطرق له الشيخ محمد الخضري في كتابه نور اليقين ص130 فقال: ورفعت إحدى نساء المشركين اللواء فاجتمعوا حوله.

قلوب الكفار فرجعوا وقاتلوا المسلمين فقتلوا منهم اثنين وسبعين[1] في الحين وجرح عدد كبير منهم الرسول صلى الله عليه وسلم جرح في جبينه وكسروا رباعيته صلى الله عليه وسلم واستشهد حمزة أسد الله وأسد رسوله[2]. ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ من المدينة أو من أهلك من بيت أهلك، خرج من بيت عائشة في ذلك اليوم ﴿تُبَوِّئُ﴾ تنزل ﴿الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ﴾ مراكز يقفون فيها ﴿لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم وذلك يوم أحد ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ هم بنو سلمة وبنو حارثة جناحا العسكر ﴿أَن تَفْشَلاَ﴾ تجبنا عن القتال وترجعا، لما رجع عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه وقال علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ وقال لأبي جابر السلمي - القائل له أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم - لو نعلم قتالا لاتّبعناكم. فثبتهما الله ولم ينصرفا. كادا أن يفرا كما فر المنافقون ولكن عصمهما الله، فبقي سبعمائة نفر فقط مع الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ناصرهما عن الفشل ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ليثقوا به دون غيره. ونزلت لما هزموا تذكيرا لهم بنعمة الله. لما قال بعض المسلمين كيف يقع بنا هذا ونحن مع

---

1 - هو قول الشافعي نقله المحب الطبري. انظر شرح الحديث رقم (4043) من فتح الباري كتاب المغازي /باب غزوة أحد.

2 - أحداث الغزوة مفصلة في كتب السيرة كسيرة ابن هشام والرحيق المختوم وغيرها. وقد أخرج البخاري في صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله وقال لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينوننا فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة فقال عبد الله بن جبير عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم ألا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا...الحديث. صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة أحد (4043).

رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى دينه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ موضع بين مكة والمدينة ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ بقلة العدد والسلاح ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه ﴿إِذْ﴾ ظرف لنصركم ﴿تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ توعدهم تطمينا ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ﴾ يعينكم ﴿رَبُّكُم بِثَلاثَةِ ءَالافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى﴾ يكفيكم ذلك وفي الأنفال بألف لأنه أمدهم أولا بها ثم صارت ثلاثة ثم صارت خمسة كما قال تعالى ﴿إِن تَصْبِرُواْ﴾ على لقاء العدو ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله في المخالفة ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ المشركون ﴿مِن فَوْرِهِمْ﴾ وقتهم ﴿هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ معلمين، وقد صبروا وقد أنجز الله وعده لهم بأن قاتلت معهم الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر وبيض أرسلوها بين أكتافهم[1]. لما صبروا يوم بدر نزل خمسة آلاف من الملائكة جبريل معه ألفان وميكائيل معه ألف، إسرافيل معه ألف، ملك الموت معه ألف[2] ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الإمداد ﴿إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ﴾ وهذا بشرى للمسلمين إذا عرفوا أن الملائكة تقاتل معهم يبشرهم هذا ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُكُم بِهِ﴾ فلا تجزع من كثرة العدو وقلتكم ﴿وَمَا النَّصْرُ

---

1 - روي عن علي بن أبي طالب وابن عباس وغيرهما أن الملائكة اعتمت بعمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم. ذكره البيهقي عن ابن عباس. القرطبي ج4/ 196. وفي سيرة ابن هشام ج2/ 286.

2 - عن علي رضي الله عنه قال: بينا أنا أمتح (أجذب الماء من البئر للسقي) من قليب بدر جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي قبلها ثم جاءت ريح شديدة لم أر أشد منها إلا التي كانت قبلها فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألفين من الملائكة وكانوا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألفين من الملائكة وكانوا عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم والريح الثالثة إسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت عن يساره. الخازن ج1/ 280 وفي تفسير القرطبي باختلاف يسير ج4/ 193.

إلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وفي الحقيقة النصر لا يأتي إلا من عند الله تبارك وتعالى ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ليس بالملائكة بل من الله تبارك وتعالى، النصر لا يأتي إلا من الله فلا تجد في القرآن كلمة النصر إلا والنصر من عند الله حتى يعرف العبد أن لا ناصر إلا الله "إن ينصركم الله فلا غالب لكم" "نصر من الله وفتح قريب" "إذا جاء نصر الله" لا تجد النصر الحقيقي إلا وهو مع الله "ولينصرن الله من ينصره" "إن تنصروا الله ينصركم"، لا ناصر إلا الله، «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» فعل ذلك ﴿لِيَقْطَعَ﴾ ليهلك ﴿طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالقتل والأسر ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يذلهم بالهزيمة ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ لم ينالوا ما راموا. ولما كسرت رَباعية الرسول صلى الله عليه وسلم وشج وجهه يوم أحد قال: (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم) نزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1] بل الأمر لله فاصبر ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أو يتوب الله عليهم بالإسلام ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فيتركهم يموتون على الكفر فيعذبَهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بالكفر. إذا أراد الله أن يهديهم يهدهم للإسلام وإن أراد أن يعذبَهم يموتوا على الكفر فهم يستحقون ذلك لأنّهم ظالمون، وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فليس له من الأمر شيء، وهذا غاية في عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم، أمْره كلا أمْر الله تبارك وتعالى، حتى أنه ليس له من أمره

---

1 - عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله فأنزل الله عز وجل ليس لك من الأمر شيء) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب غزوة أحد (3346). وفي صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون" عن أنس: شُج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد فقال (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم فنزلت ليس لك من الأمر شيء). (بلا رقم)

شيء ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَاءُ﴾ المغفرة له ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَّشَاءُ﴾. الله تبارك وتعالى مغفرته ليس لها علة، لا علة لغفران الله تبارك وتعالى يغفر لمن شاء، غفر للكفار وغفر للفجار، مهما بلغ العبد ما بلغ من سوء الحالة إن شاء الله هداه وغفر له، الغفران ليس له أي علة وليس ممنوعا من أحد من خلق الله، يغفر الله لنا ولكم جميعا، «ويعذب من يشاء» ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لأوليائه ﴿رَحِيمٌ﴾ بأهل طاعته ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَواْ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ الربا الذي كانوا يتعاملون به في الجاهلية يزيدون في المال عند حلول الأجل ويؤخرون الطلب فتكون أضعافا مضاعفة ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ بتركه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أن تعذبوا بها ﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ سَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ بادروا إلى الأعمال الصالحة مسارعة إلى مغفرة الله ومسارعة إلى جنة الله التي عرضها السماوات والأرض. السماوات سبع، سعة السماء مسافة خمسمائة عام، وصلت سماء بأخرى حتى جاءت سبعا ووصلت أرض بأخرى حتى جاءت أربع عشرة، الجنة أوسع من هذا[1]. قال الرسول صلى الله عليه وسلم محل معلق سوط المؤمن في الجنة أوسع من الدنيا وما فيها وأفضل من الدنيا وما فيها[2] والسماوات والأرض هي أوسع ما نرى والقرآن يقرب إلى العقول يخاطب العقول

---

1 – أورد القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قوله: تقرن السماوات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله. القرطبي ج4/ 204.

2 – عن أبي هريرة (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (3250).

بقدر ما يفهمون، وإلا فعرض الجنة لا يقاس بعرض السماوات والأرض. ذُكر أن الجنة لما خلقها الله قال لها امتدي فامتدت ألف سنة، قال لها امتدي فامتدت ألف سنة، قال لها امتدي قالت إلى مدى كم؟ قال امتدي قدر سعة رحمتي، ورحمة الله تبارك وتعالى ليس لها نِهاية. فصارت الجنة ليس لها نِهاية، كل من يسكن الجنة ـــ جعلنا الله وإياكم منهم ـــ ساكن في وسطها، أما طرف الجنة فلا يعلمه أحد ليس لها طرف. تلك الجنة الواسعة سارعوا إليها بالعمل الصالح ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تلك الجنة لمن؟ للمتقين بعمل الطاعات وترك المعاصي. التقوى حيث ذكر في القرآن هو امتثال الأمر واجتناب النهي ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ وصف المتقين بأوصاف منها إنفاق أموالهم في سبيل الله في حالة اليسر وحالة العسر ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ والذين يقدرون على إمضاء الغيظ فيكظمون الغيظ مع القدرة ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ عمن ظلمهم التاركين عقوبتهم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ بهذه الأفعال أي يثيبهم، هذه الآية أيضا عمل فيها السلف الصالح أعمالا جليلة. كان الحسن بن علي عنده جواد يحبه جدا فأرسل غلاما له يسقيه ويغسله، يريد الخروج إلى سفر فأبطأ الغلام حتى استعجل الحسن فأتى بالجواد وقد عقره ـــ عقر رجليه و لم يغسله بل لطخه بالدم. ولما جاء قال له الحسن: ما حملك على هذا؟ قال: أحب غضبك فقط. قال: الشيطان أغراك على هذا ولكن سأرغم أنفه، الله يقول تبارك وتعالى في كتابه "والكاظمين الغيظ" وقد كظمت غيظي، قال له: ولكن القرآن زاد شيئا قال "والعافين عن الناس" قال: عفوت عنك، قال: "والله يحب المحسنين" قال: أنت حر في سبيل الله والجواد هدية مني إليك. الذين يكظمون الغيظ ويعفون عمن ظلمهم ويحسنون ثلاث صفات، من فضله قال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً﴾ ذنبا قبيحا كالزنا ﴿أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بما دونه كالقبلة ﴿ذَكَرُواْ

﴿اللَّهَ﴾ وعيده ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَّغْفِرُ﴾ يعلمون أنه لا يغفر ﴿الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ يديموا ﴿عَلَى مَا فَعَلُواْ﴾ بل أقلعوا عنه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الذي أتوه معصية هذا هو القسم الرابع ﴿أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقدرين الخلود فيها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ بالطاعة هذا الأجر، من أذنب ذنبا وتلا هذه الآية "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله" فاستغفر الله تبارك وتعالى غفر الله له، (عبدي لا أزال أغفر لك ما دمت تستغفرني، لو جئتني بقراب الأرض ذنبا واستغفرتني لغفرته لك ولا أبالي)[1] (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم)[2] (لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أعظم: العُجب العُجب)[3] الله تبارك وتعالى لا يحب المعصية ولا يحب العاصي ولكنه يحب التوابين والتوابون هم العاصون التائبون فقط ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ طرائق في الكفار بإمهالهم ثم أخذهم ﴿فَسِيرُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي

---

1 - أخرج الترمذي والضياء عن أنس "قال الله تعالى يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة". سنن الترمذي: كتاب الدعوات/ باب فضل التوبة والاستغفار (3463).

2 - عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) صحيح مسلم: كتاب التوبة/ باب سقوط الذنوب بالاستغفار (4936).

3 - عن أنس (لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب) رواه البيهقي في شعب الإيمان. الجامع الصغير ج2/ 438 رقم 7488.

الْأَرْضِ فَانظُرواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ الرسلَ آخر أمرهم الهلاك فقط، فلا تحزنوا لغلبتهم فأنا أمهلهم لوقتهم، الكفار والظلمة يمهلون ولا يهملون، الله يمهل ولا يهمل، فلا تجد ظالما إلا ويبتلى بظالم آخر فيُهلِك الله الجميع "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد" (إن الله يمهل الظالم أو يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[1] ﴿هَذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كلهم ﴿وَهُدًى﴾ من الضلال ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ منهم ﴿وَلاَ تَهِنُواْ﴾ تضعفوا عن قتال الكفار ﴿وَلاَ تَحْزَنُواْ﴾ على ما أصابكم بأحد ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ بالغلبة عليهم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقا، إذا كان الإيمان حقا عندنا فنحن الأعلون دائما هذا وعد من الله تبارك وتعالى وفّاه مَن قبلَنا لما صدقوا في إيمانهم نصرهم الله وجعلهم فوق الجميع ﴿إِنْ يَّمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ جرح ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ الكفار ﴿قَرْحٌ﴾ جرح ﴿مِثْلُهُ﴾ ببدر. كيف تتألمون أيها المسلمون وما أصابكم أصاب الكفار ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ نصرفها ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ يوم لفرقة ويوم لأخرى، فيوم علينا ويوم لنا ليتعظوا ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ والقصد في هذا وهو للابتلاء أن يعرف الصادقين في إيمانهم. لو كان النصر حليف المسلمين دائما لما وقع بلاء يميز المؤمنين من المنافقين. "ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب" قدم يقتل لأنه يحتمل أن المجاهد في سبيل الله يُقتل "أو يغلب" ثم يغلب أيضا، لو كان يحب ما يوافق النفوس فقط لقال: ومن يقاتل في سبيل الله فيغلب. هو كان قادرا على هذا

---

1 – عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال ثم قرأ "وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن/ باب قوله وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى (4686) وفي صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ تحريم الظلم (4680).

ولكن "فيقتل" يمكن أنه يقتل قبل أن يجد مراده أو يغلب ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يكرمهم بالشهادة ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين بل يعاقبهم وما ينعم به عليهم استدراج، كلما وجد الكافر منهم فرصة سانحة فإنما هو استدراج فقط وآخره الهلاك، والمسلم كل ما أصابه فإنما هو بلاء وآخره النصر ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يطهرهم ﴿وَيَمْحَقَ﴾ يهلك ﴿الْكَافِرِينَ أَمْ﴾ بل ﴿حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ﴾ تظنون أن الإسلام مجرد قول فقط وتدخلون الجنة؟ بل حتى يعلم الله الذين جاهدوا منكم علم ظهور. الله عليم بكل شيء لكن العلم هنا إظهار للناس ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ في الشدائد ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أيها المسلمون كنتم تتمنونه لما وقعت غزوة بدر وقال الرسول: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[1] كلكم تمنى أن يحضر غزوة مثل بدر ليجد ما وجده أهل بدر، كنتم تتمنون هذا فاليوم فررتم ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ رأيتم سبب الموت الذي هو الحرب ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ بصراء تتأملون الحال، فلِم انْهزمتم؟ عتاب شديد على من فر منهم يوم أحد.

ونزل في هزيمتهم لما أشيع أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل، صرخ إبليس اللعين فقال: قُتل محمد، ألا إن محمدا مقتول ألا إن محمدا مقتول، فشا ع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فأتى أبو سفيان ونادى: يا محمد يا محمد، قال الرسول صلى

---

1 – طرف من حديث صحيح متفق عليه عن علي رضي الله عنه. صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب الجاسوس (3007) وفي صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل أهل بدر (4550).

الله عليه وسلم: لا تجيبوه، فسكتوا، يا أبا بكر يا أبا بكر، قال الرسول: لا تجيبوه. يا عمر، يا عمر، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تجيبوه. قال: أما هؤلاء فقد قتلوا جميعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تجيبوه. فرفع صنمه وقال: اعلُ هبل، اعل هبل، اعل هبل.. لنا عزى ولا عزى لكم. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أجيبوه الآن: الله مولانا ولا مولى لكم، الله أعلى وأجل، الله أعلى وأجل، الله أعلى وأجل. أجابه عمر: كل من دعوت جالس حي وسترى ما يرغم أنفك[1]. علِم أن عمر لم يقتل بعد، وما دام عمر موجودا فالباقون حاضرون. لما قال إبليس إن محمدا قد قتل رجع عبد الله بن أبي بن سلول فقال: أذهب بكم إلى إخوانكم الكفار تصالحونَهم وترجعون إلى دينكم وإلى بلادكم، كنت أعرف أن أمر محمد لا يتم أبدا هذا ليس بشيء امشوا إلى إخوانكم[2]، قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ كغيره ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ لو صح أن محمدا قد قتل هو ليس هو الرب إنما هو رسول فقط أفإن مات أو قتل ترجعون إلى الكفر كأن الدين لمحمد؟ الدين لله تبارك وتعالى والله حي لا يموت، ومحمد ما كان معبودا كان يدعوكم إلى عبادة الله فقط كيف ترجعون؟ ﴿وَمَنْ يَّنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَّضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ وإنما يضر نفسه ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ نعمه بالثبات ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لا تموت نفس إلا بعد انقضاء أجلها ﴿كِتَابًا﴾ كتب الله ذلك كتابا عنده ﴿مُؤَجَّلاً﴾ مؤقتا

---

1 – انظر صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة أحد (4043).

2 – قال الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين ج385/1 عند قوله تعالى "يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا" قال نزلت في أهل أحد حين تفرقوا وصار عبد الله بن سلول يقول لضعفائهم امضوا بنا إلى أبي سفيان لنأخذ لكم منه عهدا ألم أقل لكم إنه ليس نبيا.

لا يتقدم ولا يتأخر فلِمَ انْهزمتم؟ والهزيمة لا تدفع الموت والثبات لا يقطع الحياة ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ جزاءه منها ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ من ثوابها ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ اسم الرسول صلى الله عليه وسلم محمد وأحمد ومن أحب محمدا صلى الله عليه وسلم حتى سمى ولده محمدا وجبت له شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم (أقسم الجليل أنه لا يعذب عبدا اسمه محمد أو أحمد)[1] فلهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا على أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة)[2] تجد ولدا تسميه محمدا وآخر محمدا لا يضر هذا. كان واحد من بني إسرائيل عاش ثمانين سنة ما عمل خيرا قط إلا أنه كلما نظر في التوراة ورأى اسم محمد قبّله، فلما مات ألقوه وامتنعوا من الصلاة عليه فدعا جبريل نبي الله قال له اخرج إلى الصلاة على ولي الله تبارك وتعالى. قال: ولي الله هذا الفاسق الفاجر؟ قال: كان لا يرى اسم محمد إلا وقبله[3]. هو حبيب الله ومراده مما خلق. ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ﴾ إن قتل محمد فكثير من الأنبياء قتلوا ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ جماعة ﴿كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ﴾ ما جبنوا ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من الجراح وقتل أنبيائهم ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن الجهاد ﴿وَمَا اسْتَكَانُواْ﴾ ما خضعوا لعدوهم لموت نبيهم كما فعلتم أنتم حين قيل قتل النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ يثيبهم ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ عند قتل نبيهم مع ثباتِهم وصبرهم

---

1 – عن جعفر بن محمد عن أبيه إذا كان يوم القيامة نادى مناد ألا ليقم من اسمه محمد فليدخل الجنة لكرامة اسمه صلى الله عليه وسلم. أورده عياض في الشفا ج1/ 176.

2 – (ما ضر أحدكم لو كان في بيته محمد ومحمدان وثلاثة) الجامع الصغير ج499/2 رقم الحديث 7932.

3 – روح البيان ج314/8.

﴿إلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾ تجاوزنا ﴿فِي أَمْرِنَا﴾ إيذانا بأن ما أصابَهم لسوء فعلهم وهضما لأنفسهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بالقوة على الجهاد ﴿وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَئَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ النصر والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآَخِرَةِ﴾ الجنة وحسنه التفضل فوق الاستحقاق ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيما يأمرونكم به ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ إلى الكفر ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَيكُمْ﴾ ناصركم ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ فأطيعوه دونهم ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾ لما عزموا بعد ارتحالهم من أُحد على العود واستئصال المسلمين فرعبوا ولم يرجعوا ﴿بِمَا أَشْرَكُواْ﴾ بسبب إشراكهم ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَانًا﴾ حجة على عبادته وهو الأصنام ﴿وَمَأْوَيهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى﴾ مأوى ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين هي ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إياكم بالنصر، وعد الله المسلمين بالنصر وقد صدق وعده نصرهم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ تقتلونهم ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بإرادته ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم عن القتال ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾ اختلفتم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ خالفتم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في المقام في سفح الجبل للرمي فقال بعضكم نذهب فقد نصر أصحابنا وبعضكم: لا نخالف أمر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أمره فتركتم المركز لطلب الغنيمة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ﴾ الله ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾ من النصر ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ فترك المركز للغنيمة ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فثبت به حتى قتل كعبد الله بن جبير وأصحابه ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ عن الكفار ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليمتحنكم فيظهر المخلص من غيره ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ ما ارتكبتموه في أحد ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو. قال الله تبارك وتعالى إنه صدقهم وعده ولكن هم

خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، وقال «منكم من يريد الدنيا» قال أبو بكر الصديق: ما كنت أظن أن في أصحاب الرسول من يحب الدنيا قبل هذه الآية. كان يظن أن ليس فيهم من يحب شيئا من الدنيا حتى جاءت هذه الآية «منكم من يريد الدنيا». عجبا هل في أصحاب الرسول من يحب الدنيا؟ أبو بكر ليس منهم. «ومنكم من يريد الآخرة» من عمل للدنيا حُرم الآخرة ومن عمل للآخرة يعطيه الله ما قسم له من الدنيا ويعطيه الآخرة مع ذلك. سأل واحد من الصحابة الرسول صلى الله عليه وسلم كيف نعرف إذا كنا على حالة مرضية عند الله أو على حالة غير مرضية؟ قال: إذا كنت كلما أردت طاعة يسرها الله لك وكلما أردت معصية عسرها الله عليك فأنت في خير. واذكروا ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تبعدون في الأرض هاربين ﴿وَلاَ تَلْوُۥنَ﴾ تعرجون ﴿عَلَى أَحَدٍ﴾ كلكم يفر على وجهه لا يلتفت أحد إلى الآخر ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ والنبي صلى الله عليه وسلم من ورائكم يقول إليّ إليّ عباد الله ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ جازاكم ﴿غَمًّا﴾ بالهزيمة ﴿بِغَمٍّ﴾ بسبب غمكم للرسول صلى الله عليه وسلم بالمخالفة، سئل عمر هل فررت يوم أحد؟ قال: نعم، كلنا فر إلا الرسول صلى الله عليه وسلم، رأيتني وأنا أعدو كأني وعِل. ذلك اليوم كلهم فر إلا طلحة بن عبيد الله فقط هو الذي بقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن عمر وأبا بكر وعبد الرحمن وعليا سرعان ما عادوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وحملوه وصعدوا به الجبل فلما رآه الصحابة رجعوا جميعا ﴿لِكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من الغنيمة ﴿وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ من القتل ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾ أرسل الله أمنا ﴿نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ لما رجع الصحابة وواجهوا الكفار أرسل الله عليهم أمنا

فكلهم ينعس في موقف القتال فلما رأى الكفار هذا قالوا هؤلاء ليسوا بأناس من ينعس في هذا المقام ففروا فقط ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ حملتهم على الهم فلا رغبة لهم إلا نجاتها ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾ ظنا ﴿غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كظن الجاهلية حيث اعتقدوا أن النبي قتل ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا﴾ ما لنا ﴿مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ القضاء له يفعل ما يشاء ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ﴾ يظهرون ﴿لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لو كان الاختيار لنا لم نخرج فلم نقتل ولكن أخرجنا كرها ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وفيكم من كتب الله عليه القتل ﴿لَبَرَزَ﴾ خرج ﴿الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم فيقتلون ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ﴾ يختبر ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم من الإخلاص والنفاق ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يميز ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب لا يخفى عليه شيء وإنما يبتلي ليظهر للناس ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ﴾ عن القتال ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع الكفار بأحُد وهم المسلمون إلا اثني عشر رجلا ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ﴾ أزلهم ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بوسوسته ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب. هذه الآية تدل على أن الإنسان يرتكب صغيرة فتحمله الصغيرة على ارتكاب كبيرة، كل ذنب ارتكبه مسلم فبسبب ذنب قبله ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمؤمنين ﴿حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المنافقين ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي في شأنهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ سافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فماتوا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ جمع غاز فقتلوا ﴿لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ لا تقولوا كقولهم ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ القول في عاقبة أمرهم ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فلا يمنع عن الموت قعود ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم به ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجهاد ﴿أَوْ مِتُّمْ﴾ على فرشكم

﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ كائنة ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لذنوبكم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ التي هي الجنة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا تَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا وما فيها ﴿وَلَئِن مِّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ إذا متم أو قتلتم فالحشر إلى الله تبارك وتعالى. العباد على أقسام: من يعبد الله خوفا من ناره، ومن يعبد الله رغبة في جنته، ومن يعبد الله محبة فيه، وكلهم أشارت إليه الآية «ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله» الذين يعبدون الله خوفا من النار فلهم المغفرة، والذين يعبدون الله رغبة في الجنة «ورحمة خير» لهم «مما تجمعون»، وجدوا الجنة التي هي رحمة الله تبارك وتعالى، والذين يعبدون الله محبة فيه «لإلى الله تحشرون» ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ﴾ يا محمد ﴿لَهُمْ﴾ سهلت أخلاقك للمسلمين رحمة من الله جعل النبي صلى الله عليه وسلم هينا لينا ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ جافيا فأغلظت لهم ﴿لَانفَضُّواْ﴾ لتفرقوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ﴾ تجاوز ﴿عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوبهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ استخرج آراءهم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ في شأنك من الحرب أو تطييبا لقلوبهم وليستن بك وكان صلى الله عليه وسلم كثير المشاورة لهم ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ على إمضاء ما تريد بعد المشاورة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق به ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ يعنكم على عدوكم ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم﴾ لا أحد ينصركم ﴿مِن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لا على غيره. والتوكل ثقة العبد بالله تبارك وتعالى ولو مع الدخول في الأسباب. ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله أعطاني سبعين ألفا من أمتي يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون وعلى

الله يتوكلون)[1].قال له عمر: سل ربك يزدك. قال: سألته فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا. قال: سل ربك يزدك. قال: سألته فأعطاني ثلاث حثيات من حثيات الرحمن، فقال أحد: سل ربك يزدك. قال عمر: لا تسأله إن الله يقدر أن يدخلنا الجنة كلا في حثية واحدة، الله يحثو بيديه ثلاث مرات. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: صدق عمر. لا يرقون ولا يسترقون معناه الرقية المنافية للشرع وإلا فقد ورد أن الرسول قال: وما يدريك أنّها رقية[2]، إن فاتحة الكتاب رقية سماها رقية، ولو كانت ممنوعة لما سماها الرسول صلى الله عليه وسلم رقية. والنبي صلى الله عليه وسلم كان إذا شكا مرضا قرأ بالمعوذات[3]: الإخلاص والمعوذتين فنفث في يده ومسح على رأسه وعلى ما أمكنه من جسده حتى لما مرض مرض وفاته صارت عائشة تقرأ المعوذات وتنفث في يدي الرسول صلى الله عليه وسلم لأن يدي الرسول صلى الله عليه وسلم أبرك من يديها وتمسح بيدي الرسول صلى الله عليه وسلم على جسد الرسول صلى الله عليه وسلم[1] وقال: (من

---

1 – طرف من حديث متفق عليه جاء في صحيح البخاري من كتاب الطب/ باب من اكتوى أو كوى غيره (5705) وفي صحيح مسلم من كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (323).

2 – (وما يدريك أنها رقية) طرف من حديث رواه الشيخان، صحيح البخاري: كتاب الطب/ باب النفث في الرقية (5749) وفي صحيح مسلم بلفظ "وما أدراك": كتاب السلام/ باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن (4080).

3 – الحديث (كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث) جاء في صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن/ باب فضل المعوذات (5016) وفي صحيح مسلم: كتاب السلام/ باب رقية المريض بالمعوذات (4066).

1 – نفس الحديث في الصحيحين.

استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل)[1] فإذاً الرقية الممنوعة التي تنافي التوكل هي الرقية بأسماء العجم التي ربما تكون فيها أسماء صنم أو أسماء ملوكهم الكفار وذلك شرك، هذا يجانب الإيمان. وأما بالقرآن والأسماء والأدعية العربية المفهومة المعنى فلا ينافي التوكل ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ﴾ سبب نزولها فقدت قطيفة حمراء يوم بدر فقال بعض المنافقين لعل النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أخذها[2] ﴿وَمَا كَانَ﴾ لا ينبغي ﴿لِنَبِيٍّ أَنْ يُغَلَّ﴾ أن يخون في الغنيمة فلا تظنوا به ذلك ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حاملا له على عنقه[3] ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ الغال وغيره جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ فظهرت عند رجل ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ فأطاع ولم يغل ﴿كَمَن بَاءَ﴾ رجع ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ لمعصيته ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ﴾ أصحاب درجات ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ مختلفو المنازل فلمن اتبع رضوانه الثواب، ولمن باء بسخطه العقاب. تُنصب يوم القيامة ألوية: لواء الصدق لأبي بكر الصديق، الصديقون كلا تحته، ولواء العدل لعمر فكل أمير عدل يكون تحت لواء عمر، والمنفقون لواؤهم بيد عثمان، والعلماء لواؤهم بيد علي كرم الله وجهه، ولواء القراء بيد أبي بن كعب، ولواء الأذان بيد بلال، ثم كذلك كل أهل خصلة لهم لواء يكون في يد رئيسهم من الصحابة[1]. هذه هي الدرجات التي ذكر الله في هذه الآية، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ

---

1 – صحيح مسلم: كتاب السلام/ باب استحباب الرقية من العين الخ (4076).

2 – ذكره الخازن في تفسيره لباب التأويل في معاني التنزيل ج1/297.

3 – ورد ذلك في الحديث الصحيح. صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب الغلول وقول الله تعالى ومن يغلل يأت بما غل (3013) وفي صحيح مسلم: كتاب الإمارة/ باب غلظ تحريم الغلول (3412).

1 – نصب الألوية يوم القيامة ورد في روح البيان ج2/125.

بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الله أكرم المؤمنين لما بعث فيهم رسولا عربيا مثلهم ليفهموا عنه ويشرفوا به لا ملكا ولا عجميا ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِۦ﴾ القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يطهرهم من الذنوب ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ قبل بعثه ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم العرب في ضلال مبين، لا منقبة لهم قبل الرسول صلى الله عليه وسلم ولا قبل القرآن، إذاً فضلهم باتباع القرآن والرسول فقط ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ بأحُد بقتل سبعين منكم ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين ﴿قُلْتُمْ﴾ متعجبين ﴿أَنَّى﴾ من أين لنا ﴿هَذَا﴾ هذا الخذلان كيف يخذلنا الله تبارك وتعالى ونحن مسلمون ورسول الله فينا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ الخذلان إنما جاء من عندكم أنتم الذين تركتم المركز الذي ركز لكم النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إن الله قدير على كل شيء ومنه النصر ومنعه وقد جازاكم بخلافكم ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ بأحُد ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادته ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ الله علم ظهور ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَ﴾ الذين ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ لما انصرفوا عن القتال وهم عبد الله بن أبي وأصحابه ﴿تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعداءه ﴿أَوِ ادْفَعُواْ﴾ عنا القوم بتكثير سوادكم، من أكثر سواد قوم فهو منهم، إن لم تقاتلوا ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ﴾ نحسن ﴿قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال تعالى تكذيبا لهم ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بما أظهروا من خذلانهم للمؤمنين وكانوا قبل أقرب إلى الإيمان من حيث الظاهر ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ولو علموا قتالا لم يتبعوكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق ﴿الَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الدين ﴿وَقَعَدُواْ﴾ وقد قعدوا عن الجهاد ﴿لَوْ

أَطَاعُونَا﴾ أي شهداء أحُد وإخواننا لو أطاعونا في القعود ﴿مَا قُتِلُواْ قُلْ فَادْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كان الجلوس يمنع من الموت فإياكم والموت لا تموتوا أبدا وأنتم لابد ميتون ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ استشهدوا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت كما ورد في الحديث[1] ﴿يُرْزَقُونَ﴾ يأكلون من ثمار الجنة ﴿فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ، وَ﴾ هم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم ﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هم طلبوا من الله العود إلى الدنيا حتى يبشروا المسلمين أن من استشهد يجد كفاء من الكرامات، قال الله تبارك وتعالى أما الرجوع إلى الدنيا بعد الموت فلا سبيل إليه ولكن أنا أبلغ عنهم فقالوا بلغوا إخواننا المسلمين أننا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه. اللهم صل على سيدنا محمد وسلم.

---

1 - جاء في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب الإمارة/ باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (3500).

الدرس العاشر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادى إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ورضي الله تعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

يا همة الشيخ احضري لنا بهذا المحضر
ولتعطفي بنظرة تأتي لنا بالظفر

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ الشهداء يستبشرون بثواب الله تبارك وتعالى وفضله زيادته عليه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل يأجرهم. الشهداء وصفهم الله في القرآن بأنّهم أحياء عند ربِّهم. الشهيد لا يسقط إلا وقد اهتدى لمقعده في الجنة، يوضع على رأسه تاج الكرامة، ويغفر له جميع خطاياه ويشفع في سبعين من أهل بيته، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين[1]، فيستبشرون بهذا الثواب وما زادهم الله تبارك وتعالى من فضله الذي لا حد له. وأنواع الشهادة كثيرة: الشهيد في المعركة شهيد ومن ماتت بجمع، أي امرأة ماتت بالولادة شهيدة، وامرأة ماتت بكرا عذراء، وامرأة ماتت بالغيرة، من صبرت على الغيرة حتى ماتت،

---

1 – عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (للشهيد عند الله ست خصال يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه) سنن الترمذي: كتاب فضائل الجهاد/ باب في ثواب الشهيد (1586) وفي سنن ابن ماجه: كتاب الجهاد/ باب فضل الشهادة في سبيل الله (2789).

ومن قتل في الحرق أو في الغرق أو في الهدم[1]، كذلك من قرأ سورة الإخلاص في مرض موته كل هؤلاء شهداء ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ نزلت هذه الآية في أهل أحُد، لما وقعت غزوة أحد ووقع ما وقع حتى استشهد اثنان وسبعون من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك قوى الله المؤمنين فغلبوا المشركين وهزموهم وطردوهم، فلما فروا حتى بعدوا تفكر أبو سفيان في أمره وقال نحن أثخناهم قتلا وجرحا وبعد ذلك نفر عنهم لابد أن نعاود القتال معهم غدا. وقعة أحد وقعت يوم السبت، أرسلوا للنبي صلى الله عليه وسلم: موعدنا معكم غدا بحمراء الأسد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لأخرجن ولو كنت أنا وحدي ولا يخرج معي أحد إلا من حضر الوقعة بالأمس)[2] فخرجوا وكلهم مجروح، منهم من قطعت رجله فأمر من يحمله، ومنهم من قطعت يده، فذهبوا إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان وأصحابه، فأرسلوا إلى النبي ثانية إن موعدنا معك بدر الصغرى في العام القابل، وصف الله الرسول وأصحابه بقوله «الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ» دعاء الرسول بالخروج للقتال لما

---

1 – عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الشهداء خمسة المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله) متفق عليه، وقال ابن حجر في شرح الحديث: وفيه الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله فذكر زيادة على حديث أبي هريرة الحرق وصاحب ذات الجنب والمرأة تموت بجمع. صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير/ باب الشهادة سبع سوى القتل (2829).
صحيح مسلم: كتاب الإمارة / باب بيان الشهداء (3538).

2 – (لأخرجن إليهم ولو وحدي) أورده الصاوي في حاشيته على الجلالين ج191/1. وقوله صلى الله عليه وسلم (ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس) ذكره الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه فقه السيرة ص256.

أراد أبو سفيان وأصحابه العود وتواعدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سوق بدر العام المقبل من يوم أحُد، زلت قدم المفسر[1] هذا نزل في حمراء الأسد وهو يوم الأحد في الغد من غزوة أحد ولما ألقى الله الرعب في قلوبهم تواعدوا ببدر العام المقبل. فالصواب من قول المفسر وتواعدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ بأحُد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بطاعته ﴿وَاتَّقَواْ﴾ مخالفته ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو الجنة.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان لما قرب الميعاد في العام القادم أرسل نعيما بن مسعود الأشجعي، قال له: لك عندي مائة من الإبل إذا ثبطت الرسول وأصحابه وخوفتهم من الخروج حتى يكون سبب عدم القتال من جانبهم فأتى نعيم بن مسعود فوجد النبي صلى الله عليه وسلم يتأهب هو وأصحابه، فقال لهم ليس هذا برأي إن الناس قد جمعوا لكم جموعا ليستأصلوكم، هذا الذي رأيت من القوة ومن العدد والعدد والسلاح لا قِبل لكم به، قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. وعزموا على الخروج للقتال فألقى الله الرعب في قلوب الكفار

---

1 – ويعني السيوطي في الجلالين عند قوله: [لما أراد أبو سفيان وأصحابه العود وتواعدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم سوق بدر العام المقبل من يوم أحُد] وصوابه كما بينه الشيخ أن تواعدهم مع النبي صلى الله عليه وسلم العامَ القابل إنما كان بحمراء الأسد في اليوم الثاني بعد يوم أحد ويؤيده ما رواه عكرمة عن ابن عباس وقد أورده ابن حجر في تعليقه على قول البخاري: باب قوله "الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم" من كتاب تفسير القرآن ونص حديث ابن عباس: (لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمدا قتلتم ولا الكواعب ردفتم بئسما صنعتم فرجعوا فندب الرسول صلى الله عليه وسلم الناس فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد فبلغ المشركين فقالوا نرجع من قابل فأنزل الله تعالى "الذين استجابوا لله والرسول... الآية"

فتخلفوا عن الميعاد[1]، مدحهم الله بقوله ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ نعيم بن مسعود هو فرد ولكن يتكلم عن جماعة ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ أبا سفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ الجموع ليستأصلوكم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ ولا تأتوهم ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذلك القول ﴿إِيمَانًا﴾ تصديقا بالله ويقينا ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كافينا أمرهم ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه الأمر وهو الله، وخرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فوافوا سوق بدر فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان وأصحابه فلم يأتوا وكان معهم تجارات وباعوا وربحوا[2] ﴿فَانقَلَبُواْ﴾ رجعوا من بدر ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ بسلامة ورزق ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ من قتل أو جرح ﴿وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بطاعته ورسوله في الخروج ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ على أهل طاعته ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمْ﴾ القائل لكم إن الناس قد جمعوا لكم ﴿الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الكفار ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ في ترك أمري ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لا تخافوا أولياء الشيطان، خافوني أنا الله إن كنتم مؤمنين حقا. هذه الكلمة التي قالها الصحابة «حسبنا الله ونعم الوكيل» بها نصر الله تبارك وتعالى كل نبي وكل ولي من أول الدهر إلى آخر الدهر.

إبراهيم لما ألقي في النار ماذا قال؟ سأله جبريل: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. قال: ألك حاجة إلى الله؟ قال: نعم. قال: سله ينجيك من هذا، قال: علمه بحالي

---

1 – راجع تفسير القرطبي فقد أورد في هذا المعنى قصة مفصلة ج278/4.

2– روى البيهقي عن ابن عباس أن عيرا مرت وكان في أيام الموسم فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل، وأخرج ابن جرير عن السدي: أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه دراهم ابتاعوا بها في الموسم فأصابوا تجارة. تفسير روح المعاني للألوسي ج201/4.

حسبي عن سؤالي، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، "قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم". وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما تجمع الكفار وقالوا «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء». واحد من الصالحين يقول: عجبت من شخص توعده رجل أو خاف من شيء وهو يعلم حسبنا الله ونعم الوكيل وهو يسمع كلام الله تبارك وتعالى "حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء"، وأحد نزل به غم وهو يعلم "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" وهو يسمع الله يقول "فاستجبنا له ونجيناه من الغم"، وأحد تُوعد بالقتل وهو يعرف "وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد" وهو يسمع الله يقول: "فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب". هذه الكلمة من لازمها عدد حروفها أربعمائة وخمسين كل صباح ومساء لا يضره شيء مما خلق الله. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[1] الجهاد الأصغر الجهاد بالسيف والجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى والشيطان. شهيد الجهاد الأصغر شهيد وقتيل الجهاد الأكبر صدّيق والصديقون أعلى مقاما من الشهداء.

ولا بد من الرجوع إلى الله تبارك وتعالى بالكلية ورفض كل ما سواه وعدم الخوف من أي مخلوق كما أكدت الآية: "فلا تخافوهم وخافون"، لن يدخل الحضرة إلا من

1 – عن جابر قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال: (قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه) رواه الديلمي الجامع الكبير2/ 331 مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

صلى على جميع الكائنات صلاة الجنازة أربع تكبيرات، فينفرد لله تبارك وتعالى لا يرجو غيره ولا يخافه. قال أبو يزيد البسطامي: اشتغلت بالمجاهدة لإصلاح نفسي اثنتي عشرة سنة، فرأيت زنارا في قلبي فاشتغلت بقطعه خمسين سنة فرجعت إلى الله تبارك وتعالى وصليت على الأكوان صلاة الجنازة، وفي آخر عمره دخل محرابه وهو يبكي ويقول: يا رب ليس عندي صلاة ولا صيام ولا أي شيء، إنما حقيقة هذا عبد قضى عمره في الضلالة، واليوم قطعت زناري وها أنا رجعت إليك بالتوبة[1]، يعني أنه قضى عمره في الضلالة وهذا هضم النفس، عادة الصالحين أنهم لا يرون الفضل لأنفسهم، بل يرون أعمالهم الحسنة سيئات. وكيف يتكلمون بالكذب في هضم النفس، وهضم النفس لا يجوِّز الكذب، والصالحون كلهم يصفون أنفسهم بأوصاف إذا نظرنا في ظاهر الأمر نجدها كذبا وهضم النفس لا يجوز الكذب. ذلك بأنهم تُقبِّلت أعمالهم الصالحة، والله إذا تقبل من عبده رفع عمله إليه "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه" إذا رفعه الله بقي نسيا منسيا عند العبد، لا يتذكره ولا يتعلق به، وعبد لم ير لنفسه عملا صالحا لابد أن يرى نفسه يعمل عملا سيئا، وحسنات الأبرار سيئات المقربين[2] وفي الحقيقة هذا ليس بكذب لأنّهم هكذا كانوا لولا فضل الله تبارك وتعالى. لولا فضل الله ما ترك العبد سيئة من السيئات، إذاً فالترك ليس منه، وعليه إذا ادعى أنه عمل سيئا فما قال إلا الحق، وإن

---

1 – قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه مكثت اثنتي عشرة سنة حداد نفسي وخمس سنين كنت أجلو مرآة قلبي وسنة أنظر فيما بينهما فإذا في وسطي زنار فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه فكشف لي فرأيت الخلق موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات. مجموعة رسائل الإمام الغزالي ص97.

2 – ذكره الإمام الغزالي في مجموع رسائله على أنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ص 469.

ادعى أنه لم يعمل خيرا فما قال إلا الحق. الكمال أن يعمل العبد ولا يرى أنه عمل خيرا قط والله ذو فضل عظيم ﴿وَلاَ يُحْزِنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يقعون فيه سريعا بنصرته وهم أهل مكة أو المنافقون لا تهتم لكفرهم ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ شَيْئًا﴾ بفعلهم وإنما يضرون أنفسهم ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ نصيبا ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ الجنة فلذلك خذلهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في النار ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أخذوه بدله ﴿لَن يَضُرُّواْ اللَّهَ﴾ بكفرهم ﴿شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي﴾ إملاؤنا ﴿لَهُمْ﴾ أي تأخيرنا لهم بتطويل الأعمار خير لهم ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي﴾ نمهل ﴿لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا﴾ بكثرة المعاصي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة، كانوا يعمرون تسعمائة سنة، ثمانمائة سنة حتى يكونوا كالأقواس من طول العمر[1]، وذلك في الكفار ليس بخير لأنفسهم ولذلك روي عن ابن مسعود (ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها، إن كانت برة فما عند الله خير للأبرار، وإن كانت فاجرة فقد قال الله "إنما نملي لهم ليزدادوا إثما")[2] (خير الناس من طال عمره وحسن عمله وشر الناس

1- قصص الأنبياء لابن كثير ص 54- 55.

2- روي عن ابن مسعود أنه قال: ما من أحد بر ولا فاجر إلا والموت خير له لأنه إن كان برا فقد قال الله تعالى "وما عند الله خير للأبرار" وإن كان فاجرا فقد قال الله "إنما نملي لهم ليزدادوا إثما" القرطبي 287/4 وذكره ابن كثير بلفظ: (ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها لئن كان برا فقد قال الله تعالى "وما عند الله خير للأبرار") ج443/1.

من طال عمره وساء عمله)[1] من يعمل خيرا إذا طال عمره فذلك خير له ومن يعمل شرا كلما ازداد عمرا ازداد شرا «ولهم عذاب مهين» ذو إهانة في الآخرة ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ﴾ ليترك ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ﴾ أيها الناس ﴿عَلَيْهِ﴾ من اختلاط المخلص بغيره ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ يفصل ﴿الْخَبِيثَ﴾ المنافق ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ المؤمن بالتكاليف الشاقة المبينة لذلك وفعل ذلك يوم أحد ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ فتعرفوا المنافق من غيره قبل التمييز ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي﴾ يختار ﴿مِن رُّسُلِهِ مَنْ يَّشَاءُ﴾ فيطلعه على غيبه كما أطلع النبي صلى الله عليه وسلم على حال المنافقين ﴿فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ النفاق ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ بزكاته ﴿هُوَ﴾ بخلهم ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لا يظنون أن هذا البخل خير لهم ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ﴾ بزكاته من المال ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بأن يجعل حية في عنقه تنهشه كما ورد في الحديث (ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتي بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس)[2]. فلهذا ذكر في الآية أن منع حق المال ليس

---

1 – عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رجلا قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: من طال عمره وحسن عمله، قال: فأي الناس شر؟ قال: من طال عمره وساء عمله. سنن الترمذي: كتاب الزهد/ (2252) ورواه عن أبي بكرة أحمد في مسنده: مسند البصريين/ حديث أبي بكرة (19599).

2 – عن أبي ذر رضي الله عنه قال: انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده أو والذي لا إله غيره أو كما حلف ما من رجل تكون له إبل أو بقر أو غنم لا يؤدي حقها إلا أتي بها يوم القيامة أعظم ما تكون وأسمنه تطؤه بأخفافها وتنطحه بقرونها كلما جازت أخراها ردت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس. رواه بكير عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

بخير إنما هو شر ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرثهما بعد فناء أهلهما ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم.

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ نزل في فنحاص اليهودي، قال فنحاص اليهودي لأبي بكر: الله يستقرض منا أموالنا؟ قال له أبو بكر: نعم، قال: إذاً إن الله فقير ونحن أغنياء، الفقير هو الذي يستقرض من الغني، فلطمه أبو بكر وخرج وقال: لولا العهد بينكم وبين الرسول لقطعت عنقك. فجاء اليهود وشكوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي بكر فنزلت هذه الآية ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾[1] وهم اليهود ﴿سَنَكْتُبُ﴾

صحيح البخاري: واللفظ له كتاب الزكاة/ باب زكاة البقر (1460) وورد به حديث طويل في صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب إثم مانع الزكاة (1647).

1- عن ابن عباس قال دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر رضي الله عنه فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينكم من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال: يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه. فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص "لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء" رواه ابن أبي حاتم. انتهى من ابن كثير ج1/ 435.

نأمر بكتب ﴿مَا قَالُواْ﴾ في صحائف أعمالهم ليجازوا عليه ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ﴾ في الآخرة على لسان الملائكة ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ النفس إذا بالغت في الإدبار عن الله تبارك وتعالى تتنكر حتى تجعل الغني فقيرا والفقير غنيا، كما ترى الحسن سيئا والسيئ حسنا. من شدة حماقة عدو الله رأى أن الله تبارك وتعالى فقير وهم أغنياء فهذا غاية الحماقة ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ عبر بها عن الإنسان لأن أكثر الأفعال تزاول بالأيدي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ ذي ظلم ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ الله لا يظلم الناس مثقال ذرة، ظلام صيغة مبالغة، «الله ليس بظلام» هذا في الظاهر لا يدل على أنه لا يظلم وهو لا يظلم البتة فكيف يوصف مولانا بأنه ليس بظلام وهو ليس بظالم أصلا؟ لأن الخلق كثير لو كان يظلم الخلق لكان ظلاما، لأن من كثر منه الظلم يكون ظلاما. والله تبارك وتعالى لم يصدر منه أي ظلم لأي مخلوق ﴿الَّذِينَ قَالُواْ﴾ لمحمد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ﴾ قد عهد ﴿إِلَيْنَا﴾ في التوراة ﴿أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ نصدقه ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فلا نؤمن لك حتى تأتينا به، وهو ما يتقرب به إلى الله من نَعَم وغيرها فإن قُبل جاءت نار بيضاء من السماء فأحرقته وإلا بقي مكانه، وعهد إلى بني إسرائيل ذلك إلا في المسيح عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، لما جاء المسيح نسخ ذلك ولما جاء محمد صلى الله عليه وسلم كذلك[1] ﴿قُلْ﴾ لهم توبيخا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ كزكرياء ويحيى فقتلتموهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم تؤمنون عند الإتيان بالقربان فهؤلاء أتوا بالقربان وقتلتموهم ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَالزُّبُرِ﴾

1- انظر الجلالين ج194/1، والقرطبي ج295/4.

كصحف إبراهيم ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ الواضح كالتوراة والإنجيل فاصبر كما صبروا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ جزاء أعمالكم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كل من عاش لا بد أن يموت، والجزاء ليس في الدنيا إنما هو في الآخرة ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أبعد ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ من أبعده الله من النار وأدخله الجنة نال غاية مطلوبه ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ الباطل يتمتع به قليلا ثم يفنى. الدنيا دار الغرور، متاع قليل ويفنى عما قليل، والآخرة خير وأبقى، فالذي يبقى خير من الذي يفنى، والدنيا فانية والآخرة باقية. كان واحد من الصالحين يتعبد ليلا ونهارا لا يفتر عن العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله، فقيل له: ألا تستريح في بعض الأوقات؟ قال: كم عمر الدنيا؟ قيل له: سبعة آلاف سنة، قال: كم يوم القيامة؟ قيل: خمسون ألف سنة، قال: لو عشت مدة عمر الدنيا لكان الواجب علي أن أجتهد في جميع أيامها لأنّها قليلة بالنسبة إلى يوم القيامة فكيف بما بعده[1]؟ والإنسان لابد أن يموت سواء كان صالحا أو طالحا، والمرء مجزى بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، والجزاء ليس في الدنيا إنما الجزاء في الآخرة. "وإنما توفون أجوركم يوم القيامة". ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ تختبرُن ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالفرائض والجوائح ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالعبادات والبلاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ من العرب ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ من السب والطعن والتشبيب بنسائكم ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ على ذلك ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ من معزوماتها التي يعزم عليها لوجوبها ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ﴾ العهد عليهم في التوراة ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ أي الكتاب ﴿لِلنَّاسِ

1- انظرها في روح البيان ج2/ 158.

وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ أي الكتاب ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ طرحوا الميثاق ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فلم يعملوا به ولم يعلّموه ﴿وَاشْتَرَوْاْ بِهِ﴾ أخذوا بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الدنيا من سفلتهم برئاستهم في العلم فكتموه خوف فوته عليهم، وهو نعت النبي صلى الله عليه وسلم وآية الرجم ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ شراؤهم هذا. لما وصف الدنيا أنّها متاع الغرور وجب على العاقل أن يزهد في الدنيا، والزهد في الدنيا على مراتب: زهد فرض، وزهد سلامة، وزهد فضلٌ، من زهد في الحرام هذا الزهد فرضٌ، فرض على كل مكلف أن يزهد في الحرام، وزهد السلامة من زهد في الشبهات (الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه)[1] الزهد في الشبهات زهد سلامة، والزهد في الحلال هو زهد فضل، من زهد حتى في الحلال ذلك هو الزهد الذي له فضل. ﴿لاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ﴾ فعلوا من إضلال الناس ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ من التمسك بالحق وهم على ضلال ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بالوجهين تأكيد ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بمكان ينجون فيه ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ في الآخرة بل هم في مكان يعذبون

---

1 – عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم. صحيح البخاري: كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه (52). صحيح مسلم: كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال وترك الشبهات (2996).

فيه وهو جهنم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم فيها، لا تجد أهل الضلالة إلا ويحبون أن يحمدوا بالفضائل والصفات الكاملة، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، والناس عند المدح على ثلاثة أقسام: عامة وخاصة وخاصة خاصة، العامة يضر بهم المدح، فلذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم إنك إن مدحت أخاك فقد ذبحته[1]، وذلك في حق من إذا مدح نسي ما يعلم في نفسه من النقائص وتعلق بمدح المادحين، ومثاله كمن يقال له إن لما يخرج منك من الغائط رائحة طيبة، فتعلق بما سمع وترك ما يعرف، من إذا مدح تكبر بالمدح ونسي ما فيه من الصفات الخبيثة والنقائص ذلك هو الذي يذبحه المدح، ومنهم خاصةٌ إذا مُدحوا رجعوا إلى الله تبارك وتعالى بالاستغفار والتواضع، كما كان يفعل سيدنا علي بن أبي طالب أو أبو بكر فكان يقول إذا مُدِح: رب اجعلني فوق ما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون[2]، هذا لا يضره المدح. ومنهم كمّل خواص الخواص يسمعون المدح من الله تبارك وتعالى على كل حال، المدح لولا أنه صادر من الله لما وقع، فالكمل يفرحون بكل مدح في حقهم لشهودهم ذلك من الحق تبارك وتعالى أولئك أيضا لا يضرهم المدح. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومنه تعذيب الكافرين وإنجاء المؤمنين ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما فيهما من العجائب ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالمجيء والذهاب والزيادة والنقصان ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات على قدرته

1- قال صلى الله عليه وسلم (إياكم والتمادح فإنه الذبح) رواه ابن ماجه في سننه عن معاوية: كتاب الأدب/ باب المدح (3733).

2- قال صاحب كتاب (من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم) عند قوله تعالى "فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى": ولهذا كان أبو بكر الصديق - وهو من هو - إذا مدح يقول: اللهم اجعلني خيرا مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون. ج588/2.

تعالى ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ هذه الآية نزلت بعد آيات سورة البقرة تلك ثمان آيات، وهذه ثلاث آيات اختصرها لأنّها تقدمت، من تفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار علم قدرة الله تبارك وتعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ أولوا الألباب الذين يذكرون الله في كل أحوالهم قياما وقعودا ومضجعين، أي في كل حال، وعن ابن عباس يصلون كذلك ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ليستدلوا به على قدرة صانعها. ورد في الحديث (تفكر ساعة خير من عبادة سنة)[1] التفكر خير من العبادة لأن العبادة عمل الجوارح والتفكر عمل القلب ولأن العبادة من العبد والتفكر من الله تبارك وتعالى، يوجد أناس يعبدون الله تبارك وتعالى بالتفكر، يقطعون الليل كله ما يصلون ركعة بل عبادتُهم التفكر. كان الشافعي رضي الله عنه من الصالحين الكبار كما علمتم وكان أبو حنيفة يثني عليه خيرا ويتحدث بمناقبه دائما وعنده بنت صالحة، وأبو حنيفة كان يصلي نصف الليل وينام نصف الليل فمر بجماعة فقالوا: هذا الرجل يصلي الليل كله، فقال إنه يستحيي أن يقال فيه من المدح ما ليس فيه فصار يصلي الليل كله، فأتى الشافعي ضيفا عند أبي حنيفة، ولأبي حنيفة بنت طالما سمعت من أبيها الثناء العطر على الشافعي، فلما جن الليل استأذنت أباها أن تبيت قريبا من البيت الذي يبيت فيه الشافعي لترى عمله في الليل لتقتدي به، فباتت قريبا من الشافعي، فلما أصبحت رجعت إلى أبيها فقالت له: بئس الرجل الذي كنت تثني عليه أكل كثيرا وشرب كثيرا ونام الليل كله وصلى الصبح بغير وضوء، فسمع

1- قال صلى الله عليه وسلم (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وقال صلى الله عليه وسلم: (لا عبادة كتفكر) أوردهما القرطبي ج4/ 314

الشافعي كلامها فضحك منها فقال إنه لم ينم، بات يتفكر حتى استخرج مائة مسألة من الفقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا عمير ما فعل النغير)[1] فعلموا أنه ممن يعبد الله بالتفكر. دخل جماعة من الصحابة على عائشة رضي الله عنها يتقدمهم عبد الله بن عمر فسلموا على عائشة، قالت: من القوم؟ قالوا: جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا عبد الله بن عمر. قالت: عبد الله بن عمر ما لَكَ لا تزورنا كثيرا؟ قال لها: الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (زر غبا تزدد حبا)[2] ولكن دعينا من هذا كلا جئنا لنسألك عن أعجب شيء رأيته في رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسلت دموعها وقالت: كل أحواله عجب ولكن أعجب ما رأيت منه صلى الله عليه وسلم أنه دخل علي ذات ليلة في نوبتي فلما قرب مني قال لي: يا عائشة أتأذنين لي في عبادة الله تبارك وتعالى؟ قلت له: والله أنا لا أحب الآن إلا القرب منكَ ولكن أذنت لك، فتوضأ ووقف يبكي يبكي حتى وصلت دموعه إلى منحره فجلس واضطجع على خده يبكي حتى وصلت دموعه إلى الأرض فدخل بلال يؤذنه بالفجر ورأى ما به فقال: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: (أفلا

---

1 - عن أنس بن مالك رضي الله عنه (إن كان النبي صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير يا أبا عمير ما فعل النغير) متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب الانبساط إلى الناس (6129) صحيح مسلم: كتاب الآداب/ باب استحباب تحنيك المولود (4003).

2 - رواه عن أبي هريرة الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم. حديث حسن. الجامع الصغير للسيوطي رقم (4055).

أكون عبدا شكورا)؟[1] كيف لا أفعل وقد أنزل علي الليلة هذه الآية "ويتفكرون في خلق السماوات والأرض"[2]. تفكر العامة أن يتفكروا في خلق الله تبارك وتعالى ليستدلوا بِه على الخالق. وتفكر الخواص في ذات الله تبارك وتعالى، أما التفكر في ذات الله فحرام على العامة لأنّهم لا يقدرون أن يكيفوا ذات الله تبارك وتعالى التي ليس لها أين ولا كيف ولا قدم ولا رأس ولا يدان، إذا تفكر عامي في هذا يجعل مولانا كبطيخة فقط فيقع فيما لا يحمد. أما الخواص فلهم التفكر في ذات الله تبارك وتعالى فلهذا ورد: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وورد تفكر ساعة خير من عبادة سبع سنين، وورد تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة[3].. لكل مقام مقال ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ هذا الخلق الذي نراه إنما خلقته ليدل على كمال قدرتك لا عبثا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أهنته ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ يمنعونهم من عذاب الله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أي إليه وهو محمد صلى الله عليه وسلم أو القرآن ﴿أَنْ﴾ بأن ﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ طلبوا المغفرة من الله تبارك وتعالى ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فلا تظهرها

1- عن المغيرة بن شعبة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حتى انتفخت قدماه فقيل له أتَكَلَّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أفلا أكون عبدا شكورا). صحيح مسلم واللفظ له: كتاب صفة القيامة والجنة والنار/ باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (5044). صحيح البخاري: كتاب الرقاق/ باب الصبر عن محارم الله (6471).

2- أوردها ابن كثير في تفسيره ج441/1.

3- (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) سبق تخريجه عن القرطبي ج314/4. (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) ذكره القاسمي في تفسيره محاسن التأويل ج11/ 4098.

بالعقاب عليها ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ تقبض أرواحنا مع الأبرار الأنبياء والصالحين ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ على ألسنة رسلك من الرحمة والفضل، وسؤالهم ذلك - وإن كان وعده تعالى لا يخلف - سؤال أن يجعلهم من مستحقيه لأنّهم لم يتيقنوا استحقاقهم له، وتكرير ربنا مبالغة في التضرع ﴿وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وصف الذاكرين الله تبارك وتعالى بأنّهم يكثرون من الدعاء ويذكرون الله تبارك وتعالى. وذِكر اللَّهِ تبارك وتعالى في البداية باللسان ثم بالقلب ثم بالروح، بذكر اللسان يجد الفناء في الأفعال، وبذكر القلب يجد الفناء في الصفات، وبذكر الروح يجد الفناء الكلي يفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء. والذكر له قشر ولب ولب لبٍّ، فالعامة لهم القشر والخاصة لهم اللب، وخاصة الخاصة لهم لب اللب، لب اللب هو الزيت. على كل حال لابد من الإكثار من ذكر الله تبارك وتعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دعاءهم ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة شكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: مالي لا أسمع ذكر النساء في الهجرة والجهاد في شيء؟ فقال: «لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض»[1] الذكور من الإناث والإناث من الذكور، إذاً كل ما ذكر الله تبارك وتعالى في حق الرجال فقد ذكره في حق النساء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ ديني ﴿وَقَاتَلُواْ﴾ الكفار ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استشهدوا ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أسترها بالمغفرة ﴿وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا﴾ جزاء ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تبارك وتعالى ﴿وَاللَّهُ

1 - ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ج198/1.

بالعقاب عليها ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ تقبض أرواحنا مع الأبرار الأنبياء والصالحين ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ على ألسنة رسلك من الرحمة والفضل، وسؤالهم ذلك - وإن كان وعده تعالى لا يخلف - سؤال أن يجعلهم من مستحقيه لأنّهم لم يتيقنوا استحقاقهم له، وتكرير ربنا مبالغة في التضرع ﴿وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ وصف الذاكرين الله تبارك وتعالى بأنَّهم يكثرون من الدعاء ويذكرون الله تبارك وتعالى. وذِكر اللَّهِ تبارك وتعالى في البداية باللسان ثم بالقلب ثم بالروح، بذكر اللسان يجد الفناء في الأفعال، وبذكر القلب يجد الفناء في الصفات، وبذكر الروح يجد الفناء الكلي يفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء. والذكر له قشر ولب ولب لبٍّ، فالعامة لهم القشر والخاصة لهم اللب، وخاصة الخاصة لهم لب اللب، لب اللب هو الزيت. على كل حال لابد من الإكثار من ذكر الله تبارك وتعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دعاءهم ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة شكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: مالي لا أسمع ذكر النساء في الهجرة والجهاد في شيء؟ فقال: «لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض»[1] الذكور من الإناث والإناث من الذكور، إذاً كل ما ذكر الله تبارك وتعالى في حق الرجال فقد ذكره في حق النساء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ من مكة إلى المدينة ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ ديني ﴿وَقَاتَلُواْ﴾ الكفار ﴿وَقُتِلُواْ﴾ استشهدوا ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أسترها بالمغفرة ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا﴾ جزاء ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تبارك وتعالى ﴿وَاللَّهُ

1 - ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ج198/1.

عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ الجزاء. أهل الجنة الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وهم المهاجرون وأوذوا في سبيلي آذاهم الكفار مع الرسول صلى الله عليه وسلم، والرسول يقول: (ما أوذي نبي مثلما أوذيت)[1] ومعنى ذلك: ما صفا نبي مثلما صفيت، (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)[2] أهل الصفاء مع الله تبارك وتعالى لابد لهم من جيران يؤذونَهم لابد أن يجدوا الإذاية ممن عرفوا وممن لم يعرفوا، لأن ذلك هو الذي يصفيهم، الإنسان بطبعه يحب جنسه وقرابته فإذاً إن لم يجد ما يزعجه عن هؤلاء بقي يحبهم أو بقي يقسم لهم قسما وافرا من قلبه، والله يحب أن ينفرد بقلب العبد، فإذاً يصدر له الإذاية من كل جانب، من كل قريب من زوجة، من ولد، من أخ، من كل من يظن ومن كل من لا يظن فيرتحل قلبه ويعلم أن العبد ليس له إلا الله فيفر إلى الله تبارك وتعالى برفض كل ما سواه، وإذا استكمله حتى استخلصه رجعه إليهم لينفعهم ولا يتأذى بإذايتهم لا يحس بِها. من أحب الجنة فعليه بخمسة أشياء: لا بد أن يترك هوى النفس "فأما من خاف مقام ربه ونَهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى"، إذاً من خالف هوى نفسه فهو من أهل الجنة؛ وأن يترك الدنيا ويشتغل بطاعة الله تبارك وتعالى، وورد في الحديث (ثمن الجنة

---

1 - (ما أوذي أحد ما أوذيت) ابن عساكر عن جابر. الجامع الصغير رقم 7852 .

- (ما أوذي أحد ما أوذيت في الله) لابن نعيم في الحلية عن أنس. الجامع الصغير 7853.

2 - (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة). سنن الترمذي: كتاب الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء (2322) وفي سنن ابن ماجه عن سعد بن أبي وقاص كتاب الفتن/ باب الصبر على البلاء (4013) وهو عند البخاري في صحيحه عنوان باب من كتاب المرضى بلفظ باب: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

ترك الدنيا) هما ضرتان من مال إلى واحدة منهما غضبت الأخرى، إذاً من أحب الآخرة ترك الدنيا[1]، والنفس تدعي أنّها تقدر أن تباشر الدنيا وتتناول شهواتِها ولا يمنعها ذلك من العمل للآخرة، وذلك من غرورها فقط، ثمن الجنة ترك الدنيا؛ والثالث المداومة على العمل للآخرة "تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون"؛ الرابع: لابد من حب الصالحين ومصاحبتهم (المرء مع من أحب)[2] فإنّهم عندما وقفوا بين يدي ربهم يشفعون في إخوانِهم وأحبابِهم وأصدقائهم. ولابد من الدعاء طلب الجنة من الله تبارك وتعالى، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: العبد إذا قال: يا رب أدخلني الجنة، يا رب أدخلني الجنة يا رب أدخلني الجنة، ثلاث مرات، تقول الجنة: يا رب أدخله الجنة فيدخل الجنة، وإذا قال العبد: يا رب أجرني من النار يا رب أجرني من النار يا رب أجرني من النار، تقول النار: يا رب أجره من النار، فيجيره الله تبارك وتعالى[3]، إذاً من أحب الجنة فعليه بِهذه الخصال الخمس: مخالفة الهوى وترك الدنيا، وحب الصالحين، والعمل للآخرة، والدعاء — كثرة الدعاء يطلب الله تبارك وتعالى أن يعطيه الجنة «والله عنده حسن الثواب» ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ﴾ لما قال المسلمون: أعداء الله في ما نرى من

1- جاء في سنن الترمذي (ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا) طرف من حديث عن ابن مسعود. سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع/ (2382).

2- متفق عليه عن عبد الله بن مسعود. صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب علامة حب الله عز وجل (6168)، صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب/ باب المرء مع من أحب (4779).

3- (من سأل الجنة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار) سنن الترمذي: كتاب صفة الجنة/ باب ما جاء في صفة أنْهار الجنة (2495). ورواه النسائي وابن ماجه وأحمد، وفي الجامع الصغير برقم 8728.

الخير ونحن في الجهد، المسلمون هم أحباب الله وهم في تعب دائما، وأعداء الله الفراعنة والفسقة والفجار عندهم من الدنيا ما لا حصر له، ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تصرفهم ﴿فِي الْبِلاَدِ﴾ بالتجارة والكسب ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يتمتعون به يسيرا في الدنيا ويفنى ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الفراش، فليس خير بعده النار بخير وليس شر بعده الجنة بشر؛ (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)[1] لقلة الدنيا وحقارتها عند الله تبارك وتعالى ساقها الله إلى كل فرعون وإلى كل نمرود وإلى كل فاسق وحمى عنها كل مؤمن تقي وكل عالم وكل ولي ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿نُزُلاً﴾ هو ما يعد للضيف ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من الثواب ﴿خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ﴾ من متاع الدنيا، ما عند الله من الثواب خير للأبرار ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ كعبد الله بن سلام ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ التوراة والإنجيل ﴿خَاشِعِينَ﴾ متواضعين ﴿لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ التي عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الدنيا بأن يكتموها خوفا على الرئاسة كفعل غيرهم من اليهود ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثواب أعمالهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب الخلق في قدر نصف نَهار من أيام الدنيا[2]. توجه ولي من الأولياء إلى حمّام، قيل له: ما

---

1 - (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) سنن الترمذي: كتاب الزهد/ باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل (2242). وورد بلفظ (... ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة أبدا) في سنن ابن ماجه: كتاب الزهد/ باب مثل الدنيا (4100).

2 - (يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر) للحاكم عن أبي هريرة

تريد؟ قال: أريد أن أدخل الحمام لأغتسل فيه، قال له صاحب الحمام: لا يدخل إلا بأجرة، فانصرف وهو يبكي، قالوا: هذا شيخ كبير منع من الحمام فصار يبكي فقط، قال: لا لم أبك لأنني منعت من الحمام، ولكن إن كان الحمام الذي هو بيت الشيطان لا يدخل إلا بأجرة فكيف أدخل حضرة الله تبارك وتعالى إلا بعمل؟[1] وكان واحد من الصالحين اتسخ ثوبه ولم يغسله، مدة حياته ما غسل ثوبه، قال له أحد: ثوبك وسخ لا بأس أن تغسله، قال: إذا غسلته يتسخ مرة ثانية، قال: تغسله أيضا، قال: فيتسخ مرة ثالثة، قال تغسله أيضا. قال: إن الله ما خلقني لأشتغل بغسل الثياب إنما خلقني لعبادته تبارك وتعالى. وكان واحد من الصالحين ولي يقال له الحداد يمسك النار بيده ولا تضره، سئل عن ذلك فقال إنه تعلق بامرأة فراودها فامتنعت قالت: إن لي زوجا، فمكث مدة فمات زوجها فطلب أن يتزوجها فامتنعت قالت: لا أُأَيِّم أولادي بل أصون أولادي، وبعد زمان افتقرت المرأة واحتاجت فأتت إليه تطلب منه شيئا تأكله هي وأولادها، فقال لها: لا أعطيك إلا إذا وافقتني فيما طلبتُ منكِ قبل، قالت: نعم. فخلا بِها، دفع لها المال وتضرعت إلى الله تبارك وتعالى، وقالت له إنه يتركها لوجه الله تبارك وتعالى، فقال: تركتك لوجه الله، فقالت له: نجاك الله من النار. قال: منذ ذلك اليوم نار الدنيا لا تحرقني وأرجو أن نار الآخرة كذلك لا تحرقني. وشاب آخر رأته امرأة جميلة فحاولته فامتنع، فزينت بيتها بأنواع الزخارف وطيبته وأرسلت عجوزا إلى الشاب فدعته فاستجاب للدعوة ودخل البيت ورأى ما فيه من الزخارف وأنواع الطيب، فأغلقت المرأة الباب وراودته عن نفسه، فقال الشاب أنا الآن محتاج للتغوط، حتى

1- ذكره في روح البيان عن إبراهيم بن أدهم ج10/ ص12

أدخُل بيت الخلاء، فدخل بيت الخلاء وتغوط وتلطخ بالغائط، ولما خرج متلطخا بالغائط قالت المرأة: هذا مجنون فدفعته فقط فخرج من بيتها، فأتاه جبريل فقال له: أنت يوسف؟ فتحول الغائط طيبا فصار يفوح منه رائحة المسك مدة حياته بتلك الفعلة[1] ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اصْبِرُواْ﴾ على الطاعات والمصائب وعن المعاصي ﴿وَصَابِرُواْ﴾ الكفار فلا يكونوا أشد صبرا منكم ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أقيموا على الجهاد ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بالجنة وتنجون من النار. جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أنا أصلي خمس صلوات في اليوم والليلة ولا أزيد عليها، وأصوم رمضان ولا أزيد على ذلك، الزكاة ليست عليَّ أنا فقير، والحج ليس عليّ أنا ضعيف، في أي دار أسكن في الجنة؟ فضحك الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له: إذا حفظت عينيك عن اثنين ولسانك عن اثنين وقلبك عن اثنين فأنت معي في الجنة. إذا حفظت عينيك من النظر إلى الحرام والنظر إلى الإنسان بعين الاحتقار، وحفظت لسانك من الغيبة والكذب، وحفظت قلبك من الغل والحسد فأنت معي في الجنة[2]. «اصبروا وصابروا ورابطوا» يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بما يكفر عنكم سيئاتكم ويرفع درجاتكم إسباغ الوضوء في المكاره، وكثرة الخطى إلى

---

[1]- راجع روح البيان ج274/4.

[2]- جاء في تفسير روح البيان ما نصه: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني أصوم شهر رمضان وأصلي كل يوم خمس صلوات ولا أزيد على هذا لأني فقير ليس علي زكاة ولا حج، فإذا قامت القيامة ففي أي دار أكون أنا؟ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: إذا حفظت عينيك عن اثنين عن النظر إلى المحرمات والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار، وحفظت قلبك عن اثنين عن الغل والحسد، وحفظت لسانك عن اثنين عن الكذب والغيبة، تكون معي في الجنة. روح البيان ج2/ 159.

المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط)[1].

سورة النساء

مدنية مائة وخمس أو ست وسبعون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أهل مكة ﴿اتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ عقابه بأن تطيعوه ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حواء بالمد من ضلع من أضلاعه اليسرى ﴿وَبَثَّ﴾ فرّق ونشر ﴿مِنْهُمَا﴾ من آدم وحواء ﴿رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الله خلق آدم بيده وخلق حواء من ضلعه اليسرى، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء كثيرة كذلك، بحذف النعت إشارة إلى أن النساء حقهن التستر. «رجالا» أتى بالوصف «كثيرا» «ونساء» ستر الوصف ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَّاءَلُونَ بِهِ﴾ اتقوا الله الذي تساءلون به: إذا سألت أخاك تقول له أعطني لله، أناشدك الله، بحق الله، فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض أسألك بالله وأنشدك بالله ﴿وَ﴾ اتقوا ﴿الْأَرْحَامَ﴾ أن تقطعوها، وكانوا يتناشدون بالرحم أيضا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ حافظا لأعمالكم ومجازيكم بها، أي لم يزل متصفا بذلك.

1 – عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا بلى يا رسول الله قال إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط) صحيح مسلم: كتاب الطهارة/ باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (369) وفي رواية (فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط) موطأ مالك: كتاب النداء للصلاة/ باب انتظار الصلاة والمشي إليها (348).

أرشدنا في هذه الآية إلى التقوى وصلة الرحم. الرحِم مشتقة من الرحمن، يقول الحق: فمن وصلك وصلته ومن قطعك قطعته[2]. وتقوى الله حيث ذكر امتثال الأمر واجتناب النهي، وصلة الرحم الناس مختلفون في ذلك: منهم غني صلة رحمه بالصلة بالمال التحفة على قدر سعته، ومن لم يقدر أن يتحف بشيء من المال، الخدمة والزيارة والمواصلة، حتى المراسلة بالكتابة كل هذا داخل في صلة الرحم. ورد في الحديث أن الإنسان يبقى من عمره ثلاثة أيام فإذا وصل رحمه أبقاه الله ثلاثين عاما، ويبقى من عمره ثلاثون عاما، فيقطع رحمه فيصير إلى ثلاثة أيام، فلهذا قطع الرحم ربما يتسبب في قصر الأعمار[3]، وهذا في حق ما في ألواح المحو، أما ما في أم الكتاب فلا يتبدل. «إن الله كان عليكم رقيبا» حافظا لأعمالكم ﴿وَءَاتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ نزلت هذه الآية في يتيم طلب من وليه ماله فمنعه، فقال تعالى «وآتوا اليتامى» الصغار الذين لا آباء لهم «أموالهم» إذا بلغوا ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ﴾ الحرام ﴿بالطَّيِّبِ﴾ الحلال لا تأكل مال اليتيم مع مالك، ذلك خلط الجيد بالرديء ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ﴾ مضمومة ﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ﴾ أكل أموال اليتامى ﴿كَانَ حُوبًا﴾ ذنبا ﴿كَبِيرًا﴾ عظيما. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ﴾ نزلت هذه الآية لما تحرجوا من

---

2 - (إن الرحم شجنة من الرحمن فقال الله من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته) عن أبي هريرة وعن عائشة رضي الله عنهما. صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب من وصل وصله الله (5988) ولمسلم برواية أخرى عن أبي هريرة في كتاب البر والصلة والآداب/ باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (4634).

3- جاء في صحيح البخاري من هذا المعنى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه) صحيح البخاري: كتاب الأدب/ باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (5985). ومعنى قوله ينسأ له في أثره أي يزاد له في عمره حسب شراح الحديث.

ولاية اليتامى وكان فيهم من تحته العشر أو الثمان من الأزواج فلا يعدل بينهن. كان واحد عنده ثمان من اليتامى يتزوجهن لأنه لا كلفة له بتزويجهن ولا يعطيهن حقهن لا في المال ولا في القسم، وهذا جور فقال تعالى «وإن خفتم ألا تقسطوا» ألا تعدلوا ﴿فِي الْيَتَامَى﴾ فتحرجتم من أمرهم فخافوا أيضا ألا تعدلوا بين النساء إذا نكحتموهن ﴿فَانكِحُواْ﴾ تزوجوا ﴿مَا﴾ مَن ﴿طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ إذا لا تتزوج اليتامى اللاتي لا رغبة لك فيهن بل تزوج ما طاب لك من النساء ﴿مَثْنَى﴾ إن شئت تزوج اثنتين اثنتين ﴿وَثُلاَثَ﴾ ثلاثا ثلاثا ﴿وَرُبَاعَ﴾ أربعا أربعا ولا تزيدوا على ذلك. يجوز للمرء أن يتزوج واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ﴾ هذا بشرط العدل، فإن خفت من غير العدل ﴿فَوَاحِدَةً﴾ انكحوها ﴿أَوْ﴾ اقتصروا على ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإماء إذ ليس لهن من الحقوق ما للزوجات ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ أقرب ﴿أَلاَّ تَعُولُواْ﴾ تجوروا ﴿وَءَاتُواْ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ﴾ جمع صدقة مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ عطاء عطية عن طيب نفس، كانوا يتزوجون النساء ولا يدفعون لهن المهور، وكن يزوجن بناتهن ويأكلن ما سيق إليهن من المهر ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ تمييز ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا﴾ طيبا ﴿مَرِيئًا﴾ محمود العاقبة لا ضرر لكم فيه في الآخرة ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ﴾ أيها الأولياء ﴿السُّفَهَاءَ﴾ المبذرين من الرجال والنساء والصبيان ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ أي أموالهم. اليتيم ما دام لم يبلغ رشدا يصلح للتصرف في ماله، ما دام سفيها لا تدفع إليه المال. أضاف أموال اليتامى إلى الأولياء لتأكد رعايتها ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ ما تقوم به ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أطعموهم منها ﴿وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ عِدوهم عِدة جميلة بإعطائهم أموالهم إذا رشدوا ﴿وَابْتَلُواْ﴾ اختبروا ﴿الْيَتَامَى﴾ قبل البلوغ أو بعد البلوغ في دينهم وتصرفهم في أحوالهم ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ﴾

صاروا أهلا له بالاحتلام أو السن وهو استكمال خمس عشرة سنة هذا مذهب الشافعي، أو ثمانية عشر عاما في مذهب مالك أو بلغوا الحلم ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ أبصرتم ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ صلاحا في دينهم ومالهم ﴿فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا﴾ أيها الأولياء ﴿إِسْرَافًا﴾ بغير حق ﴿وَبِدَارًا﴾ مبادرين إلى إنفاقها مخافة ﴿أَنْ يَّكْبَرُواْ﴾ رشدا فيلزمكم تسليمها إليهم؛ {..}[1] ﴿وَمَن كَانَ﴾ من الأولياء ﴿غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ يعفّ عن مال اليتيم ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بقدر أجرة عمله ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى اليتامى ﴿أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ أنّهم تسلموها ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ حافظا لأعمال خلقه ومحاسبهم. ونزل ردا لما كان عليه الجاهلية من عدم توريث النساء والصغار ﴿لِلرِّجَالِ﴾ الأولاد والأقرباء ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ المتوفون ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ المال ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ جعله الله ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعا بتسليمه إليهم ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الميراث ﴿أُوْلُواْ الْقُرْبَى﴾ ذووا القرابة ممن لا يرث ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ شيئا قبل القسمة ﴿وَقُولُواْ﴾ أيها الأولياء ﴿لَهُمْ﴾ إذا كان الورثة صغارا ﴿قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ جميلا بأن تعتذروا إليهم أنكم لا تملكونه وأنه لصغار، وهذا قيل إنه منسوخ وقيل لا، ولكن تَهاون الناس في تركه وعليه فهو ندب وعن ابن عباس واجب[2] ﴿وَلْيَخْشَ﴾ يخف على

---

1 – هنا حذر الشيخ من الكلام أثناء التفسير في المسجد فقال: أنصتوا، أنصتن، اتركوا الكلامَ، الكلام في المسجد وفي القرآن ممنوع.

2– جاء في تفسير القرطبي ما نصه: قال سعيد بن المسيب: نسخها آية الميراث والوصية، وممن قال إنها منسوخة أبو مالك وعكرمة والضحاك، وقال ابن جبير: ضيع الناس هذه الآية، قال الحسن ولكن الناس شحوا. القرطبي 49/5. وفي البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى "وإذا حضر القسمة أولوا القربى

اليتامى ﴿الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ﴾ أي قاربوا أن يتركوا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بعد موتهم ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾ أولادا صغارا ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ الضياع، الأولياء يخافون أنّهم سيموتون ويبقى أولادهم صغارا ﴿فَلْيَتَّقُواْ اللَّهَ﴾ في أمر اليتامى وليأتوا إليهم ما يحبون أن يفعل بذريتهم من بعدهم ﴿وَلْيَقُولُواْ﴾ لمن حضرته الوفاة ﴿قَوْلاً سَدِيدًا﴾ صوابا بأن يأمروه أن يتصدق بدون ثلثه ويدع الباقي لورثته ولا يتركهم عالة[1]. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ بغير حق ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ مثلها ﴿نَارًا﴾ لأنه يؤول إليها ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾ يدخلون ﴿سَعِيرًا﴾ نارا شديدة يحترقون فيها. قال الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به أنه صلى الله عليه وسلم مر بخلق رجال كل منهم له مشفر كمشفر البعير ويلقمون الجمرات من النار فتخرج من أدبارهم فقال من هؤلاء؟ قال: هؤلاء أكلة أموال اليتامى[2].

واليتامى والمساكين قال: هي محكمة وليست بمنسوخة. صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن /باب إذا حضر القسمة أولو القربى (4576) وفي رواية: إن ناسا يزعمون أن هذه الآية نسخت لا والله ما نسخت ولكنها مما تهاون الناس بها. صحيح البخاري: كتاب الوصايا/ باب قول الله تعالى "وإذا حضر القسمة أولوا القربى" (2759).

1 – يدل عليه حديث سعد بن أبي وقاص كما في الصحيحين: قلت يا رسول الله أوصي بمالي كله؟ قال: لا، قلت: فالشطر؟ قال لا، قلت الثلث؟ قال: فالثلث والثلث كثير إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم. صحيح البخاري: كتاب الوصايا/ باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (2742) وفي صحيح مسلم: كتاب الوصية/ باب الوصية بالثلث (3076).

2 – عن أبي سعيد الخدري قال قلنا يا رسول الله ما رأيت ليلة أسري بك؟ قال انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير وهو موكل بهم رجال يفكون لحاء أحدهم ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف في في أحدهم حتى يخرج من أسفله ولهم جؤار وصراخ قلت: يا جبريل من

صدر هذه السورة يتكلم في الأجوفين البطن والفرج، وهما أكثر ما يُدخِل الناس النار. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)[1] أي اللسان والفرج. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (اضمنوا لي ستا أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وإذا وعدتم فلا تخلفوا، وإذا ائتمنتم فلا تخونوا، واحفظوا أيديكم وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم وادخلوا الجنة بسلام)[2]. دخل عمر على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يجذب لسانه ويضربه، قال له عمر: مهلا يا أبا بكر غفر الله لك. قال: إن هذا أوردني الموارد وأدخلني النار[3]، فأتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل رجل: هل يؤاخذنا

هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا. تفسير ابن كثير ج1/ 457.

1 – جاء في صحيح البخاري عن سهل بن سعد: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة) وفي رواية من توكل. كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان (6474) وفي سنن الترمذي: عن أبي هريرة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة) سنن الترمذي: كتاب الزهد/ باب ما جاء في حفظ اللسان (2333).

2 – أخرج أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة اصدقوا إذا حدثتم وأوفوا إذا وعدتم وأدوا إذا اؤتمنتم واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم) مسند أحمد: مسند الأنصار/ مسند عبادة بن الصامت (21695) وأورده السيوطي في الجامع الصغير بلفظ (تقبلوا لي بست أتقبل لكم بالجنة، إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يخن، غضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم) الجامع الصغير رقم الحديث 3350.

3– جاء في موطأ مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق وهو يجبذ لسانه فقال له عمر: مه غفر الله لك، فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد. موطأ مالك: كتاب الجامع/ باب ما جاء فيما يخاف من اللسان (1567).

الله بما نقول؟ قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (ثكلتك أمك وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟)[1] (من وقي شر لقلقه وذبذبه وقبقبه فقد وقي الشر كله)[2]، من وقي شر ما بين لحييه ورجليه فقد وقي الشر كله.

أرأيت صدر هذه السورة وهي سورة النساء كلها يتكلم في الأجوفين - البطن والفرج - قال الرسول صلى الله عليه وسلم: دخلت الجنة فوجدت أكثر أهلها المساكين ودخلت النار فوجدت أكثر أهلها النساء[3] لأنّهن يكثرن اللعنة ويكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن مدة طويلة ثم رأت منك ما يسوءها تقول والله ما رأيت منك خيرا قط[4]. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أهل النار

1- أخرج أحمد في مسنده عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم) مسند أحمد: مسند الأنصار/ حديث معاذ بن جبل (21051). وهو عند الترمذي طرف من حديث عن معاذ. سنن الترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة (2541).

2 - (من وقي شر لقلقه وقبقبه وذبذبه وجبت له الجنة) البيهقي في شعب الإيمان عن أنس. الجامع الصغير ج2/ رقم 9083. وأورده ابن قتيبة في غريب الحديث بلفظ " من وقي شر لقلقه وشر قبقبه وشر ذبذبه فقد وقي" غريب الحديث ج1/170.

3- ورد في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء) متفق عليه. صحيح البخاري عن عمران: كتاب الرقاق/ باب صفة الجنة والنار (6546)، صحيح مسلم عن ابن عباس: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/ باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء (4920).

4- جاء في صحيح البخاري: عن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت ما رأيت منك خيرا قط) كتاب الإيمان/ باب كفران العشير وكفر دون كفر (29).

لم أرهما رجال بأيديهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسافة خمسمائة سنة)[1] أكثر أهل النار النساء وأكثر ما يُدخِل الرجالَ النارَ أيضا النساءُ.

«وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا» ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ يأمركم الله ﴿فِي﴾ شأن ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ .بما يذكر ﴿لِلذَّكَرِ﴾ منهم ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ إذا اجتمعتا معه فله نصف المال ولهما النصف. هلك هالك وترك ثلاثة أولاد ذكرا وبنتين، يقسم المال نصفين نصف للذكر والنصف الباقي يقسم بين البنتين ﴿فَإِن كُنَّ﴾ أي الأولاد ﴿نِسَاءً﴾ فقط ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ أي اثنتين فما فوقهما ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ الميت ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ المولودة ﴿وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أبوي الميت الأب والأم ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ إن كان المتوفى ترك ولدا فالأبوان لهما السدس ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ فقط أو مع زوج ﴿فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ ثلث المال ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أي اثنان فصاعدا ذكورا أو إناثا ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾

1- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رءوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) صحيح مسلم: كتاب اللباس والزينة/ باب النساء الكاسيات العاريات.. (3971). وفي رواية مالك في الموطأ عن أبي هريرة أنه قال نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وريحها يوجد من مسيرة خمس مائة عام. الموطأ: كتاب الجامع/ باب ما يكره للنساء لبسه من الثياب (1421).

والباقي للأب ولا شيء للإخوة ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ في الدنيا والآخرة. الأب لا يحجبه الابن والابن لا يحجبه الأب، لأن الحكمة في الميراث أن من انتفع ولي بماله دخل الجنة والمتوفى عنه لم يُدر أي ورثته هم الأولياء هل الأب أم الابن، فلهذا ثبت للأب نصيب وللابن نصيب ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبره. مسائل الفرائض ما وكل الله عليها نبيا ولا ملَكا، تولى قسمة الميراث وذلك لشح الناس وحرصهم على المال، فلو كان الرسول هو الذي تولى قسمة الميراث لاتُّهم وعودي، ومن أبغضه شقيَ شقاوة لا سعادة بعدها أبدا. ولما كان القسم من الله تبارك وتعالى رضي كل واحد من الورثة «فريضة من الله إن الله كان عليما» بخلقه «حكيما». وهذا هو الميراث الصوري، والميراث الحقيقي يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة)[1] وقال: (العلماء ورثة الأنبياء)[2] إذاً من وُلد ولادة صورية فله نصيبه من الميراث الصوري، ومن ولد ولادة معنوية فله نصيبه من الميراث المعنوي وإليه يشير قول عيسى عليه الصلاة

1- قوله صلى الله عليه وسلم: (لا نورث ما تركناه صدقة) متفق عليه. صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب حديث بني النضير (4034) وأطرافه متعددة. وفي صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير/ باب حكم الفيء (3302).

2- عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر). سنن أبي داود: كتاب العلم/ باب الحث على طلب العلم (3157)، وفي سنن الترمذي: كتاب العلم/ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (2606).

والسلام: (لن يلج الحضرة من لم يولد مرتين)[1] الولادة الحسية والولادة المعنوية. ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالإجماع ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي الزوجات تعددن أو لا ﴿الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ منهن أو من غيرهن ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾ لا ولد له ولا والد هو تفسير الكلالة[2] ﴿أَوِ امْرَأَةٌ﴾ تورث كلالة ﴿وَلَهُ﴾ أي الموروث كلالة ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ من أم وقرأ به ابن مسعود ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ مما ترك ﴿فَإِن كَانُواْ﴾ أي الإخوة والأخوات من الأم ﴿أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ﴾ من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ﴾ يستوي فيه ذكرهم وأنثاهم ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ غير مدخل ضررا على الورثة ﴿وَصِيَّةً﴾ يوصيكم الله وصية ﴿مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما دبره لخلقه من الفرائض ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عمن خالفه. وخصت السنة بتوريث من ذكر ممن ليس فيه مانع من قتل أو اختلاف دين أو رق ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة من أمر اليتامى وما بعده ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ شرائعه التي حدها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿وَمَنْ يُّطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما حكم به ﴿نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَّعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ نُدْخِلْهُ﴾ بالوجهين ﴿نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو

1- أورده إسماعيل حقي في روح البيان بلفظ: (لن يلج ملكوت السماوات والأرض من لم يولد مرتين) ج26/1.

2 - في تفسير روح المعاني: تطلق على من لم يخلف والدا ولا ولدا، وعلى من ليس بوالد ولا ولد. ج358/4

إهانة ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ الزنا ﴿مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ﴾ الرجل إذا ادعى على امرأته الزنا فلا بد أن يقيم أربعة من الرجال المسلمين العدول يشهدون أنّهم شهدوا ذكر الرجل يدخل في فرج المرأة كالمرود في المكحلة ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عليهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ احبسوهن ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾ وامنعوهن من مخالطة الناس، هذا هو حد الزنا في بداية الإسلام، كن يحبسن لا يختلطن بالناس ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ ملائكة الموت ﴿أَوْ﴾ إلى أن ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾ طريقا إلى الخروج منها. هذا في بداية الإسلام، فلما شرع الله الجلد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والمحصنة عليها الرجم) وفي الحديث لما بين الحد قال: خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا[1] ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا﴾ أي الفاحشة الزنا أو اللواط ﴿مِنكُمْ﴾ من الرجال ﴿فَآذُوهُمَا﴾ بالسب والضرب بالنعال ﴿فَإِن تَابَا﴾ منها ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا﴾ ولا تؤذوهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ على من تاب ﴿رَحِيمًا﴾ به وهذا منسوخ بالحد. ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ التي كتب الله على نفسه قبولها بفضله ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ أي المعصية ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي جاهلين إذا عصوا ربّهم ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ﴾ زمن ﴿قَرِيبٍ﴾ أي قبل أن يغرغروا ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يقبل توبتهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الذنوب ﴿حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وأخذ في النزع ﴿قَالَ﴾ عند مشاهدة ما هو فيه ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ فلا ينفعه ذلك ولا يقبل منه

---

1 – (خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم). حديث صحيح. صحيح مسلم: كتاب الحدود/ باب حد الزنا (3199).

﴿وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كذلك من مات قبل التوبة فتوبته غير مقبولة ﴿أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مؤلما ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية ما كانوا يفعلون في الجاهلية، كانوا إذا مات أحدهم جاء قريبه وورث زوجاته فقط فإن شاء تزوجهن بلا صداق، وإن شاء زوجهن وأخذ الصداق، وإذا مات الأب جاء الولد في مكان أبيه ويتزوج بزوجة أبيه، وإلا زوّجها وأخذ المهر فقال تعالى «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ» ﴿أَن تَرِثُواْ النِّسَاءَ﴾ ذوات النساء لا تورث ﴿كَرْهًا﴾ مكرهين على ذلك ﴿وَلاَ﴾ أن ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾ تمنعوا أزواجكم من نكاح غيركم بإمساكهن ولا رغبة لكم فيهن ضررا ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهر ﴿إِلاَّ أَنْ يَّأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ زنا أو نشوز ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإجمال في القول والنفقة والمبيت. من تزوج امرأة عليه شروط النكاح: النفقة والكسوة والسكنى والجماع وحسن العشرة. من ترك واحدا من هذه الخمسة فللزوجة أن تطلق نفسها ولا شيء عليها ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فاصبروا ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إذا تزوج الرجل امرأة ومكث معها، وبعد ذلك كرهها فليصبر على معاشرتها، فإن ذلك الصبر يجد فيه خيرا كثيرا وهو ثواب الله تبارك وتعالى أو يرزقه الله ولدا صالحا فذلك خير كثير. كان واحد من الصالحين تزوج بامرأة سوء، فظلت تؤذيه مدة حياتها حتى ماتت فلما ماتت قال الحمد لله رب العالمين وعزم على أنه مدة حياته لا يتزوج النساء، فلما مكث أياما رأى في المنام أنه في مسجده والملائكة ينزلون ويمرون به وكلما مر به ملك يقول: هذا هو الممقوت؟ قال هذا هو الممقوت، هذا هو الذي خسر؟ هذا هو الذي خسر، ففزع ولكن خاف أن يسألهم فصاروا

يترددون هكذا، فلم يتمالك عن السؤال قال لهم: من هو الخاسر؟ قالوا له: أنت، كان يرفع لك قدر عمل أهل الأرض كل يوم وكل ليلة مدة تزويجك بالمرأة وتؤذيك، ولما ماتت انقطع ذلك صار ليس لك عمل، فاستيقظ فتزوج ثلاثا في اليوم، وصار لا تراه إلا وعنده ثلاث أو أربع[1]، هذا معنى «فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» ما يجده الرجل من الإذاية من ربة البيت له فيه ثواب كثير عند الله، أو الخير الكثير ربما يرزقه الله ولدا صالحا ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ أخذها بدلها بأن طلقتموها ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ الزوجات ﴿قِنطَارًا﴾ مالا كثيرا، إذا عزمت على فراق المرأة وقد أعطيتها كثيرا من الأموال والأثاث ﴿فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لا تأخذ شيئا من المرأة بعد الطلاق ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا﴾ ظلما ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بينا لم تأخذون هذا المال وكان المال مقابل شيء؟ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ بأي وجه ﴿وَقَدْ أَفْضَى﴾ وصل ﴿بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ كان بعض الرجل وصل إلى بعض المرأة بالجماع المقرر للمهر، لما كانت وقعت منه هذا الموقع وذلك سببه المال، كيف تأخذون هذا المال من بعد؟ ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا﴾ عهدا ﴿غَلِيظًا﴾ شديدا وهو ما تراه المرأة من محبة الرجل لها في ذلك الوقت، أو العهد الغليظ الشرط الذي شرط عند العقد، عند عقد النكاح يقال "فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان" هذا شرط، لابد للزوج يرعى هذا الشرط يمسك بمعروف أو يسرح بإحسان ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ﴾ سبب نزول هذه الآية أن رجلا مات فقام ابنه وأتى وجلس جنب زوجته يريد أن يتخذها زوجة بعد أبيه، فأقسمت المرأة أن ذلك لا يتأتى منها أبدا، بعدما كنت مع

1- كذا في تفسير روح البيان ج2/ 181.

أبيك لا يمكن أني أكون معك أبدا. فقال الولد إنه لا بد أن يتزوجها قهرا بالوراثة، فتحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ امرأة تزوجها الأب لا يجوز أن يتزوجها الولد ﴿إِلاَّ﴾ لكن ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من فعلكم، ما تقدم قبل نزول الآية فحلال وبعد نزول الآية حرم هذا النكاح ﴿إِنَّهُ﴾ نكاحهن ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾ قبيحا ﴿وَمَقْتًا﴾ سببا لمقت الله تبارك وتعالى وهو أشد البغض ﴿وَسَاءَ﴾ بئس ﴿سَبِيلاً﴾ طريقا ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ نصت الآية على النساء اللاتي يحرم على الرجل أن يتزوج واحدة منهن، حرام على الرجل أن ينكح أمهاته أمه وأم أمه وأم تلك وأم تلك إلى أعلى ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ شملت بنات الأولاد وإن سفلن، بنت الرجل وبنات أولاده وبنات أولئك وبنات أولئك إلى آخر الدهر ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ من جهة الأب أو الأم كذلك كل امرأة بينكم وبينها أخوة من جهة الأب أو الأم ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أخوات آبائكم وأجدادكم ﴿وَخَالاَتُكُمْ﴾ أخوات أمهاتكم وجداتكم ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ ويدخل فيهن أولادهم ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ والأم التي أرضعت الرجل قبل استكمال الحولين ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ ويلحق بذلك بالسنة البنات منهن ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ﴾ وربائبكم جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من غيره ﴿اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ تربونها صفة موافقة للغالب فلا مفهوم لها، الغالب أن الربيبة تكون في الحجر، ولكن ولو لم تكن في الحجر فالربيبة حرام ﴿مِن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ الربيبة المحرمة هي الربيبة التي دخل الرجل بأمها ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ إن كان الرجل عقد على أم المرأة ولم يدخل بها ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يجوز أن يطلق الأم وينكح البنت إن قبلت ﴿وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ﴾ ولد الصلب إذا تزوج بامرأة فهي حرام على الأب ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ

﴿بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ من نسب أو رضاع بالنكاح ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ما تقدم في الجاهلية من الجمع بين الأختين فذلك حلال ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لما سلف منكم قبل النهي ﴿رَحِيمًا﴾ ما حرم الله شيئا في القرآن قط واستثنى ما سلف إلا في مسألتين: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء» قال «إلا ما قد سلف»، «وأن تجمعوا بين الأختين» قال «إلا ما قد سلف». والعلة في ذلك أن هاتين المسألتين وقعتا في بعض آباء النبي صلى الله عليه وسلم. كنانة تزوج بزوجة أبيه، ومن آباء النبي صلى الله عليه وسلم من جمع بين الأختين، فلو حرمت ولم يستثن ما سلف لمس هذا من كرامة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم مصون الجانب ما تقدم قبل نزول الآية حلال لئلا يمس شيء من طرف النبي صلى الله عليه وسلم. هذه الحكمة في هذا الاستثناء. هؤلاء النساء حرم نكاحهن. اللهم صل على سيدنا محمد.

فهرست الجزء الأول

تقديم 3
الدّرس الأوّل 30
سورة فاتحة الكتاب 47
سورة البقرة 55
الدّرس الثّاني 60
الدّرس الثّالث 74
الدّرس الرّابع 98
الدّرس الخامس 122
الدّرس السّادس 170
الدّرس السّابع 213
سورة آل عمران 244
الدّرس الثّامن 256
الدّرس التّاسع 290

الدّرس العاشر.. 336

سورة النّساء.. 358

انتهى طبع هذا الكتاب بعون اللّه تعالى
بمطابع مجمع اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس
جانفي 2010